بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو حَيّانَ التوحيديّ : نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ووصَلَ إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين ، وظَفِر بالفوز والنعيم مَن قَطَع طمعَه من الخَلق أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على نبيّه وعلى آله الطاهرين .

أمّا بعد ، فإنّى أقول منبهًا لنفسى ، ولمن كان من أبناء جنسى : من لم يُطِعْ (١)
ناصحَه بقبول ما يَسمع منه ، ولم يُمَلِّكْ صديقَه كلَّه[١] فيما يمثّله له ، ولم ينْقَدْ لبيَانِه[٢] فيما يُرِيغُه[٣] إليه ويُطلِعه عليه ؛ ولم يَرَ أنّ عقل العالِم الرشيد ، فوق عقلِ المتعلِّم البليد ؛ وأنّ رأىَ المجرِّب البصير ، مقدَّمٌ على رأى الغُمْرِ[٤] الغرير فقد خَسِر حظَّه فى العاجل ، ولعلّه أيضا يَخسَر حَظّه فى الآجل ؛ فإنّ مصالح الدنيا معقودةٌ بمَراشد الآخرة ، وكلّيّاتِ الحِسّ فى هذا العالَم ، فى مقابلة موجودات العقل فى ذلك العالَم ؛ وظاهرُ ما يُرَى بالعِيان مُفْضٍ إلى باطنِ ما يَصْدُق عنه الخَبَر ؛ وبالجملة ، الدّاران متّفقتان فى الخير المغتبَطِ به ، والشرّ المندومِ عليه ؛ وإنّما يختلفان بالعمل المتقدّم فى إحداها ، والجزاء المتأخّر فى الأخرى ؛ وأنا أعوذ بالله المَلِكِ الحقّ الجبّارِ العزيزِ الكريمِ الماجدِ أن أجهل حظّى ، وأعمَى عن

---

(١) كله : مفعول لـ « يملّك » ، يريد بهذه العبارة تمام الطاعة لصديقه حتى كأن صديقه مالك له كله يتصرف فيه كيف يشاء .

(٢) فى الأصل « ولم ينفذ لسانه » .

(٣) يريغه : يريده ويطلبه .

(٤) الغمر بالفتح والضم : من لم يجرب الأمور ؛ والجاهل الأبله .

رُشْدى ، وألقِىَ بيدى إلى التَّهْلُكة ، وأتجانَفَ[1] إلى مايسوءنى أوّلا ولا يسرُّنى آخِرا ؛ هذا وأنا فى ذَيل الكهولة وبادئةِ الشيخوخة ، وفى حالِ مَنْ إنْ لم تَهدِه التجارب فيما سلف من أيَّامِه ، فى حالَى سَفَره ومُقامِه ؛ وفقرِه وغِنائه ، وشِدّته ورخائه ، وسَرّائه وضرّائه ، وخِيفَتِه ورجائه ؛ فقد أُنقطع الطمعُ من فلاحِه ووقع اليأسُ مِن تدَارُكه وأستصلاحِه ؛ فإلى الله أفزعُ من كلّ رَيْثٍ وعَجَل وعليه أتوكّل فى كل سؤل وأمل ، وإيَّاه أستعين فى كلّ قول وعمل .

(٢) قد فهمتُ أيُّها الشيخ[2] — حَفِظ الله رُوحَك ، ووَكَلَ السلامةَ بك ، وأفرَغَ الكرامة عليك ، وعَصَبَ كلّ خير بحالك ، وحَشَد كلّ نعمةٍ فى رِحابِك ورَحِم هذه الجماعةَ الهائلة — مِن أبناء الرجاء والأمل — بعنايتك ، ولا قطَعَك من عادة الإحسان إليهم ، ولا ثنَى طَرْفَك عن الرّقّة لهم ، ولا زهّدك فى أصطناع حالِيهم وعاطِلهم ، ولا رَغِب بك عن قبول حقّهم لبعض باطلِهم ، ولا ثقّل عليك إدناء قريبِهم وبعيدِهم ، وإنالةَ مستحِقّهم وغيرِ مستحِقّهم أكثرَ مما فى نفوسهم وأقصى ما تقدر عليه من مواساتهم ، من بِشْرٍ تبديه ، وجاهٍ تبذُله ، ووعدٍ تُقدِّمه ، وضمانٍ تؤكّده ، وهَشاشةٍ تَمزُجها ببشاشة ، وتبسُّمٍ تخلطه بفُكاهة فإنّ هذه كلّها زكاةُ المروءة ، ورِباطُ النّعمة ، وشهادةٌ بالمَحْتِد[3] الزّكىّ والعِرْق الطيِّب والمَنشأ المحمود ، والعادةِ المَرْضيّة ؛ وهى مؤذِنةٌ بأنّ المِنْحة راهنة[4] ، والمَوْهِبةَ قاطنة ، والشكرَ مكسوب ، والأجرَ مذخور ، ورضوانَ الله

(١) « وأتجافى » ، وهو تحريف . والتجانف إلى الشىء : الميل إليه .
(٢) يريد بالشيخ أبا الوفا المهندس ، وهو الذى وصل أبا حيان بالوزير أبى عبد الله العارض كما يفهم مما يأتى .
(٣) « بالمجد » .
(٤) راهنة : دائمة .

واقع ؛ وأسأل الله بعد هذا كلِّه ألاّ يُسْهِم[1] وجهى عندَك ، ولا يُزِلّ قدَمى فى خدمتِك ، ولا يُزِيغَنى[2] إلى ما يقطع مادَّةَ إحسانِك وعائدةَ رأيك ونافعَ[3] نيّتِك وجميلَ معتقَدِك ، بمنّه ولطفِه .

فهمت جميعَ ما قلته لى بالأمس فهما بليغا ، ووعيتُه وَعْيًا تامّا ؛ وبان لى الرُّشْدُ فى جملتِه وتفصيله ، والصلاحُ فى طرفيه ووسطه ، والغنيمةُ فى ظاهره وباطنه ، والشفقةُ من أوّله إلى آخره . وأنا أعيده هٰهنا بالقلم ، وأرسُمُه بالخطّ وأقيّده باللفظ ، حتّى يكون اعترافى به أرْسَى وأثْبَت ، وشهادتى على نفسى أقوَى وأوْكَد ، ونُكُولى عنه أبعَدُ وأصعَب ، وحُكْمُكَ بهِ لى وعلىّ أمضَى وأنفَذ .

قلتَ لى — أدام الله تعالى توفيقَك فى كلّ قولٍ وفعل ، وفى كلّ رأْيٍ (٣)
ونظر — : إنّك تعلم يا أبا حيّانَ أنّك انكفأْتَ من الرّىّ[4] إلى بغداد فى آخر سنة سبعين[5] بعد فوتِ مأمولِك من ذى الكفايتين[6] — نضّر الله وجهه — عابسا على ابن عبّاد[7] مَغِيظا منه ، مقروحَ الكبد ، لما نالك به من الحِرمان

(١) السهوم : تغير الوجه وعبوسه من الهم ؛ وكنى به عن تغير الحال .
(٢) يزيغنى : يميلنى .
(٣) « ويانع » .
(٤) الرى : مدينة فارسية قديمة كانت قصبة بلاد الجبال ، وكان اسمها الفارسى راغة ومنه أخذ اسمها العربى ، وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران .
(٥) أى وثلثمائة .
(٦) ذو الكفايتين : لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد . ويعنون بالكفايتين كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه ابن العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى ، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦ هـ .
(٧) ابن عباد ، هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبى الحسن عباد ، ولد سنة ست وعشرين وثلاثمائة ، وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرى ، وكان وزيرا لمؤيد الدولة أبى =

المُرّ ، والصدّ[١] القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقَدْع[٢] المؤلم والمعامَلةِ السيّئة ، والتغافلِ عن الثواب على الخدمة ، وحبسِ الأجرةِ على النّسْخ والوِراقة ، والتجهُّم المتوالى عند كلّ لحظةٍ ولفظة .

وذكرتَ فى الجملة شقاء اتّصــل بك فى سَفَرك ذلك ، وعناء نال منك فى عُرْضِ[٣] أحوالِك ؛ ولَعَمرى إنّ السّفَر فَعول لهذا كلّه ولأكثر منه ؛ فأرعيتك بصرى ، وأعرتك سمعى ، وساهمتُك فى جميع ما وقرته فى أُذُنى بالجزع والتوجُّع والاستفظاع[٤] والتفجُّع ؛ وضَمِنتُ لك تلافىَ ذلك كلّه بحاقّ[٥] الشفقة وخالصِ الضمير ، ووعدتُك صلاحَ الحال عن ثبات النيّة ، وصحّةِ العقيدة ، وقلتُ : أنا أرعى حقّك القديمَ حين التقينا (بأرّجان[٦]) ، وأنا على باب (ابن شاهَوَيْه[٧]) الفقيه ، وعَهْدَك الحديثَ حين اجتمعنا بمدينة السلام ســنة ثمان وخمسين ؛ وأوصِلُك إلى الأستاذ أبى عبد الله العارض[٨] — أدام الله تأييده — وأخطب

= منصور بويه الديلمى ، ثم وزر لأخيــه فخر الدولة أبى الحسن على ، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا .

(١) « والقصد » .

(٢) القدع بالمهملة : المنع والزجر . وبالذال المعجمة : الشتم . والمعنى يستقيم على كلا الوجهين .

(٣) « فى عرض أحوالك » أى فى أكثرها . وعرض الشىء أكثره ومعظمه .

(٤) « والاستقطاع » .

(٥) حاق الشفقة : أى صادقها وكاملها .

(٦) أرجان : مدينة بين فارس وخوزستان ، وهى من كور الأهواز ، وتعرف الآن باسم « بابهان »

(٧) ابن شاهويه هو أبو بكر محمد بن أحمد بن على بن شاهويه الفارسى الفقيه الشافعى تولى القضاء ببلاد فارس ، وتوفى سنة ثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور .

(٨) أبو عبد الله العارض ، هو — فى رأينا — أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان كان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ إلى ســنة ٣٧٥ والعارض لقب له وهو كما فى الأنساب للسمعانى « من يعرّف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها إليهم ، ويعرض العسكر على الملك إذا احتيج إلى ذلك » والظاهر أنه لقب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقبا لأسرته (راجع الأدلة على هذا الرأى فى المقدمة) .

لك قبولا منه ، وتخفيفَ الإذن عليك ، وامتلاء الطَّرْف بك ، ونَيْلَ الحظوة بخدمتك وملازَمتك ؛ وفعلتُ ذلك كلَّه حتى استكتَبَكَ (كتابَ الحيوان) لأبي عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفُّرِك على تصحيحه ، ثم حَضنتُ[1] لك هذه الحالَ إلى يومنا هذا ؛ وهو الوزير العظيم الذى افتقرت الدولة إلى نظره وأمرِه ونهيه ، وإلى أن يكون هو المُبْرِمَ والناقض ، والرافعَ والواضع ، والكافىَ والوافى ، والمقرِّبَ لخَدَمِها ونصحائها ، والمزحزِحَ لحسدتها وأعدائها ؛ والراعىَ لرعيّتها ودَهْمائها ، والناهضَ بأثقالها وأعبائها ، أعانه الله على ما تولاّه ، وكفاه المهمَّ فى دنياه وأُخراه ، بمنّه وقدرتِه .

نعم ورتّبت ذلك كلَّه ، ولَم أقطع عنك عادتى معك فى الأُسترسال والأُنبساط ، والبر والمواساة ، والمساعدة والمواتاة[2] ، والتعصّب والمحاماة .

أفكان من حقّى عليك فى هذه الأسباب التى ذكرتُها ، وفى أخواتها التى تركتُها كراهةَ الإطالة بها أنّك تخلو بالوزير — أدام الله أيّامه — لياليَ متتابعةً ومختلفة ، فتحدّثُه بما تحبّ وتريد ، وتُلقِى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتبُ إليه الرُّقعةَ بعد الرُّقعة ؛ ولعلّك فى عُرْض ذلك تعدو طَوْرَكَ بالتّشدُّق[3] وتجوزُ حَدَّكَ بالأُستحقار ، وتتطاولُ إلى ما ليس لك ، وتغلَط فى نفسك ، وتَنسَى زَلّةَ العالِم ، وسَقطةَ المتحرِّى ، وخَجلةَ الواثق ؛ هذا وأنت غِرٌّ لا هيئة لك فى لقاء الكُبَراء ، ومحاورةِ الوزراء ؛ وهذه حالٌ تحتاج فيها إلى عادة غيرِ عادتك ، وإلى

---

(١) « حضنت لك هذه الحال » ، أى كفلتها لك وحفظتها عليك .

(٢) المواتاة : الموافقة .

(٣) التشدق ، هو التوسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز ، وهو أيضا استهزاء الرجل بالناس يلوى شدقه بهم وعليهم .

مِرانٍ سوى مِرانك ، ولِبْسَةٍ لا تشبه لِبْسَتَك ؛ وقَلَّ مَن قُرِّب من وزيرٍ خَدَم فأجاد ، وتكلَّم فأفاد ، و بُسِط فزاد ؛ إلاَّ سَكِر ، وقَلَّ من سَكِر إلا عَثَر وقَلَّ من عَثَر فانْتَعَش ، وما زَهِد فى هـذه الحال كثيرٌ من الحكماء الأولين والعُبّاد الربّانيّين ؛ إلا لِغلظها وصعوبتها ، ومكروهِ عاقبتها ، وشدة الصبر على فوارضها وروائبها[١] ، وتفسُّخِ[٢] المتن بين حوادثها ونوائبها .

والعَجَب أنك مع هذه الخِلَّة[٣] تظنّ أنها مطويةٌ عنّى وخافية دونى ، وأنك قد بلغت الغاية وادعَ القلب ، وملكتَ المكانة ثانى العِنان ؛ وقد انقطعتْ حاجتُك عنى وعمن هو دونى ، ووقع الغِنى عن جاهى وكلامى ولطفى وتوصيلى ؛ وجهلتَ أنَّ من قَدَر على وُصولك ، يقدر على فصولك[٤] ، وأن مَن صَعِد بك حين أراد ، ينزل بك إذا شاء ، وأن من يُحسِن فلا يُشكر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى يُعذَر .

و بعد ، فما أُطيل ، ولعلّ لَهَبَ المَوْجِدة يزداد ، ولسانَ الغيظ يغلو ، وطباعَ الإنسان تحتدّ ، والندمَ على ما أسلفتُ من الجميل يتضاعف ؛ ولستَ أنت أوّلَ مَن بُرَّ فعَقّ ، ولا أنا أوّل من جُفِىَ فنَقّ[٥] . وهذا فراقُ بينى و بينك وآخرُ كلامى معك ، وفاتحةُ يأسى منك ؛ قد غسلتُ يدى من عهدك بالأُشْنان[٦]

---

(١) « وروايتها » .

(٢) التفسخ : الضعف والعجز عن النهوض . والمتن : الظهر .

(٣) « الجلة » . والخلة بالكسر : الثلمة . يريد ما فيه من العيوب والنقائص .

(٤) فصولك ، أى خروجك من عند الوزير ، يقال : « فصل القوم من البلد فصولا » ، إذا خرجوا منها .

(٥) نق : من النقيق ، وهو فى الأصل صياح الضفدع ؛ والمراد هنا التحدث بما أسداه من النعم وما يلقاه من الكفران .

(٦) الأشنان : غاسول كانت تغسل به الثياب والأيدى ؛ وهو نبات لا ورق له ، وله أغصان دقاق فيها ما يشبه العقد ، وهى رخصة كثيرة المياه .

البارق ، وسلوتُ عن قربك بقلب معرِض وعزم حيّ ؛ إلا أن تُطلِعنى طِلعَ[١] جميع ما تحاورتما وتجاذبتما هُدْبَ الحديث عليه ، وتصرفتما فى هزله وجدّه ، وخيره وشرّه ، وطيّبه وخبيثه ، وباديه ومكتومه ؛ حتى كأنى كنتُ شاهدا معكما ورقيبا عليكما ، أو متوسطا بينكما ، ومتى لم تفعل هذا ، فانتظر عُقبى استيحاشى منك ، وتوقَّعْ قلّة غفولى عنك ، وكأنى بك وقد أصبحتَ حَرّانَ حيرانَ يا أبا حيّان ، تأكل أصبعك أسفا ، وتَزْدَرِدُ ريقَك لهفا ، على ما فاتك من الحَوْطة لنفسك ، والنظر فى يومك لغدك ، والأخذِ بالوثيقة فى أمرك ، أتظنّن بغرارتك[٢] وغَمارتك[٣] ، وذَهابك فى فُسُولَتك[٤] التى اكتسبتَها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء ؛ أنك تقدر على مثل هذه الحال ، وأنامُ منك على حسن الظن بك ، والثقة بصَدَرِك ووردك ، وأطمئن إلى حَكِّك وجَرْدِك وأتعامى عن حرِّك وبردك ؛ هيهات ؛ رَقدتَ فحَلَمْت ، فخيرا رأيت وخيرا يكون

على هذا الحدّ كان مَقْطع كلامك فى مَوجِدتك ، وإلى ههنا بلغ فَيْضُ عَتبِك ولائمتك ؛ وفى دون ذلك تنبيه للنائم ، وإيقاظٌ للساهى ، وتقويمٌ لمن يقبل التقويم ؛ وقد قال الأوّل :

ألا إنما[٥] يكفى الفتى عند زَيغه   مِن الأَوَدِ[٦] البادى ثِقافُ المقوِّمِ

فقلت لك : أنا سامع مطيع ، وخادمٌ شكور ، لا أشترى سخطك بكلّ

(١) يقال : « أطلعته طلع أمرى » بكسر الطاء ، أى أبثثته سرى .
(٢) الغرارة : الغفلة .
(٣) الغمارة : الجهل والبلاهة .
(٤) الفسولة : الضعف والخسة وقلة المروءة .
(٥) «أيما» بالياء .   (٦) الأود : العوج . والثقاف : ما تسوى به الرماح .

صفراء[١] وبيضاء فى الدنيا ؛ ولا أنفِر من التزام[٢] الذنب والاعتراف بالتقصير ؛ ومِثلى يهفو ويَجْمَح ، ومِثلك يعفو ويصفح ؛ وأنت مولىً وأنا عبد ، وأنت آمِرٌ وأنا مؤتمِر ، وأنت ممتثَلٌ وأنا ممتثل ، وأنت مصطنِع وأنا صنيعَةٌ ، وأنت منشِّئٌ وأنا مُنَشَّأ ، وأنت أوّل وأنا آخِر ، وأنت مأمول وأنا آمِلٌ ، ومتى لم تغفر لى الذنب البِكْر ، والجناية العَذْراء ، والبادرة النادرة ؛ فقد أَعْنَتنى على ما كان منّى ، وَدَلَلْتَ على مَلَالِك لى ؛ وأنك كنت مترصِّدًا لهذه الهفوة ومعتقدًا فى مقابلتها هذه الجفوة ؛ وكرمُك يأبى عليك هذا ، ومُثولى بين يديك خِدمةً لك يَحظُره عليك .

هذا وأنا أفعل ما طالبتَنى به مِنْ سَرْدِ جميع ذلك ، إلّا أنّ الخوض فيه على البديهة فى هذه الساعة يشُقّ ويصعُب بعقِب ما جرى من التفاوض ، فإن أذِنْتَ جمعتُه كلَّه فى رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والحلوِ والمُرّ ، والطرىّ والعاسى[٣] ، والمحبوب والمكروه ؛ فكان مِنْ جوابك لى : افعَلْ . وَنِعم ما قلتَ وهو أَحَبُّ إلىّ وأقربُ إلى إرادتى ، وَأَحْصَرُ لما أُريغُ[٤] منه ، وأدخَلُ فى الحجّة عليك ولك ؛ وأغسَلُ للوسخ الذى بينى وبينَك ، وأزهَرُ للسّراج الذى طَفِئَ عنّى وعنك ، وأجذَبُ لعِنان الحجّة إن كانت لك ، وأنطَقُ عن العذر إن اتّضح بقولك ؛ وإذا عزمتَ فتوكّل على الله ؛ وليكن الحديثُ على تباعد أطرافِه ، واختلافِ فنونه مشروحا ، والإسناد عاليًا متّصلا ، والمتنُ تامًّا بيّنا ،

(١) يريد بالصفراء الذهب ، وبالبيضاء الفضة .
(٢) « إكرام » .
(٣) العاسى : اليابس .

واللفظُ خفيفا لطيفا ، والتصريحُ غالبا [1] متصدِّرا [2] ، والتعريض قليلا يسيرا وتَوَخّ الحقّ في تضاعيفه وأثنائه ، والصدقَ في إيضاحه و إثباته ؛ وأتّق الحذف المُخِل بالمعنى ، والإلحاقَ المتّصلَ بالهَذَر ، وأحذرْ تزيينَه بما يَشينُه ، وتكثيرَه بما يقلّله ، وتقليلَه عمّا لايُستغنَى عنـه ؛ وأعمِدْ إلى الْحَسَن فزد في حُسنه ، و إلى القبيح فأنقُصْ من قبحِه ؛ وأقصدْ إمتاعِي بجُمْعَة [3] نظمِه ونثره ، و إفادتي من أوّله إلى آخره ؛ فلعَلّ هـذه المثاقفة [4] تبقَى وترْوَى ، ويكون في ذلك حُسنُ الذكرى ؛ ولا تُومِئْ إلى ما يكون الإفصاحُ عنه أحلى في السمع ، وأعذبَ في النّفس، وأعلقَ بالأدب ؛ ولا تفصِحْ عمّا تكون الـكناية عنـه أسترَ للعيب ، وأنفَى للرِّيب ؛ فانّ الكلام صَلِفٌ تيّاه لا يستجيب لكلّ إنسان ، ولا يَصحَب كلّ لسان ؛ وخطرُه كثير ، ومتعاطيــه مغرور ، وله أرَنٌ [5] كأرَنِ المُهْرِ و إباء كإباء الحَرُون ، وزهوٌ كزهو المَلِك ، وخَفْقٌ كخَفْقِ البرق ؛ وهو يتَسهّـل مرّة ويتعسّر مرارا ، ويَذِلّ طورا ويعِزّ أطوارا ؛ ومادّته من العقل [والعقلُ] سريعُ الحُؤول [6] خفيُّ الخداع ؛ وطريقُه على الوهم ، والوهم شديد السَّيَلان ومجراه على اللسان ، واللسان كثير الطغيان ؛ وهو مركّب من اللفظ اللغويّ والصَّوْغ [7] الطِّباعيّ ، والتأليفِ الصّناعيّ ، والأستعمالِ الأصطلاحيّ ، ومُستمْلاه

(١) « عاليا » .

(٢) « متصورا » .

(٣) الجمعة : المجموعة .

(٤) يريد بالمثاقفة المطارحة في العلم والأدب ومذاكرتهما .

(٥) الأرن بالتحريك : النشاط .

(٦) الحؤول : التحول .

(٧) « والصرع » .

من الحجا ، ودَرْيُه [١] بالتمييز ؛ وتَسْجُه بالرِّقة ، والحجا فى غاية النشاط [٢] وبهذا البَوْن يقع التباين ويتّسعُ التأويل ، ويجول الذّهن ، وتتَمَطَّى [٣] الدعوى ، ويُفزَعُ إلى البرهان ، ويُبرأ من الشبهة ، ويُعثَر بما أشبه الحجّةَ وليس بحجّة ؛ فاحذر هذا النّعت ورِوادفَه ، واتّق هذا الحُكمَ وقَوائفَه [٤] ؛ ولا تعشَق اللّفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء فى جانب ، فإن صناعتهم يُفتقَر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرُهم ، ولستَ منهم ، فلا تتشبّه بهم ، ولا تجرِ على مثالهم ، ولا تنسُج على منوالهم ، ولا تدخل فى غِمارهم ، ولا تكثّر ببياضك سوادَهم ، ولا تقابل بفُكاهتك براعتهم ، ولا تجذب بيدك رِشاءهم ، ولا تحاول بباعك مطاولتهم [٥] واعرف قدرَك تَسلَم ، والزم حدَّك تأمن ؛ فليس الكَوْدَن [٦] من العتيق فى شىء ، ولا الفقيرُ من الغنىّ على شىء ؛ أما سمعتَ قول الناس : ليس الشامىُّ للعراقىِّ [٧] بصاحب ، ولا الكردىّ من الجندىّ بساخر ، فإن طال [٨] فلا تُبَـلْ ، وإن تَشَعَّبَ فلا تكترث ، فإن الإشباع فى الرواية أشفَى للغليل ، والشرحَ [٩] للحال أبلغُ إلى الغاية ، وأظفرُ بالمراد ، وأجرَى على العادة.

فكتبت : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم) ، أقول أيّها الشيخ — عطَف الله

(١) دريه ، أى درياته وعلمه .
(٢) الظاهر أن هنا كلاما سقط من الناسخ .
(٣) تتمطى : تتطاول .
(٤) قوائفه ، أى توابعه . يقال : قاف أثره إذا تبعه
(٥) « مطاوعتهم » .
(٦) الكودن : الفرس الهجين والبرذون . والعتيق من الأفراس : الكريم الرائع منها .
(٧) يشير بهذه الجملة إلى ما وقع بين الشام والعراق من العداوة أيام على ومعاوية وما ذلك .
(٨) طال ، أى الكلام .
(٩) « والسرج » .

قلبك عليّ ، وألمك الإحسان إليّ – فى جوابِ جميع ما قلته واجداً عليّ وعاتبا ، وقابضا ، وباسطا ، ومرشدا ، وناصحا ؛ ما يُعْرَف الحقّ فيه ، ويَستبينُ الصوابُ منه ، غيرَ خائنٍ لك ، ولا جانحٍ إلى مخالَفتك ، ولا مُريغٍ[1] للباطل معك ، ولا جاحدٍ لأياديك القديمة والحديثة ، ولا منكِرٍ لنعمتك الكافية الشافية ، ولا غاطٍ[2] على فواضلك المجتمعة والمتفرقة ، ولا تاركٍ لشىء هو على من أجل شىء هو لى ، ولا معرض عن شىء هو لى بسبب شىء هو علىّ ؛ بل أجهّز دِقَّه وجِلَّه إليك حتى تراه بِسِدِّه[3] وغُباره ، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزارِه . كأنى لم أسمع قولَ الأوّل :

« والكفر[4] مَخبَثةٌ لنفس المنعِمِ » « والشكر مَبعثةٌ لنفس المفضِلِ »

أأنا أدَعُك واجداً عليّ ، وأرقد وأنت ماقِتٌ لى ، وأجد حِسّ نعمة أنت وهبتَها إليّ ، وألذّ عيشاً أنت أذقتنى حلاوتَه . أأنسى أياديك وهى طوقُ رقبتى ، ونَجاةَ عينى ، وحشوُ نفسى ، وراحةُ حِلمى ، وزادُ حياتى ، ومادّة روحى ؟ هيهات ، هذا بعيد من القياس ، وغيرُ معهود بين أحرار الناس ؛ الذين لهم اُهتمام بصون أغراضهم ، وحرصٌ على إكرام أنفسهم ؛ قد عَبِقوا[5] بفوائح الفتوّة ، وعَلِقوا بحبائل المروءة ، وشدَوْا[6] من الحكمة أشرفَ الأبواب ؛ واعتَزَوْا من الأدب

(١) المريغ : المريد .

(٢) غطى على الشىء بتخفيف الطاء : كغطى عليه بتشديدها .

(٣) السِّد : الصحيح من الكلام وكنى بالغبار عما يثور حول الكلام من اعتراض ونحوه ، ومنه قولهم : « كلام لا غبار عليه » .

(٤) هذا الشطر عجز بيت لعنترة العبسى وصدره :

نبئت عمرا غير شاكر نعمتى

(٥) « عتقوا بفرائح » .

(٦) شدوا : أخذوا . يقال : شدا من العلم شيئا إذا أخذه كأنه ساقه أو جمعه ، وفى الأصل « شذوا » بالمعجمة .

إلى أعز حَرَم[١] ؛ وحازوا شرفا بعد شرف ، وانحازوا عن نَطَف بعد نَطَف[٢] ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة ، وعَزَفُوا[٣] أنفسهم عن زهراتها بتجربة صادقة .

فأول ما أبدؤك به أنّى ظننتُ ظنا لا كيقين أنّ شيئاً مما كنتُ فيه مع الوزير — أدام الله أيّامه ، وقَصَم أعداءه — ليس مما يهمّك ، ولا هو مما يقْرَعُ سمعَك سماعُك له ؛ وحسبتُ أيضاً أنّى إن بدأتُ بشيء منه رَذَلْتَنى عليه وتنقّصتنى به ، وزَرَيتَ علىّ فيه ؛ وأنّك ربّما قلت : لم بدأتَ بما لم أسئلك عنه ولم أرخّص لك فيه ، هلّا كظمتَ على جِرّتِك[٤] ، وطويتَ مابين جنبيك وما علىّ مما يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء ، والناظرين فى أمور الدهماء[٥] والمتصفحين لأحوال العامّة والخاصّة ، ولهم أسرار وعيوبٌ لا يقف عليها أقرب الناس إليهم ، وأعزُّ الناس عليهم ، وأنت أيضا فلَم تسألنى عنه ، فكان فى تقديرى أنّك قد عرفتَ وصولى فى وقت دون وقت ، وأنّك قد حَملتَ أمرى على الخدمة التى ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائتة .

وإذْ جرى الأمر على غير ما كان فى حسابى وتَلَبّسَ[٦] بظنى ، فإنّي أهدى ذلك كلّه بغَثاثته وسَمانته ، وحلاوته ومرارته ، ورِقّته وخَثارته فى هذا المكان ؛ ثمّ أنت أبصَرُ بعد ذلك فى كتمانه وإفشائه ، وحفظه وإضاعته وستره[٧] وإشاعته ؛ ووالله ما أرَى هذا أمراً صعْباً إذا وصل إلى مرادِك

(١) « خدم » .
(٢) النطف بالتحريك : العيب والفساد .
(٣) « عرفوا » وعزف عن الشيء : أعرض عنه وزهد فيه .
(٤) « جريك » ، وجرة البعير معروفة ، شبه بها الحديث المختزن يفشيه صاحبه .
(٥) « الدبهما » والدهماء : جماعة الناس .
(٦) « ولـكبس » .
(٧) « ونهره وأشكر عنه » .

ولا كُلفةَ شاقةَ إذا أكسبنى مَرضاتَك ؛ وإن كان ذلك يمرّ بأشياء كثيرةٍ ومختلفةٍ ، متعصّية غريبةٍ ، منها ما يَشِيط[1] به الدم المحقون ، ويُنزَع من أجلِه الرُّوح العزيز ، ويُستصغَر معه الصَّلْب ، ولا يُقنَع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ؛ وإن كان فيها أيضا غيرُ ذلك ممّا يُضحِك السِّنّ ، ويُفكّه النفس ، ويدعو إلى الرشاد ، ويدُلّ على النُّصح ، ويؤكِّد الحُرْمة ، ويَعقِد الذِّمام ، ويَنشُر الحكمة ، ويشرِّف الهمّة ، ويَلقَح العقل ، ويزيد فى الفهم والأدب ويفتح بابَ اليُمْن والبركة ، ويُنَفِّق بضاعةَ أهل العلم فى السوق الكاسدة ، ويوقظ العيون الناعسة ، ويَبُلّ الشِّنّ[2] المتغضِّف ، ويُندِّى الطِّين المترشِّف ؛ ويكون سبباً قويا على حُسن الحال وطلبِ العيش ، فإن هذه العاجلةَ محبوبة ، والرَّفاهيةَ مطلوبة ، والمكانةَ عند الوزراء بكلّ حولٍ وقوّةٍ مخطوبة ، والدنيا حلوةٌ خَضِرة وعَذْبةٌ نَضِرة ، ومن شَفّ[3] أملُه شَقّ عملُه ؛ ومن اشتدّ إلحاحُه ، توالَى غدوُّه ورَواحُه ، ومَن أسَرَه رجاؤه ، طال عناؤه ، وعَظُم بلاؤه ؛ ومن أُلتهب طمعُه وحرصُه ، ظهر عجزُه ونقصُه .

وفى الجملة :

من لم يكن لله متّهِماً ... لم يُمْسِ محتاجًا إلى أحدِ

(٦) ولا بدّ من فتًى يعينُ على الدّهر ، ويُغنى عن كرام الناس فضلا عن لئامهم ، ويذلِّل قعودَ الصبر ، ويُجِمّ راحلةَ الأمل ، ويُحلِي مُرّ اليأس ؛ والعُزلة محمودةٌ

---

(١) يشيط : يذهب هدرا .

(٢) « السن بالسين المهملة » . والشن بالمعجمة : القربة الخلق . والمتغضف ، أى المتكسر المتغضن من اليبوسة .

(٣) شف أمله : زاد ، ويجوز أن يفسر بمعنى أسقمه الأمل وأضناه لعلوه وبعد مناله .

إلاّ أنّها محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مَزّة[١] فَكِهةٌ ولكنّها فقيرةٌ إلى البلغة وصيانةُ النفس حسنة إلاّ أنّها كُلْفة مُحرجة إن لم تكن لها أداةٌ تجِدُّها[٢] وفاشيةٌ[٣] تَمُدُّها ، وتركُ خدمة السلطان غيرُ الممكن ولا يستطاع إلاّ بدِينٍ متين ، ورغبةٍ فى الآخرة شديدة ، وفِطامٍ عن دار الدنيا صعب ، ولسانٍ بالحلو والحامض يَلَغ .

قال ابنُ السَّمّاك[٤] : لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْف ، ولم يُسَلَّ سيف ، لقمةٌ أسوَغ من لقمة ، ووجه أصبَحُ من وجه ، وسِلْك[٥] « أنعَمُ من سِلْك » ، وليس كلُّ أحد له هذه القوّة ، ولا فيه هذه المُنّة[٦] والإنسان بَشَر ، وبِنيتُه متهافتة وطينتُه منتثِرة ، وله عادةٌ طالبة ، وحاجةٌ هاتكة ، ونفسٌ جَموح ، وعينٌ طموح ؛ وعقلٌ طفيف[٧] ، ورأى ضعيف ، يهفو لأوّل ريح ، ويستخيلُ[٨] لأوّل بارق ؛ هذا إذا تخلّص من قُرَناء السوء ، وسلِم من سوارق[٩] العقل ، وكان له سلطان على نفسه ، وقَهْرٌ[١٠] لشهواته ، وقَمْعٌ لهوائجه[١١] وقبولٌ من ناصحه ، وتهيّؤٌ

(١) « مرة » والمزّة : الخمرة اللذيذة الطعم .

(٢) تجدها ، أى تجددها .

(٣) الفاشية : ما انتشر من المال . وفى الأصل « غاشية » .

(٤) « ابن السائل » ، وهو تحريف وابن السماك هو أبو العباس محمد بن صبيح الكوفى الزاهد الواعظ المشهور لقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هرون الرشيد وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة .

(٥) السلك : الخيط . وكنى به عن الثوب لأنه من الخيوط .

(٦) « المقة » . والمنة بضم الميم : القوة .

(٧) الطفيف الناقص والقليل .

(٨) فى الأصل : « ويستحيل » بالحاء ، وهو تصحيف . ويستخيل لأول بارق ؛ أى يخال المطر عند أول بارق .

(٩) يريد بسوارق العقل : الشهوات التى تذهب به وتجعله فى حكم غير الموجود كأنها تسرقه . والذى فى الأصل : « سرادق » ؛ وهو تصحيف .

(١٠) « وفهم » .

(١١) لهوائجه ، أى لما يهيج به من النزعات والمطامع .

فى سعيه ، وتبوُّءٍ فى مَعَانٍ[1] حَظّه ، وأتمامٌ بسعادته ، وأستبصارٌ فى طلب ما عند ربّه ، وأستنصافٌ من هواه المُضِلّ لعقله المرشِد ، هذا قليلٌ وصعب ولو قلتُ : معدومٌ أو مُحال فى هذا الزمن العسير والدهر الفاسد ، لما خفتُ عائقاً يعوقنى ، ولا حسودا يردّ قولى . قال ابن السَّمّاك : الله المستعان على ألسُنٍ تَصِف وقلوبٍ تَعترف ، وأعمالٍ تختلف . وقال معاوية لأبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث — ورآه لا يَلِى له عملا ، ولم يَقبل منه نائلا — : يا ابن أخى ، هى الدنيا ، فإمّا أن تَرْضَع معنا ؛ وإمّا أن تَرتدِع عنّا . وربّما قال بعض المتكلّفين قد قال بعض السلف : ليس خيرَكم مَن تَرَكَ الدنيا للآخرة ، ولا مَن تَرَكَ الآخرة للدنيا ولكنّ خيرَكم مَن أخذ من هذه وهذه .) وهذا كلام مقبول الظاهر موقوفُ الباطن . وربما قال آخرُ من المتقدمين : (أعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وأعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا) . وهذا أيضا كلامٌ منمّق ، لا يَرجع إلى معنًى محقّق ؛ أين هو من قول المسيح — عليه السلام — حين قال : الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بَعُدَ أحدكم من أحدهما قَرُب من الآخَر ؛ ومتى قَرُب من أحدهما بَعُدَ من الآخَر . وأين هو من قول الآخَر : الدنيا والآخرة ضَرّتان ، متى أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى ، ومتى أسخطتَ إحداهما أرضيتَ الأخرى .

وهذا لأنّ الإنسان صغيرُ الحجم ، ضعيفُ الحَول ، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذِ حظوظ بدنه وإدراكِ إرادته ، وبين السعى فى طلب المنزلة عند ربّه بأداء فرائضه ، والقيامِ بوظائفه ، والثباتِ على حدود أمره ونهيه ، فإن صَفُق

---

(١) المعان : المباءة والمنزل .

وجهُه وقال : نَعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار ، فهذا المذبذب الّذى لا هو من هذه ولا من هذه ؛ ومن تَخَنَّثَ (١) و تَلَيَّثَ لم يكن رجلاً ولا امرأة ، ولا يكون أبا ولا أما ؛ وهذا كما نرى .

ونرجع فنقول : ونعوذ بالله من الفقر خاصّة إذا لم يكن لصاحبه عِياذٌ من التقوى ، ولا عِمادٌ من الصبر ، ولا دِعامةٌ (٢) من الأنَفة ، ولا اصطبارٌ على المرارة .

وقد بُلينا بهذا الدهر الخالى من الدّيّانين الذين يُصلِحون (٣) أنفسهم ويُصلِحون غيرَهم بفضل صلاحهم ، الخاوى من الكرام الذين كانوا يتّسعون فى أحوالهم ، ويوسّعون على غيرهم من سَعَتِهم ، وكانوا يهتمّون بذخائر الشكر المعجّل فى الدنيا ، يَحرِصون (٤) على ودائع الأجر المؤجّلِ فى الأخرى ؛ ويتلذّذون بالثناء ، ويهتزّون للدعاء ؛ وتَملِكهم الأريحيّةُ عند مسئلة المحتاج ، وتعتريهم الهِزّةُ معها والابتهاج ؛ وذلك لعشقهم الثناء الباقى ؛ والصنيعَ الواقى ؛ ويرون الغنيمةَ فى الغرامة ، والرِّبحَ فى البذل ، والحظَّ فى الإيثار ، والزيادةَ فى النقص ؛ أعنى بالزيادة . الخلَفَ المنتظَرَ من الله ؛ وبالنقص : العطاء ؛ ورأيتُ الناس يعيبون ابن العميد حين قال : أنا أعجب من جهل الشاعر الذى قال :

أنت للمالِ إذا أمسكتَه ... فإذا أنفقتَه فالمالُ لك

قال : ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغى أن يُكتَسبَ المال ، لأنّه ليس فى ترك

---

(١) فى الأصل : « تحنث » ؛ وهو تصحيف . ويريد بالتخنث والتليث : اللين والتشدد تشبها بالمخنثين والليوث .

(٢) « دمأثة » . والدعامة : العماد .

(٣) « لا يصلحون » : وقوله « لا » زيادة من الناسخ .

(٤) « يخوضون » .

كسبه أكثرُ من إخراجه بالإنفاق . هـذا لقولهم [١] بحكمته وعقلِه وتحصيله وصوابُ الجاهل لا يُستحسَن كما يُستقبَح خطأ العاقل ؛ نعم ، وكانوا إذا وَلُوا عَدَلوا ، وإذا مَلَكوا أفضَلوا [٢] ، وإذا أعطَوا أجزَلوا ، وإذا سُئلوا أجابوا وإذا جادوا أطابوا ، وإذا عالوا [٣] صبروا ، وإذا نالوا [٤] شكروا ؛ وإذا أنفقوا واسَوا ، وإذا امتُحِنوا تأسَّوا ؛ وكانوا يرجعون إلى نقـائبَ ميمونة ، وإلى ضرائبَ [٥] مأمونة ؛ وإلى ديانات قويّة ، وأماناتٍ ثخينة [٦] ؛ وكان لهم مع الله أسرار طاهرة ، وعلانيةٌ مقبولة ؛ ومع عباد الله معاملةٌ جميلة ، ورحمةٌ واسعة ومَبْذَلةٌ فاشية ؛ وكانت تجارتُهم في العلم والحكمة ، وعادتهم جارية على الضِّيافة والتَّكرِمة ؛ وكانت شِيمتُهم الصفح والمغفرة وربحُهم [٧] من هذه الأحوال النجاةَ والكرامةَ في الأُولى والعاقبة ؛ وكانوا إذا تلاقَوا تواصَوا بالخير ، وتناهَوا عن الشرّ ؛ وتَنافَسوا في اتّخاذ الصنائع ، وادّخار البضائع (أعني صنائعَ الشكر ، وبضائعَ الأجر) فذهب هـذا كلُّه ، وتاه [٨] أهلُه ؛ وأصبح الدِّين وقد أُخلِق لَبُوسُه ، وأُوحِشَ مأنوسُه ، واُقتُلِع مغروسُه ؛ وصار المنكَر معروفا ، والمعروفُ منكَرا ، وعاد كلُّ شيء إلى كدرِه وخاثِره ، وفاسدِه وضائرِه ؛ وحَصَل الأمرُ

---

(١) هـذا لقولهم ، أي عيب الناس لابن العميد في كلامه السابق ، لما يصفونه به من الحكمة والعقل الخ .

(٢) أفضلوا : أنعموا .

(٣) في الأصل « اعتزلوا » . وعالوا : افتقروا ، من العيلة بفتح أوله .

(٤) « قالوا » .

(٥) الضرائب : الطبائع والسجايا ، الواحدة ضريبة .

(٦) ثخينة : قوية كما يقال في عكس ذلك : هو رقيق الدين ، أي ضعيفه .

(٧) « وزكرهم » .

عَلَى أن يقالَ : فلانٌ خفيفُ الرُّوح ، وفلان حسَنُ الوجه ، وفلان ظريفُ الجملة ، حلوُ الشمائل ، ظاهرُ الكَيْس ، قويُّ الدَّسْت[1] فى الشِّطْرَنْج ، حَسَنُ اللّعب فى النَّرْد ، جَيِّدٌ فى الاستخراج ، مدبِّرٌ[2] للأموال ، بَذولٌ للجَهْد ، معروفٌ بالاستقصاء لا يُغضِى عن دانق ، ولا يتغافل عن قيراط ؛ إلى غير ذلك مما يأنَفُ العالِم من تكثيره ، والكاتبُ من تسطيره .

وهذه كلُّها كنايات عن الظلم والتجديف[3] ، والخساسة والجهل وقلّةِ الدِّين وحبِّ الفساد ، وليس فيها شىءٌ مما قدّمنا وصفَه عن القوم الّذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرِّقّةِ والرحمة والاصطناعِ والعدلِ والمعروف .

وأرجعُ عن هذه الشَّكيّة الطويلة اللاذعة والبليّةِ العامّةِ الشاملة ؛ إلى عينِ ما رسمتَ لى ذِكرَه ، وكلّفتَنى إعادتَه ؛ عائذا بالله فى صَرف الأذى عنّى وسَوْقِ الخير إلىّ ؛ ولائذا بكرمك الّذى رِشْتَنى[4] به إلى الساعة ، وكفيتَنى به مؤونةَ الخِدمة لغيرك من هذه الجماعة ؛ والأعمالُ بخواتيمها ، والصُّدورُ بأعجازها ؛ وأنت أولى الناس بالصَّفْح والتجاوُزِ عنّى إذا عرفتَ براءتى فى كلّ ما يتعلّق بى من ذمامك ؛ ويجب علىّ من الحقّ فى مودّتك ، والاعتصامِ بحبلك والانتجاع[5] من عُشْبك ، والارتغاء[6] من لَبَنك .

(١) الدست : الحيلة ، وهو أيضا ما يكون فيه الغلب فى الشطرنج ؛ تقول : « الدست لى والدست على » .

(٢) « مثير » .

(٣) التجديف : الكفر بنعمة الله . وفى الأصل : والتخويف .

(٤) راشه يريشه : جعل له ريشا . شبه ما بذله له من المعروف بالريش للطائر .

(٥) الانتجاع : طلب المعروف .

(٦) فى الأصل « الارتقاء » بالقاف ؛ وهو تصحيف . والارتغاء : أخذ رغوة اللبن واحتساؤها .

الليلة الأولى

(١) وصلتُ أيها الشيخ — أطال الله حياتك — أوّل ليلة إلى مجلس الوزير — أعزّ الله نصرَه ، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أزرَه — فأمَرَني بالجلوس ، و بسَطَ لى وجهَه الّذى ما أُعتراه منذ خُلِق العُبوس ؛ ولَطُفَ كلامَه الّذى ما تَبدّل منذ كان لا فى الهَزْل ولا فى الجِدّ ، ولا فى الغضب ولا فى الرضا .

ثم قال بلسانه الذّليق[١] ، ولفظِه الانيق : قد سألتُ عنك مرّاتٍ شيخَنا أبا الوفاء ، فذَكر أنّك مراعٍ لأمر البِيمارِسْتان من جهته ، وأنا أرْبَأُ بك عن ذلك ، ولَعلّى أعرّضك لشىء أنْبَهَ من هذا وأجدَى ، ولذلك فقد تاقت نفسى إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولأتعرّفَ[٢] منك أشياءَ كثيرةً مختلفةً تَرَدّدُ فى نفسى على مَرّ الزمان ، لا أحصيها لك فى هذا الوقت ، لـكنّى أنثرُها فى المجلس بعد المجلس على قدر ما يَسنح و يَعرِض ، فأجبْنى عن ذلك كلِّه باسترسال وسكونِ بال ؛ بملء فيك ، وجَمّ خاطرِك ، وحاضرِ عِلمِك ؛ ودَعْ عنك تفنُّنَ البَغداديّين[٣] .... [٤] مع عفوِ لفظِك ، وزائدِ رأيِك ، ورِبْع[٥] ذِهنِك ؛ ولا تَجبُنْ جُبْنَ الضُّعفاء ، ولا تتأطَّرْ[٦] تأطُّرَ الأغبياء ؛ وأجزِم إذا قلت ، وبالِغ إذا وصفت ؛ وأصدُق إذا أسندْت ، وأفصل إذا حَكَمت ، إلاّ إذا عَرَض لك

(١) اللسان الذليق : الحاد البليغ .
(٢) « ولا تفرق » .
(٣) يريد بتفنن البغداديين : استطرادهم فى الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن .
(٤) هنا كلمة مطموسة بالأصل لا تمكن قراءتها .
(٥) ربع ذهنك ، أى فضلته .
(٦) التأطر : التحبس والتثنى ، شبه به وقوف الغبي وتردده فى جواب ما يسأل عنه .

ما يوجب توقُّفا أو تهاديا[١] ؛ وما أحسَنَ ما قال الأوّل :

لا تَقْدَحُ الظِّنَّةُ فى حُكمِه   شيمتُه عدلٌ وإنصافُ
يَمضِى إذا لم تَلْقَه شبهةٌ   وفى اعتراضِ الشكِّ وَقّافُ

وقد قال الأوّل :

أبالى البلاء وإنّى امرؤٌ   إذا ما تبيّنتُ لَم أرْتَبِ[٢]

وكن على بصيرة أنّى سأستدِلّ ممّا أسمعه منك فى جوابك عمّا أسألك عنه على صدقك وخلافِه ، وعلى تحريفك وقِرافِه[٣] .

(٢) فقلتُ قبلُ : كلُّ شىء أريد أن أجاب إليه يكون ناصِرى على ما يراد منّى فإنّى إن مُنِعْتُه نَكَلْتُ ، وإن نَكَلْتُ قلّ إفصاحى عما أطالَب به وخِفْتُ الكَساد ، وقد طَمِعْتُ بالنَّفاق[٤] وانقلبتُ بالخيبة ، وقد عقدتُ خِنْصَرِى على المسألة . فقال — حرَس الله رُوحَه — : قل — عافاك الله — ما بدا لك ، فأنت مجاب إليه ما دمتَ ضامنا لبلوغ إرادتِنا منك ، وإصابةِ غرضنا بك .

قلت : يُؤذَن لى فى كاف المخاطَبة ، وتاءِ المواجَهة ، حتّى أتخلّص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ، وأركبَ جَدَد[٥] القول مِن غير تَقيّة[٦] ولا تَحاش

(١) التهادى : المشى الرفيق فى تمايل .
(٢) فى الأصل « ارتئب » ؛ وهو تحريف .
(٣) قرافه ، أى ارتكابه . يقال : قارف الذنب واقترفه ، إذا خالطه .
(٤) النفاق ضد الكساد .
(٥) الجدد بالتحريك : ما استوى من الأرض لا وعث فيه ولا جبل ولا أكمة ، شبه به القول الذى لا عوج فيه ولا التواء .
(٦) « بقية » .

ولا مُحاوَبة(١) ولا انحياش(٢) .

(٣) قال : لك ذلك ، وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرُك ، وما فى كاف المخاطَبة وتاءِ المواجَهة ؟ إن الله تعالى — على علوّ شأنه ، وبَسْطةِ مُلْكه ، وقدرتِه على جميع خلقه — يواجَه بالتاء والكاف ، ولو كان فى الكناية بالهاء رِفعةٌ وجَلالةٌ وقَدْر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقّ بذلك ومقدَّما فيه ، وكذلك رسولُه صلّى الله عليه وسلّم والأنبياء قبله — عليهم السلام — وأصحابُه — رضى الله عنهم — والتابعون لهم بإحسان — رحمة الله عليهم — وهكذا الخلفاء ، فقد كان يقال للخليفة : يا أمير المؤمنين أعزّك الله ، ويا عُمرُ أصلحك الله ؛ وما عاب هذا أحد ، وما أنِف منه حسيب ولا نسيب ، ولا أباه كبيرٌ(٣) ولا شريف ؛ وإنّى لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه ، ويحسَبون(٤) أن فى ذلك ضَعةً أو نقيصةً أو حطًّا أو زِراية ، وأظن أنّ ذلك لعجزهم وفُسُولتِهم(٥) ، وانخزالهم(٦) وقلّتهم وضُؤولتهم ، وما يجدونه من الفضاضة فى أنفسهم ، وأن هذا التكلُّف والتجبُّرَ يمحوان عنهم ذلك النقص ، وذلك النقص يَنتفِى بهذا الصَّلَف ؛ هيهات ، لا تكون الرياسة حتّى تصفو من شوائب الخُيَلاء ، ومن مَقابح الزَّهْو والكبرياء .

(٤) فقلتُ : أيّها الوزير ، قد خالطتُ العلماء ، وخدمت الكبراء وتصفّحتُ أحوال الناس فى أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم ، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على

(١) لعله : موارَبة .
(٢) الانحياش : الانقباض .
(٣) « كثير » .
(٤) « يخشون » .
(٥) الفسولة : الخسة والضعف .
(٦) انخزالهم ، أى انقطاعهم وتخلفهم عن طلب المعالى .

هذه السّياقة الحسنة والحجّةِ الشافية والبلاغِ المبين ؛ وقد قال بعض السلف الصالح : « ما تَعاظَمَ أحد على مَن دونَه إلاّ بقدر ما تَصاغَرَ لِمَنْ فوقَه » . والتصاغر دواء النفس ، وسجيّةُ أهل البصيرة فى الدنيا والدين ؛ ولذلك قال ابن السّماك[١] للرشيد — وقد عَجِب من رقّته وحُسنِ إصاخته لموعظته و بليغِ قبوله لقوله وسرعةِ دمعته على وجنته — : « يا أميرالمؤمنين ، لَتواضُعُك فى شرفك أشرَفُ من شرفك ، و إنى أظنّ أنّ دمعتَك هذه قد أطفأتْ أوديةً من النار وجعلتْها بردا وسلاما » .

قال[٢] : هذا باب مُفترَقٌ فيه ، وَرَجَعْنا إلى الحديث [فإنه شهىّ ، سيّما إذا كان من خطرات[٣] العقل] قد خُدِم بالصواب فى نَغْمةٍ ناغِمة ، وحروف متقاومة ؛ ولفظٍ عَذْب ، ومَأْخَذٍ سهل ؛ ومعرفة بالوصل والقطع ، ووفاء بالنثر والسّجْع ؛ وتباعُدٍ من التكلّف الجافى ، وتقارُبٍ فى التلطّف الخافى ، قاتل ألله ذا الرُّمّة[٤] حيث يقول :

لها بَشَرٌ مِثلُ الحرير ومَنْطِقٌ رَخِيمُ الحواشى لا هُراء[٥] ولا نَزْرُ

وكنتُ أُنشِد أيّام الصِّبا هذا[٦] بالذال ، وكان ذلك من سوء تلقين المعلّم ؛ وبالعراق رُدَّ علىّ وقيل : هو بالزاى ؛ وقد أجاد القَطامىّ[٧] أيضا وتغزّل فى قوله :

---

(١) انظر التعريف بابن السماك رقم ٤ صفحة ١٤ .

(٢) قال ، أى الوزير .

(٣) عبارة الأصل « خاصة سيما إذا كان من طيران العقل » .

(٤) ذو الرمة ، هو غيلان بن عقبة بن نهيس أحد فحول الشعراء الأمويين ، توفى سنة سبع عشرة ومائة عن أربعين سنة .

(٥) رخيم الحواشى : ناعمها . والهراء : المنطق الكثير ، والنزر : القليل .

(٦) هذا ، أى قوله فى البيت السابق : « نزر » .

(٧) القطامى لقب غلب على عمير بن شييم التغلبى من بنى جشم بن بكر ، وهو شاعر إسلامى مقل ، وكان نصرانيا .

فهنّ(١) ينبذن من قول يُصِبْن به   مواقعَ الماء من ذى الغلّةِ الصادى

قلتُ : ولهذا قال خالد بن صفْوان حين قيل له : أتَمَلّ الحديث ؟ قال : إنما يُمَلّ العَتيق(٢) ، والحديث معشوق الحِسّ بمعونة العقل ، ولهذا يُولَع به الصبيان والنساء ، فقال : وأيّ معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم ؟ قلتُ : ههنا عقلٌ بالقوّة وعقلٌ بالفعل ، ولهم أحدهما وهو العقل بالقوّة ، وههنا عقلٌ متوسّط بين القوّة والفعل مُزْمِع(٣) ، فإذا برز فهو بالفعل ، ثم إذا أُستمرّ(٤) العقل بلغ الأُفُق ؛ ولفرط الحاجة إلى الحديث ما وضع(٥) فيه الباطل ، وخُلِط بالمُحال ووُصِل بما يُعجب ويُضحِك ولا يَؤول إلى تحصيل وتحقيق ، مثل (هزار أفسَان(٦)) وكلّ ما دخل فى جنسه من ضروب الخُرافات ؛ والحِسُّ شديدُ اللَّهَج(٧) بالحادث والمُحْدَث والحديث ، لأنّه قريب العهد بالكون ، وله نصيب من الطّرافة . ولهذا قال بعض السَّلَف(٨) : « حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدُّثُور » ، كأنّه أراد أصْقُلوها وأجلُوا الصّدأ عنها ، وأعيدوها قابلةً لودائع الخير ، فإنها إذا دَثَرتْ — أى صَدِئت ، أى تغطّت ؛ ومنه الدِّثار الّذى فوق الشِّعار — لم يُنتفَع بها ؛

(١) « فهل » .
(٢) العتيق : القديم .
(٣) استعار الإزماع هنا لمعنى التهيؤ والاستعداد للظهور .
(٤) استمر ، أى قوى واستحكم ، من المرة بكسر الميم وتشديد الراء ، وهى القوة .
(٥) ما وضع ، أى وضع ، فـ«ما» هنا زائدة ، وهو تعبير شائع الاستعمال فى كلام المؤلف .
(٦) فى الأصل « حسبان » ؛ وهو تحريف . وهزار أفسان كتاب فى الخرافات نقل ابن النديم معنى هذا الاسم ألف خرافة . ويستفاد مما ذكره من السبب فى تأليفه أنه أصل (لكتاب ألف ليلة وليلة) المعروف ، فقد ذكر أن بعض الملوك كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها « شهرزاد » فلما حصلت معه ابتدأت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة الخ .
(٧) « الكهج » .
(٨) يروى هذا الحديث عن الحسن .

والتعجُّب كلُّه مَنوطٌ بالحادث ؛ وأما التعظيم والإجلال فهما لكلٍّ ما قَدُم : إمّا بالزمان ، وإمّا بالدهر ؛ ومثال ما يقدُم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر الّتى بَعُد العهدُ بمبادئها ، وسيمتدّ العهد جدا إلى نهاياتها ؛ وأمّا ما قَدُم بالدهر ، فكالعقل والنفسِ والطبيعة ؛ فأمّا الفَلَكُ وأجرامُه المزدهِرةُ فى المعانقة العجيبة ، ومَنَاطِقِه الخفيّة ، فقد أخذتْ من الدهر صورةً إلهيّــة ، وأحدثتْ فيما سلف منها صورةً زمانيّة .

(٦) فقال : بقِىَ أن يتّصل به[1] نعتُ العتيق والخَلَق ، فكان من الجواب أنّ العتيق يقال على وجهين : فأحدُهما يشار به إلى الكرم والحُسْن والعظمة ، وهذا موجودٌ فى قول العرب : « البيت العتيق » ؛ والآخَرُ يشار به إلى قِدَم من الزمان مجهول . فأمّا قولهم : « عبد عتيق » ، فهو داخل فى المعنى الأوّل ، لأنّهُ أُكرِمَ بالعتق ، وأُرتفعَ عن العبوديّة ، فهو كريم . وكذلك « وجه عتيق » لأنّه أعتقتْه الطبيعةُ من الدّمامة والقبح . وكذلك « فرس عتيق » .

وأمّا قولُهم : « هذا شىء خَلَق » ، فهو مضمَّن معنيين : أحدُهما يشار به إلى أنّ مادّته بالية[2] ؛ والآخر أنّ نهايةَ زمانه قريبــة . وكان ابنُ عبّاد قال لكاتبه مرّة — أعنى ابن حسولة[3] — فى شىء جرى ... : « نَعَم ، العالَمُ عتيق ولكن ليس بقديم » أى لو كان قديما لكان لا أوّل له ، ولمّا كان عتيقا كان له أوّل ، ومن أجل هذا الأعتقاد وصفوا الله تعالى بأنّه قديم ، وأُستحسَنوا هذا الإطلاق . وقد سألتُ العلماء البُصَراء عن هــذا الإطلاق ، فقالوا : ما وجدنا

(١) به ، أى بالحديث الذى سبق الكلام فيه .
(٢) « سايلة » ؛ وفيه تحريف وقلب .
(٣) فى الأصل « ابن حسول » ، وقد جاء اسمه فى معجم الأدباء : أبا القاسم بن حسولة ، ومرة يسميه : أبا القاسم الحسولى ، وذكر فى بعض المواضع أنه كان يعرض الأوراق على الصاحب ابن عباد ، فالظاهر أنه هو المراد .

هذا فى كتاب الله — عزّ وجلّ — ولا كلامِ نبيّه — صلّى الله عليه وسلّم — ولا فى حديث الصحابة والتابعين . وسألت أبا[١] سعيد السِّيرافىَّ الإمامَ : هل تعرف العرب أنّ معنى القديم ما لا أوّل له ؟ فقال : هذا ما صح عندنا عنهم ولا سبق إلىَ وهمِنا هذا منهم ، إلاّ أنهم يقولون : « هذا شىء قديم » « و بنيان قديم » و يسرّحون[٢] وهْمَهم فى زمانٍ مجهولِ المبدأ .

فقال : قد مرّ فى كلامك شىء يجب البحث عنه ، ما الفرق بين الحادث والمُحْدَث والحديث ؛ فكان من الجواب أنّ الحادث ما يُلحَظ نفسُه [والمُحْدَث ما يلحظ[٣]] مع تعلُّقٍ بالذى كان عنه محدَثا . والحديث كالمتوسّط بينهما مع تعلّقٍ بالزمان ومن كان منه . (٧)

وههنا شىء آخَر ، وهو الحَدَثان والحِدْثان ؛ فأما الأول فكأنه لما هو[٤] مضارِعٌ للحادث ، وأما الحِدْثان فكأنه اسم للزمان فقط ، لأنه يقال : « كان كذا وكذا فى حِدْثان ما وَلِى الأمير » ، أى فى أوّل زمانه ، وعلى هـذا يدور أمْرُ[٥] الحدث والأحداث والحادثات والحوادث . « وفلان حِدْثُ مُلُوكٍ » كله من ديوان واحد وواد[٦] واحد وسَبْك واحد . قال : « ما الفرق بين حَدُث وحَدث » ؟ قلتُ : لا فرق بينهما إلا من جهة أنّ حَدُث تابع لقَدُم ، لأنه يقال : أخَذَه ما قدُم[٧] وما حَدُث ؛ فإذا قيل لإنسان : حَدِّث يا هذا . فكأنه قيل له :

(١) فى الأصل « أنا » ؛ وهو تحريف . وأبو سعيد السيرافى هو الحسن بن عبد الله ابن المرزبان السيرافى النحوى المعروف ؛ سكن بغداد وتولى القضاء بها ، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين ، وتوفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

(٢) « ويشرحون » ؛ بالشين .

(٣) هذه العبارة ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

(٤) لما هو ، أى موضوع لما هو .

(٥) وردت هذه الكلمة فى الأصل بعد قوله : « الحدث » ؛ كما أن راءها كتبت فى الأصل «نوناً» . واستقامة الكلام تقتضى ما أثبتنا .

(٦) فى الأصل « وهو » ولا معنى له .

(٧) « أخذه ما قدم وما حدث » ، أى أخذته الهموم والأفكار القديمة والحديثة .

صِلْ شيئا بالزمان يكون به فى الحال ، لا تقدَّمَ له من قبل .

ثم رجعتُ فقلت . ولفوائد الحديث ماصنّف (أبو زيد)(١) رسالة لطيفةَ الحجمِ فى المَنظَرِ ، شريفةَ الفوائد فى المَخبَرِ ، تَجمع أصنافَ ما يُقتبَس من العلم والحكمة والتجربه فى الأخبار والأحاديث ، وقد أحصاها وأستقصاها وأفاد بها ، وهى حاضرة . فقال احمِلْها وأُكتبها ، ولا تَمِلْ إلى البخل بها على عادة أصحابنا الغِثاث . قلتُ : السمع والطاعة .

ثم رَويتُ أنّ عبد الملك بنَ مروانَ قال لبعض جلسائه : قد قضيتُ الوطر من كلّ شىء إلاّ من محادثة الإخوان فى الليالى الزُّهْر ، على التّلال(٢) العُفْر(٣) .

وأحسن من هذا ما قال عمر بن عبد العزيز قال : والله إنّى لأشترى [المحادثة](٤) من عُبيد الله(٥) بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين . فقيل : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا مع تحرّيك وشدّة تحفّظك وتنزّهك ؟ فقال : أين يُذهَب بكم ؟ والله إنى لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوفٍ وألوفِ دنانيرَ ، إنّ فى المحادَثة تلقيحا للعقول ، وترويحا للقلب ، وتسريحا للهمّ ، وتنقيحا للأدب .

---

(١) الراجح أنه يريد أبا زيد احمد بن سهل البلخى كان من المتكلمين الفلاسفة الأدباء وكان يقال له « جاحظ خراسان » ألف كتبا كثيرة منها كتاب فضيلة علم الأخبار وكتاب النوادر فى فنون شتى ولعل أحد هذين الكتابين هو الذى يشير إليه أبو حيان ، وكان أبو حيان يعجب به وقد قال فيه : « انه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر » ، مات سنة ٣٢٢ عن سبع أو ثمان وثمانين سنة .

(٢) فى الأصل « الكلال » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . وفى رواية « على الكثبان » ؛ وهو بضم الكاف بمعنى التلال كما أثبتنا .

(٣) فى الأصل « العقر » بالقاف ؛ وهو تصحيف .

(٤) هذه الكلمة أو مايفيد معناها ساقطة من الأصل .

(٥) هو أحد الفقهاء السبعة كان إماما عالما وكان أعمى قال البخارى إنه مات سنة ٩٤ وهذا لا يتفق وخلافة عمر بن عبد العزيز وقال ابن المدينى سنة ٩٩ وهذا متفق مع هذه القصة .

قال : صدق هذا الإمام فى هذا الوصف ، إن فيه (١) هذا كلَّه .

قلتُ : وسمعتُ أبا سعيد (٢) السيرافىّ يقول : سمعتُ أبن السّرّاج (٣) يقول : دخلنا على أبن الرومىّ (٤) فى مرضه الذى قضَى فيه ، فأنشَدَنا قوله (٥) :

ولقــد سئمتُ مآربى فكأنَّ أطيَبَها خبيثُ
إلاّ (٦) الحديثَ فإنّه مِثلُ أسمِه أبدا حديثُ

وقال سليمان بن عبد الملك : « قد ركبنا الفارهَ (٧) ، وتبطّنّا الحَسْناء ، ولبسنا اللّيّن ، وأكلنــا الطيّب حتى أجْمَنْاه (٨) ، وما أنا اليوم [إلى شىء] (٩) أحوجُ منّى إلى جليس يضع عنى مؤونة التحفّظ ويحدّثُنى بما لا يَمجّه السمع ، ويَطرَب إليه القلب » . وهذا أيضا حقٌّ وصواب ، لأنّ النفس تَمَلُّ ، كما أنّ البدن يَكِلُّ ؛ وكما أن البدن إذا كلّ طلب الراحة ، كذلك النفس إذا مَلّت طلبت الرَّوْح (١٠) وكما لا بد للبدن أن يستمدّ (١١) ويستفيد بالجَمام (١٢) الذاهب بالحركة الجالبة

(١) فيه ، أى فى الحديث .
(٢) انظر التعريف بأبى سعيد السيرافى فى الحاشية رقم ١ صفحة ٢٥ .
(٣) هو أبو بكر محمد بن السرى بن سهل النحوى المعروف بابن السراج، أخذ الأدب عن أبى العباس المبرد ، وأخذ عنه جماعة : منهم أبو سعيد السيرافى ؛ وله التصانيف المشهورة فى النحو وتوفى سنة ست عشرة وثلاثمائة .
(٤) هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومى الشاعر المعروف . ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد ، وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين . وقيل غير ذلك .
(٥) ورد من هذا اللفظ فى الأصل القاف والواو وحدهما .
(٦) « بلا » .
(٧) فى الأصل « القاره » بالقاف ؛ وهو تصحيف . والفاره من الدواب : النشيط الحاد القوى .
(٨) أجمناه ، أى كرهناه ومللناه من المداومة عليه .
(٩) لم ترد هذه التكملة التى بين مربعين فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن (عيون الأخبار) .
(١٠) الروح بفتح الراء : الراحة.
(١١) « يستند » .
(١٢) الجمام بفتح الجيم : الراحة .

للنَّصَب والضجر ، كذلك لابدّ للنفس من أن تطلب الرَّوْح عند تكاثُف المَلَل الداعى إلى الحرج[١] فإن البدن كثيفُ النفس ، ولهذا يُرَى بالعين ، كما أن النفس لطيفة البدن ، ولهذا لا توجد إلاّ بالعقل ؛ والنفس صفاء البدن ، والبدن كَدَرُ النفْس . فقال : أحسنتَ فى هذه الروايات على هذه التوشيحات وأعجبنى[٢] ترحُّمُك على شيخكَ أبى سعيد ، فما كلّ أحد يَسمح[٣] بهذا فى مثل هذا المقام ، وما كل أحد يأبه لهذا الفعل ؛ هات مُلحة الوَداع حتى نفترق عنها ، ثم نأخذ ليلة أخرى فى شجون الحديث .

(٨) قلت : حدَّثنا ابن سيف الكاتب الراوية ، قال : رأيت جَحْظة[٤] قد دعا بنّاء ليبنى له حائطا ، فحضر[٥] ، فلمّا أمسَى أُقتضى البنّاء الأجرة ، فتما كَسا[٦] وذلك أنّ الرجل طلب عشرين درهما ؛ فقال جحظة : إنما عملتَ يا هذا نصفَ يوم وتطلب عشرين درهما ؟ قال : أنت لا تدرى ، إنّى قد بنيت لك حائطا يَبقى مائة سنة ؛ فبينما هما كذلك وَجَب الحائطُ وسقط ؛ فقال جحظة : هذا عملك الحَسَن ؟ قال : فأردتَ أن يبقى ألف سنة ؟ قال : لا ، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفِىَ أجرتك . فضحك — أضحك الله سنّه —

(١) « الجرح » .

(٢) يلاحظ أنه لم يرد فى هذه النسخة عند ذكر أبى سعيد السيراف قوله — رحمه الله — فلعله قد سقط من الناسخ هناك .

(٣) « كسمح » .

(٤) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك الشاعر المعروف ، كان من ظرفاء عصره وكان صاحب فنون ونوادر ، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة ، وتوفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة . وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة بواسط ، ودفن ببغداد .

(٥) فى الأصل « وحضر بنا » وبنا لا معنى لها .

(٦) تماكسا ، أى تشاحا فى الأجرة ؛ يقال : ماكسه فى البيع ونحوه : إذا شاحه فيه واستحطه الثمن واستنقصه إياه .

الليلة الثانية

ثم حضرتُ ليلةً أخرى ، فقال : أوّل ما أسألك عنه حديثُ أبي سليمان[(١)] (١)
المنطقيّ كيف كان كلامُه فينا ، وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه[(٢)] بنا ، فقد بلغني أنك جارُه ومعاشره ، ولصيقه وملازمه وقافي خطوِه وأثرِه ، وحافظُ غاية خبرِه .

فقلتُ : والله أيّها الوزير ، ما أعرِف اليوم ببغداد — وهي الرّقعة الفسيحة الجامعة ، والعَرْصة[(٣)] العريضة الغاصّة — إنسانا أشكَرَ لك ، وأحسَنَ ثناء عليك ، وأذهَبَ في طريق العبوديّة معك ، منه ؛ ولقد سَكَرَ[(٤)] الآذان وملأ البقاع بالدعاء الصالح ، رَفَعه الله إليه ، والثناء الطيّب أشاعه الله ؛ وقد عمل رسالةً في وصفك ذكر فيها ما آتاك الله وفضّلك به من شرفِ أعراقِك ، وكرمِ أخلاقِك وعلوّ همّتك ، وصدقِ حَدْسك وصوابِ رأيك ، وبَرَكة نظرك ، وظهورِ غَنائك ، وخِصب فِنائك ، ومحبّة أوليائك ، وكَمَد أعدائك ، وصَباحة وجهك ، وفصاحة لسانك[(٥)] ، ونُبْلِ حَسَبِك[(٦)] ، وطهارةِ غَيبِك[(٧)] ، ويُمن نقيبتك ، ومحمود

(١) أبو سليمان هو محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيان في المنطق والحكمة والفلسفة كان مجلسه حافلا بالعلماء والحكماء واسع الاطلاع في الفلسفة اليونانية وكان به عور وبرص يمنعانه من غشيان مجالس الأمراء والوزراء وهو أكبر شيوخ أبي حيان في الفلسفة مات على أغلب الظن في السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع الهجري .

(٢) ورجاؤه بنا ، أي رجاؤه المعقود بنا . وفي الأصل : « وأرجاؤه » والألف زيادة من الناسخ .

(٣) العرصة : الساحة الواسعة .

(٤) سكر الآذان : ملأها . وفي الأصل : « شكر » بالشين ؛ وهو تحريف .

(٥) في الأصل : « رخم لسانك » وقوله : « رخم » من زيادات النساخ إذ لا معنى لها ولا تستقيم مع السياق .

(٦) « وتقلحسك » .

(٧) « عيبك » .

شيمتك ، ودقيقِ ما أودَع الله فيك ، وجليلِ ما نشر الله عنك ، وغريبِ ما يُرَى منك ، وبديع ما يُنتَظر لك من المراتب العليّة ، والخيرات الواسعة والدولة الوادعة ، وهى تصل إلى مجلسكم فى غد أو بعده — إن شاء الله — وكان هذا منه [قياما] [١] بالواجب ، فإنك نَعَشْتَ روحه وكان خَفَت ، وبصّرته وكان عَشِى ؛ وأنبتّ جناحه وكان قد حُصّ [٢] ، بالرسم الذى وصل إليه لأنه كان قَنِط منه وهو قَنوطٌ ، وسمعتُه يقول مرارا : من يذكرنى وقد مضى المَلِك [٣] — رضوان الله عليه — ومن يَخلُفه فى مصلحتى ، ويجرى على عادته معى ؟ ومن يَسأل عنّى ، ويهتمّ بحالى ؟ هيهات ، فُقِد والله بالأمس من [٤] يطول تلفّتُنا إليه ويدوم تلهُّفُنا عليه * إنّ الزمان بمِثلِهِ لَبخيل * كان والله شمسَ المعالى وغرة الزمن وحامل الأثقال ، وملتقَى [٥] القُفّال ، ومحقّقَ الأقوال والأفعال ، ومجرى لُجُمِ [٦] الأحوال على غاية الكمال ؛ كان والله فوق المتمنَّى ، وأعلى من أن يَلحق به نظير ، أو يوجدَ له مماثل ؛ لذّته لمْحٌ [٧] فى تهذيب الأمور ، وهواه وقفٌ على صلاح مَن فى إصلاحه صلاح ونفى من فى نفيه تطهير ؛ ولولا أن عمر الفتى الأَرْيَحِيِّ قصير ، لكنّا لا نُبْتَلى بفقدِه ، ولا نتحرّق على فَوْت ما كان لنا بحياته ؛ الدنيا ظَلوم ، والإنسان فيها مظلوم .

(١) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) يقال : « حص الريش والشعر » ، إذا انتتزا . وكنى بحص الجناح عن الفقر ، وبنباته عن الغنى .

(٣) الظاهر أنه يريد بالملك « عضد الدولة » البويهى .

(٤) عبارة الأصل « مر بطول تلقيننا » وهى محرفة فى جميع ألفاظها .

(٥) فى الأصل « ومكتنى الأقفال » ؛ وهو تحريف . والقفال : المسافرون ، سموا بذلك تفاؤلا بقفولهم إلى أوطانهم ، أى رجوعهم إليها .

(٦) استعمل اللجم فى معنى الخيل مجازا . وفى الأصل : « لحاء » ؛ وهو تحريف .

(٧) اللمح ، النظر الخفيف . والمراد بهذا اللفظ وصفه بالفطنة والألمعية حتى إنه لينظر إلى الأمور نظرا خفيفا فيكفيه ذلك عن التأمل والإمعان .

فلمّا وصل إليه ذلك الرّسم — وهو مائة دينار — وحاجتُه ماسّة إلى رغيف ، وحَوْلُه وقوّتُه قد عجزا [١] عن أجرة مسكنه ، وعن وجه غَدائه وعَشائه عاش .

وممّا زاد فى حديث الرسم أنّه وصل إليه مع العذر الجميل ، وَالوعدِ العريض الطويل ؛ وَلو رأيته وَهو يترفّل وَيتحنّك [٢] لعجبتَ . فقال : سررتَنى لسروره بما كان منّى ، وَإن عشتُ كففتُ الزمان عن ضيمه ، وَفَلَلتُ [٣] عنه حدَّ نابه ، ولولا الضَّمانة [٤] مانعةٌ [٥] عن نفسه ، وَمُتَمنّع معها بنفسه ؛ لغَشِىَ هذا المجلس فيكم [٦] فاستأنَس وَآنَس ، وَلكنّه على حال لا يحتمَل له عليها ، ولا صبر عليه معها ؛ أتحفظ ما قال البديهىّ فيه ؟ قلت : نم ، قال : أنشِدنيه ، فرويتُ :

أبو سليمانَ عالِمٌ فَطِن ... ما هو فى عِلمِه بمنتقَصِ
لكن تطيّرتُ عند رؤيتِه ... من عَوَرٍ مُوحِش ومن بَرَصِ
وبأُبنِه مِثلُ ما بوالده ... وَهذه قِصّة من القصصِ

فقال : قاتله الله ، فلقد أوجَع وبالَغ ، وَلم يحفَظ ذمام العِلم ، وَلم يقض حق (٢)
الفتوّة . حدّثنى عن درجته فى العلم والحكمة ، وَعرّفنى محلّه فيهما من محلّ أصحابنا

---

(١) ورد فى الأصل بعد قوله « عجزا » تاء وكاف وميم ؛ ولم نتبين الصواب فى هذه الحروف الثلاثة ؛ ولعلها زيادة من الناسخ .

(٢) يترفل ، أى يجر ذيله ويتبختر . ويتحنك ، أى يدير العمامة من تحت حنكه . كنى بالترفل والتحنك عن السرور والابتهاج بما وصل إليه من صلة الوزير .

(٣) « قلت » .

(٤) الضمانة : العاهة فى الجسد . وفى الأصل : « الجمانة » ؛ وهو تحريف .

(٥) مانعة عن نفسه ، أى أن هذه العاهة مانعة لنا عن مجالسته . ومتمنع معها بنفسه أى أنه هو ممتنع بنفسه مع هذه العاهة عن مجالستنا .

(٦) « بكم » .

أبْن زرعة [١] وَابن الخَمار [٢] وَابن السمح [٣] وَالقومسى [٤] وَمسكويه [٥] ونظيف [٦] ويحيى بن عدى [٧] وعيسى بن علىّ [٨]. فقلتُ: وصف هؤلاء أمر متعذِّر، وباب من الكُلْفة شاقّ؛ وليس مثلى من جَسَر عليه، و بلغ الصواب منه؛ و إنما يصفهم من نال درجةَ كلّ واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم؛ فعرف حاصلَهم وغائبَهم، وموجودَهم ومفقودَهم. فقال: هذا تحايُلٌ لا أرضاه لك، وَلا أُسْلِمه فى يدك، وَلا أحتمله منك؛ ولم أطلب إليك أن تعرّفهم [٩] بما هو معلوم الله منهم، وَمُوهَبُه [١٠] لهم، وَمَسُوقُهُ إليهم، وَمخلوعُه عليهم، على الحدّ الذى لا مزيد فيه وَلا نقص؛ إنما أردتُ أن تذكر من كلّ

(١) ابن زرعة، هو أبو على عيسى بن إسحق بن زرعة عالم نصرانى من علماء بغداد برز فى المنطق والفلسفة، ونقل عدة مصنفات إلى العربية، وتوفى كما روى القفطى سنة ٣٩٨.

(٢) ابن الخمار، هو أبو الخير الحسن بن سوار، كان كذلك نصرانيا طبيبا فيلسوفا نقل كتبا كثيرة من السريانية إلى العربية.

(٣) ابن السمح، هو أبو على بن السمح من مناطقة بغداد؛ مات سنة ٤١٨.

(٤) القومسى، هو أبو بكر القومسى المتفلسف. قال أبو حيان: إنه كتب لنصر الدولة عامين.

(٥) مسكويه، هو أبو على أحمد بن محمد مسكويه الخازن، كان عارفا بالفلسفة، ألف كتاب تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم، وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد ثم قيما على خزانة كتب عضد الدولة ثم اختص ببهاء الدولة البويهى وعظم عنده شأنه ومات سنة ٤٢١.

(٦) نظيف، هو القس نظيف النفس الرومى، كان عالما جيد النقل من اليونانى إلى العربى وكان من أفاضل الأطباء، وعينه عضد الدولة فى البيمارستان الذى أنشأه ببغداد.

(٧) يحيى بن عدى أبو زكريا، كان نصرانيا منطقيا، أخذ الفلسفة عن أبى نصر الفارابى وبشر بن متى؛ وله مؤلفات كثيرة، مات سنة ٣٦٤.

(٨) عيسى بن على، هو أبو القاسم عيسى بن الوزير الكبير على بن عيسى الجراح، كان عيسى عالما فاضلا، قرأ المنطق على يحيى بن عدى، كما درس الفقه والأدب على علماء عصره، وعمل فى ديوان الرسائل؛ ومات ببغداد سنة ٣٩١. وقد نقل عنه أبو حيان كثيرا من أقواله فى الحكمة فى المقابسات.

(٩) « نعنفهم ».

(١٠) موهبه لهم؛ أى ما أعده الله لهم؛ يقال: أوهبت له الشىء، إذا أعددته له.

وَاجد ما لاح منه لعينيك ، وَتجلّى لبصيرتك ، وَصار له به صورةٌ فى نفسك ؛ فأكثر وَصف الواصفين للأشياء على هذا يجرى ، وَإلى هذا القدر ينتهى .

فقلتُ : إذا قنع منى بهذا ، فإنى أخدُم بما[١] عندى ، وَأبلغ فيه أقصى جهدى . أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقّهم نَظرا ، وَأقعَرُهم غوْصا ، وأصفاهم فِكرا ، وأظفرهم بالدّرر ، وأوقفُهم على الغُرر ؛ مع تقطع فى العبارة ، ولكنةٍ ناشئة من[٢] العُجْمة وقلّة نظرٍ فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحُسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخلٍ بما عنده من هذا الكنز .

وأما ابن زرعة فهو حَسَن الترجمة ، صحيحُ النقل ، كثيرُ الرجوع إلى الكتب ، محمودُ النقل إلى العربيّة ، جيّد الوفاء بكلّ ما جلّ من الفلسفة ؛ ليس له فى دقيقها منفذ[٣] ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزّع[٤] فكره فى التجارة ، ومحبّتُه[٥] فى الربح ، وحرصُه على الجَمع ؛ وشدّتُه على المنع ؛ لكانت قريحته تستجيب له ، وغائمته[٦] تَدُرُّ عليه ؛ ولكنّه مبدّد منذّد ، وحبُّ الدنيا يُعمِى ويُصِمّ .

وأمّا ابن الخمار ففصيح ، سَبْط الكلام ، مديدُ النَّفَس ، طويلُ العِنان مَرْضىُّ النقل ، كثير التدقيق ، لكنه يخلط الدُّرّة بالبعْرة[٧] ويُفسد السمين بالغَثّ ، ويَرقَع الجديد بالرّثّ ؛ ويشين[٨] جميع ذلك بالزّهْو والصَّلَف ، ويزيد

(١) فى الأصل « جما » ؛ وهو تحريف .
(٢) « مع » .
(٣) « منبذا » .
(٤) « تورع » .
(٥) « ونخبته » .
(٦) فى الأصل « وغايته تندو » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين . والغائمة السحابة .
(٧) « البقرة » .
(٨) « ويشن » .

فى الرقم(١) والسّوم ، فما يجديه(٢) من الفضل يرتجعه بالنقص ؛ وما يعطيه باللطف يستردّه بالعنف ؛ وما يصفيه بالصواب ، يكدّره بالإعجاب . ومع هذا يُصرَع(٣) فى كل شهر مرّة أو مرّتين .

وأمّا ابن السمح ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يستقى من إنائهم ؛ لأنه دونهم فى الحفظ والنقل والنظر والجدَل ، وهو بالمتبِّع(٤) أشبه ، وإلى طريقة الدعىّ أقرب ، والذى يحطّه عن مراتبهم شيئان : أحدهما بلادةُ فهمه ، والآخر حرصُه على كسبه ؛ فهو مستفرَغ مُخّ(٥) البال مأسور العقل ، يأخذ الدانق(٦) والقيراط والحبّة والطَّسُّوج والفَلْس بالصرف والوزن والتطفيف ؛ والقلبُ متى لم يُنَقّ من دنس الدنيا لم يَعبَق بفوائح الحكمة ، ولم يتفوّحْ(٧) بردْع الفلسفة ، ولم يَقبل شعاعَ الأخلاق الطاهرة المُفضية إلى سعادة الآخرة .

وأما القُومَسىّ أبو بكر ، فهو رجل حسنُ البلاغة ، حلوُ الكناية ، كثيرُ الفِقَر العجيبة ، جمّاعةٌ للكتب الغريبة ؛ محمود العناية فى التصحيح والإصلاح والقراءة ، كثير التردّد(٨) فى الدراسة ؛ إلاّ أنّه غيرُ نصيح فى الحكمة ؛ لأنّ

---

(١) يزيد فى الرقم ، أى يزيد فى حديثه ويكذب . ويريد بالزيادة فى السوم : المغالاة ، وأصل السوم فى المبايعة عرض السلعة للبيع .

(٢) فى الأصل « يبديه » وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا بدليل مقابلته بقوله بعد « يرتجعه » الخ .

(٣) « يصرح » بالحاء .

(٤) « بالمسبع » .

(٥) مخ البال ، أى خالصه .

(٦) الدانق : سدس الدرهم . والقيراط : نصف دانق . والحبة : وزن شعيرتين . والطسوج : ربع الدانق .

(٧) فى الأصل « ولم يتفرخ بربع » ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يرجحه قوله قبل : « لم يعبق بفوائح » . وردع الطيب : أثره فى الثوب والبدن .

(٨) « التبرد » .

قريحته ترابيّة ، وفكرته سحابيّة ؛ فهو كالمقلّد بين المحققين ، والتابعِ للمتقدّمين ؛ مع حبّ للدنيا شديد ، وحسد لأهل الفضل عتيد .

وأمّا مِسْكَوَيه ، ففقير بين أغنياء ، وعَيِيّ[1] بين أبيناء[2] ، لأنّه شاذّ ، وأنا أعطيتُه فى هذه الأيّام (صفوَ الشرح لإيساغوجى) وقاطيغورياس ، من تصنيف صديقِنا بالرّىّ . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلامُ أبى الحسن العامرىّ ، وصحّحه معى ؛ وهو[3] الآن لائذ بابن الخمّار ، وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ ، ولكنه محسّ[4] فى هذا الوقت للحَسْرة التى لحقتْه فيما فاته من قبل .

فقال : يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ورأى من كان عنده وهذا حظّه ! قلتُ : قد كان هذا ، ولكنّه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيّب الكيميائىّ الرازىّ ، مملوكَ[5] الهمّة فى طلبه والحرصِ على إصابته مفتونا[6] بكُتُب أبى زكرياء ، وجابر بن حيّان ؛ ومع هذا كان إليه خدمةُ صاحبه فى خِزانة كُتُبه ؛ هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاتِه[7] الضروريّة والشهوية ؛ والعمر قصير ، والساعاتُ طائرة ، والحركات دائمة[8] والفُرص بُروق تأتلق[9] ، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوسُ على فواتها تذوب

---

(١) وردت هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحرفين الأخيرين من النقط .

(٢) « أنبياء » .

(٣) فى الأصل « وهو الآن لا يكيلين الخار » . وما أثبتناه عن معجم الأدباء فى ترجمة ابن مسكويه .

(٤) « محب فى هذا الوقت للحيرة » وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

(٥) « المملوك » .

(٦) « مقترنا » .

(٧) « فى الحاجات به » . وفى هذه الكلمة حروف زائدة من الناسخ ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٨) « قائمة » .

(٩) « تكثلق » .

وتحترق ؛ ولقد قَطَن العامريُّ [١] الرَّىَّ خمس سنين جُمْعَة [٢] ودرس وأملى وصنّف وروَى فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنَّه بينه و بينه سَدّ ؛ ولقد تجرّع على هذا التوانى الصابَ والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارعَ الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كلُّه . و بعدُ فهو ذكىّ حَسَن الشِّعر نقىُّ اللفظ ، وإن بقى فساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء ، و إنفاق زمانه وكدّ بدنه [٣] وقلبِه فى خدمة السلطان ، واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقة ؛ نعوذ بالله مِن مدحِ الجود باللسان ، و إيثارِ الشّحّ بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارَقته بالعمل ؛ وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بُلِىَ به ، والبلاء المعصوبُ [٤] بناصية من غلب عليه .

وأما عيسى بن علىّ ، فله الذَّرْع الواسع والصَّدْر الرحيب فى العبارة ، حجّة فى النقل والترجمة ، والتصرّفِ فى فنون اللغات ، وضُروبِ المعانى والعبارات ؛ وَقد تصفّح مالم يتصفّح كثير من هذه الجماعة ، وقلّب بخزائن الكبراء وَالسادات ، وَأُعين [٥] بالعمر الطويل وَالفَراغ المديد ؛ ولكنّه مع هذا الفضل الكثير بخيل

---

(١) العامرى ، هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى ، فيلسوف معاصر لابن سينا وكانت بينهما مباحثات فى الفلسفة ، ومن جملة كتب ابن سينا كتاب الأجوبة لسؤالات سأله عنها أبو الحسن العامرى ، ويقول أبو حيان فى المقابسات إنه كان من أعلام عصره وكان متبحرا فى الفلسفة اليونانية منكبا على كتب أرسطو وله على بعضها شروح ؛ وقد اتصل بابن العميد وقرآ معاً عدة كتب ، وتوفى نحو سنة ٣٨٠ .

(٢) جمعة ، أى مجموعة .

(٣) « وكذبكنه » .

(٤) « المنصوب » بالنون .

(٥) « وأمين » .

بكلمة واحدة ، وَنصيح[١] على وَرقة فارغة ، لسودائه الغالبـةِ عليه ، ومزاجِه المتشيِّط[٢] بها .

وَأمّا نظيف ، فإنه متوسّط ، لا يسفل[٣] عن أقلّهم حظّا وَلا يعلو على أكثرِهم نصيبا ؛ ويدُه فى الطب أطوَل ، وَلسانُه فى المجالس أجوَل ؛ وَمعه رفق وَحذق فى الجدَل .

وَأمّا يحيى بن عدىّ ، فإنّه كان شيخا ليّن العريكة فروقة[٤] ، مشوّه[٥] الترجمة ، ردئ العبارة ، لكنه كان متأتّيا[٦] فى تخريج المختلفة[٧] وقد برع فى مجلسه أكثر هذه الجماعة ، ولم يكن يلوذ[٨] بالإلهيّات ، كان ينبهر[٩] فيها وَيَضِلّ فى بِساطها ، وَيَستعجم عليه ما جلّ ، فضلا عما دَقّ منها ؛ وَكان مبارك المجلس .

فقال : ما قصرتَ فى وَصف هذه الطائفة ، وَتقريب البغية التى كانت داخلة[١٠] فى نفسى منهم .

حدِّثنى عن مذاهبهم فى النفس وما يقولون فيها ؛ و إلى أين ينتهون مِن

---

(١) نصيح على ورقة فارغة ، أى أنه بلغ من شدة بخله بعلمه أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه حتى فى ورقة فارغة يأخذها منه . وهم يصفون البخيل بالنصح على ماله ، لأنه لا ينخدع عنه فيجود به . أو لعله شحيح .

(٢) المتشيط : الملتهب . وبها ، أى بسبب السوداء .

(٣) « لا يسلل » .

(٤) الفروقة : الشديد الفزع .

(٥) فى الأصل : « موشى » وفيه قلب وتحريف .

(٦) متأتيا ، أى مترفقا متلطفا .

(٧) فى تخريج المختلفة ، أى المسائل المختلفة .

(٨) « يكون » .

(٩) الانبهار : تتابع النفس واطراده من التعب والإعياء .

(١٠) وردت هذه الكلمة فى الأصل مؤخرة عن هذا الموضع ؛ والسياق يقتضى إثباتها هنا .

يقينهم بشأنها ، وكيف ثقتهم ببقائها بعد فَناء أبدانها ؟ فقلت : علمتَ أنّي لا أجد[(١)] ما أريد من حديث النفس عنــد أصحابنا الباقين ، أعنى أبا الوفاء عليّ بن يحيى السامريّ والمعرّيّ والقُومِسيّ والصوفيّ وغلامَ زحلَ[(٢)] والصاغانيّ ، وكذلك غيرهم أعنى ابن عبــدان وابن يعقوب وابن لالا وابن بُكُش[(٣)] وابن قوسين[(٤)] والحرّانيّ ، لأن هؤلاء ليسوا يحرثون هذه الأرض ، ولا يَرقُمون هــذا البَزّ ولا يجهّزون هذا المتاع ولا يتعاملون به ؛ هــذا ينظر فى المرض والصحة والداء والدواء ، وهــذا يعتبر الشمس والقمر ، وليس فيهم من يذكر كلمة فى النفس والعقل والإلٰه ، حتى كأنّه محظور عليهم ، أو قبيح عندهم .

وقلتُ : إنّ هؤلاء القوم — أعنى الطائفة الأولى — متفقون فى الاعتراف بأنها جوهر باقٍ خالد ؛ فأما اليقين فما الحكم به لهم ، لأنهم لو كانوا على ذلك — أعنى واجدين لليقين ذائقين لحلاوته — لما كدحوا للدنيــا التى تزول عنهم ويزولون عنها مضطرّين ؛ فلو أنهم كانوا على ثلج[(٥)] من النفس ، ويقظة من العقل ، واستبصارٍ من القلب ، وسكون من البرهان ، لما تعجّلوا هــذه اللّذّات المنقوصــة ، والأوطار الفاضحة ، والشهوات الخسيســة ، مع التَّبِعات الكثيرة والأوزار الثقيلة ؛ ولا عجب فإنه إذا كانت الرّكاكة[(٦)] العائقة تمنع الإنسان

(١) هنا فى الأصل راء وجيم بعد قوله « لا » ولعلهما زيادة من الناسخ .

(٢) غلام زحل : لقب لأبى القاسم عبيد الله بن الحسن كان منجما حاذقا ، توفى سنة ٣٧٦ .

(٣) فى الأصل « بكس » بالسين . وقد ورد اسمه فى أخبار الحكماء للقفطى بالشين .

(٤) ابن قوسين : طبيب مشهور فى زمانه ، كان يهوديا وأسلم ، وعمل مقالة فى الرد على اليهود .

(٥) ثلج النفس : راحتها واطمئنانها وسكونها إلى الشىء .

(٦) الركاكة : الضعف . أو لعل صوابه : « الزمانة » إذ الركاكة كثيرا ما تستعمل فى ضعف العقل والرأى . والمراد هنا ما يخص البدن ، كما يقتضيه سياق ما يأتى .

من العَدْو والسَّفر ، ومن سرعة الخَطْو ، لأن الحركة قد بطلت بالرّكاكة الداخلة عليه فى أعضائه وآلاته ، فأىُّ عجب من أن تكون النفس التى أستعبدتْها الشهوات الغالبة[١] ، والعقيدة الرديئة ، والأفعال القبيحة مَعُوقةً ممنوعةً من الصعود إلى مَعانق الفَلَك ومَخارق النجوم وعالَمِ الرُّوح ومَقصد الصدق ومقامِ الأمن ومحلِّ الكرامة ومَرادِ الخُلْد و بلد الأبد ومَعانِ[٢] السرمد .

قال : هذا كلام تامّ ؛ وسأسألك بعد هذا عن النفس وما تَحفظ عنهم فيها لكن تَمِّمْ لى ما كنّا فيه ، كيف عِلْمُ أبى سليمان بالنجوم وأحكامها ؟ قلتُ : (٤)
لا يتجاوز التقويم . ثم قال : فما تقول فى الأحكام ؟ قلت : أنشدت منذ أيّام :

علم النجوم على العقول وبال وطِلاب حقّ لا يُنال محالُ

وقلتُ أيضا : علم الأحكام لا يجوز فى الحكمة أن يكون مدركا مكشوفا مخاطَبا به معروفا ؛ ولا يجوز أن يكون مقنوطا منه مطّرَحا مجهولا ؛ بل الحكمة توجب أن يتوسّط هذا الفنُّ بين الإصابة والخطأ حتّى لا يُستغنَى عن اللِّياذ[٣] بالله أبدا ، ولا يقع اليأس من قِبَله أبدا ؛ وعلى هذا سخّر الله الإنسان وقَيّضه[٤] وخيّره بين الأمور وفوّضه ؛ ومَنَع[٥] من الثقة والطمأنينة إلا فى معرفته وتوحيده وتقديسه وتمجيده ، والرجوع إليه ؛ انظر إلى حديث الطب فإنّ عنده الصناعة توسّطت الصواب والخطأ ، لتكون الحكمة سارية فيها ، واللطف معهوداً بها ؛ لأن الطب كما يبرأ به العليل ، قد يَهلِك معه العليل ؛ فليس بسببٍ أن بعض

(١) « الغالية » .
(٢) المعان : المنزل .
(٣) « الكيام » .
(٤) فى الأصل : « وقيض له » ، واللام زيادة من الناسخ .
(٥) ورد فى الأصل قبل هذه الكلمة « حاء وياء » ولم نتبين الصواب فيهما ؛ ولعلهما من زيادات النساخ لاستقامة الكلام بدونهما .

المدبِّرين بالطب هلك لا ينبغى أن يُنظَر فى الطب ؛ وليس بسببِ أن بعض المرضى برأ بالطب وجب أن يعوَّل عليه ؛ انظر إلى هذا التوسط فى هذه الحال ليكون التدبير الإلٰهىّ والأمرُ الرُّبوبىُّ نافذَين فى هذه الخلائق بوساطة ما بينه و بينها ؛ ولتكون المصلحة بالغة غايتها ؛ وهذه سياسة دار الفَناء ، الجامعةِ لسكّانها على البأساء والنعماء ؛ وهكذا ، فانظر إلى حديث البحر وركوبِ البأس المتيقَّن فيه ، وجَوب الطول والعرض و إصابة الربح ، وطلب العلم ، كيف توَسَّطَ بين السلامة والعَطَب ، والنجاةِ والهَلَكة ، فلو أستمرّت السلامة حتى لا يوجد من يَغرَق ويَهلِك ، لكان فى ذلك مَفسَدة عامّة ؛ ولو أستمرّت الهلكة حتى لا يوجد من يَسلم وينجو ، لكان فى ذلك مفسدة عامّة ؛ فالحكمة إذاً ما توَسّط هذا الأمرُ حتى يشكر اللهَ من ينجو ، و يُسلمَ نفسه لله من يهلك . قلت : و بعد هذا فهذا العلم[1] عويص غامض عميق ، وقد فُقِد العلماء به ، الملهَمون فيه ؛ ومعوَّل أهلِه على الحَدْس والظّنّ ، وعلى بعض التجارب القديمة التى تَكذِب مرّة وتَصْدُق مرّة ؛ و بالصدق يعبِّر الإنسان ، وَبالكذب يعرى من فوائده ؛ فالنقص قد دخلَه ، والخلل قد شمِلَه ؛ وليس يجب أن يوهَب له زمانٌ عزيز ، فوراءه ما هو أهمُّ منه وأجدرُ ، وَأرشد وأهدَى .

(٥) قال : هــذا حسن ، حدِّثنى بالذى أفدتَ اليوم . قلت : قال أبو سليمان : العلم صورة المعلوم فى نفس العالِم ، وأنفُس العلماء عالمةٌ بالفعل ، وأنفُسُ المتعلّمين عالمة[2] بالقوة . والتعليم هو إبراز ما بالقوّة إلى الفعــل . والتعلّم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل . والنفس الفلكيّة عالمةٌ بالفعل ، وَالنفس الجزئيــة عالمة بالقوّة ؛ وكلّ

(١) يريد علم النجوم وأحكامها .
(٢) فى الأصل : « علامة » .

نفس جزئيّة تكون أكثرَ معلوما وأحكَمَ مصنوعا فهى أقرب إلى النفس الفلكيّة تشبّها بها، وتصبّرا لها[1] .

قال : هذا فى الحُسن نهاية، وقد أكتهل الليل، وهذا يحتاج إلى بدء زمان، وتفريغِ قلب، وإصغاء جديد. هات خاتمة المجلس. قلت له : قرأنا يوم الجمعة على أبى عبيد الله المرزبانىّ لعبد الله بن مُصْعَب :

إذا أستمتعتُ منك بلحظ طرفى حَيِى نصفى ومات عليك نصفى
تلذَّذُ مقلتى ويذوب جسمى وعيشى منك مقرون بحتفى
فلو أبصرتنى والليل داج وخدّى قد توسَّطَ بطن كفّى
ودمعى يستهلّ من المآقى إذاً لرأيتَ مابى فوق وصفى

وانصرفتُ .

الليلة الثالثة

قال لى ليلة أخرى : حدّثنى أبو الوفاء عنك حديثَ الخراسانىّ، فأريد أن أسمعه منك. قال : كنت قائما عشية على زَنْبرية[2] الجسر فى [الجانب] الشرقى والحاجّ يدخلون، وجمالُهم قد سدت عرض الجسر — أنتظر جوازَها وخفّةَ الطريق منها، فرأيت شيخا من أهل خُراسان ذكر لى أنّه من أهل سَنْجان[3] واقفا خلفَ الجمال يسوقها، ويحفظ الرحال الّتى عليها، حتى نظر إلى الجانب الغربى

(١) يقال : تصبر أباه : إذا نزع إليه فى شبهه به .
(٢) فى الأصل زبيرة والزنبريتان هما السفينتان اللتان فى الجسر فى الجانب الشرقى من بغداد يعبر عليهما السالكون كما فى عيون الأنبا ١/١٧٩ .
(٣) فى الأصل : « سحاب » ؛ ولم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى أسماء البلاد . وسنجان : قرية بمرو .

فرأى الجذع عليه ابنُ بقيّة — وكان وزيرا صلبه الملكُ لذنوب كانت له — فقال : لا إله إلا الله ، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلّ المفكّر فى عِبَرها وغِيَرِها ، عضد الدولة تحت الأرض وعدوّه فوق الأرض ! .

قال : هكذا حدّثنى أبو الوفاء ، ولذلك استأذنتُ فى دفنه ، وكان كلام الشيخ سببا فى ذلك .

(٢) قال : بلغنى أن أبا سليمان يزور فى أيام الجمعة رسلَ سجستان لَمًّا[١] ويظلّ عندهم طاعما ناعما ، ويأنس بأنك معه ، فمن يحضر[٢] ذلك المكان ؟ فقلت : جماعة ؛ وآخر من كان فى هذا الأسبوع الماضى ابن جَبَلة الكاتب ، وابن برمويه[٣] ، وابن الناظر[٤] أبو منصور وأخوه ، وأبو سليمان وبندار[٥] المغنّى[٦] وغزال الراقص ، وعَلَمٌ[٧] وراء الستارة . فقال : ما الذى حفظت من حديث[٨] عنهم ، وما يجوز أن يُلقَى إلينا منهم ؟ فقلت : سمعت أشياء ، ولست أحبّ أن أَسِمَ نفسى بنقل الحديث وإعادةِ الأحوال فأكون غامزا وساعيا ومفسدا . قال : معاذ الله من هذا ، إنّما تدلّ على رشد وخير ، وتُضِلّ[٩] عن غىّ وسُوء ، وهذا يلزم كلّ من آثر الصلاح الخاصّ والعامّ لنفسه وللناس ، واعتقد الشفقة ، وحثّ على قبول النصيحة ؛ والنبىّ

(١) اللم : الجمع ؛ يريد أنه يزورهم مجتمعين .
(٢) « يحظر » .
(٣) فى الأصل : « ابن زمويه » ، وقد ورد ذكر ابن برمويه فى كتاب ذيل تجارب الأمم ؛ وهو الحسن بن برمويه ، كان كاتبا لوالدة صمصام الدولة وكان ممن تآمروا على الإيقاع بابن سعدان وقتله ، ثم استوزر ابن برمويه لصمصام الدولة مشتركا فى الوزارة مع أبى القاسم عبد العزيز بن يوسف .
(٤) فى الأصل : « ابن المناظر » ، وهو من رجال صمصام الدولة .
(٥) فى الأصل : « يكدان » ؛ وهو تحريف .
(٦) « المفكى » .
(٧) علم : اسم جارية .
(٨) فى الأصل : « حديثنا » والنون والألف زيادة من الناسخ .
(٩) « تصل » .

صلّى الله عليه وسلّم قد سمع مثل هذا وسأل عنه ، وكذلك الخلفاء بعده ، وكلّ أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عالية أو محطوطة . فقلت : وجدتُ ابن برمويه[١] يذكر أشياء هي متعلّقة بجانبك ، ويرى أنّها لو لم تكن لكان مجلسُك أشرف ، ودولتك أعزّ ، وأيّامُك أدوَم ، ووليّك أحمد ، وعدوُّك أكمَد . قال[٢] : ماهذا الاسترسالُ كلّه [إلى] ابن شاهويه[٣] ؟ وما هذا الكَلَف ببهرام[٤] ؟ وما هذا التعصّب لابن مكيخا[٥] ؟ وماهذا السكون إلى ابن طاهر[٦] ؟ وما هذا التعويل على ابن عبدان[٧] ؟ وما من هؤلاء أحد إلّا يَريش[٨] عدوّه ويَبْريه ويُضلّ صاحبه ويغْويه[٩] . أما ابن شاهويه فشيخُ إزراء[١٠] وصاحب مَخرَقة[١١]

(١) « زمويه » .
(٢) قال ، أى ابن برمويه المحدث عنه .
(٣) ابن شاهويه هذا هو غير ابن شاهويه الفقيه الذى مر ذكره فى مقدمة الكتاب . أما هذا فكان عاملا كبيرا من عمال صمصام الدولة ، قام بالدعوة له بعمان حتى أذعنت له سنة ٣٧٤ ، ثم غضب عليه صمصام الدولة وحبسه مع ابن سعدان ، ثم نجا من القتل بأعجوبة ، ثم عفى عنه سنة ٣٧٥ .
(٤) هو أبو سعيد بهرام بن أردشير ، كان من رجالات صمصام الدولة ، وكان صديقاً لابن سعدان . يقول ابن سعدان فى وصفه : « إنى أرى حديثه آنق من المنى إذا أدركت والدنيا إذا ملكت ، وإن تمازجنا بالعقل والروح والرأى والتدبير ... ليزيد على حال توأمين تراكضا فى رحم وتراضعا من ثدى ونوغيا فى مهد » . وقد قبض عليه مع ابن سعدان وقتل معه سنة ٣٧٥ .
(٥) فى الأصل « ابن مكيخاج » والجيم زائدة ، وما أثبتناه عن ذيل تجارب الأمم وقد كان أبو على بن مكيخا صاحب ديوان الخزائن لعضد الدولة كما عمل من بعده لصمصام الدولة .
(٦) هو أبو عبد الله بن طاهر ، كان نائبا عن أبى نصر سابور كما كان من رجالات صمصام الدولة قتل سنة ٣٨٠ .
(٧) « ابن عمان » .
(٨) يريش عدوه الخ كناية عن تقويته للعدو وإعانته على النكاية ، وأصله من راش السهم يريشه إذا ألزق به الريش ليكون أسرع إلى الهدف .
(٩) فى الأصل : « يصل صاحبه ويقويه » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(١٠) الإزراء : الغش والتلبيس . يقال : أزرى به إذا أدخل عليه أمرا يريد أن يلبسه عليه .
(١١) المخرقة : الحمق والكذب .

بين اللذائذ » همُّه أن يتحسّى دَنّ الشراب فى نَفَس أو نَفَسين ، ثم يسقط كالجِذع اليابس لا لسان ولا إنسان .

وأما ابن طاهر فرجل يدّعى للناس أنّه لولا مكانته وكفايته وحَسَبه ورأيه ومشورته لكانت هذه الوزارة سرابا ، وهذه المملكة خرابا ؛ هذا مع الشر[١] الذى فى طبعه وعادته ؛ فإن جرى خيرٌ أنتحَله ، وزعم أنه من نتائج رأيه[٢] ؛ وإن وقع شرٌّ عصبه برأس صاحبه ، وادّعى أنه استبدّ[٣] به ؛ ومع هذا فهو يعيب[٤] هذه المُراءاة .

وما أدرى كيف أستكفَى[٥] هذه الجماعة حوله ؟ وكيف يُظاهَر[٦] هو بها ويسكن إليها ؟ وما فيهم إلّا من وَكْدُه الرجس والإفساد والأَخْذُ بالمصانعة وإغراء الأولياء بما يعود بالوبال على البرئ والسقيم وعلى الزكىّ والظّنين[٧] ؛ هؤلاء سباع ضارية ، وكلاب عاوية ؛ وعقاربُ لسّاعة ، وأفاعٍ نهّاشة ، وقى الله هذا الإنسان الحرَّ[٨] المباركَ الكريمَ الرحيم ، فإنه شريف النفس طاهر الطَّوِيّة[٩] ، ليِّنُ العريكة ، كثيرُ الديانة ، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس ، قال الشاعر[١٠] :

ومن لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه ... يهـدَّمْ ومن لا يظلم الناسَ يُظلمِ

وقال :

ومن لا يَذُدْ عن حوضه الناسَ أو يكن ... له جانب يشتدّ إنْ لان جانبُ

(١) « السر » .
(٢) « يتابع زلته » .
(٣) « أسيد » .
(٤) فى الأصل : « عيب لهذه » .
(٥) « استكفيت » والتاء زيادة من الناسخ .
(٦) يظاهر : يعاون .
(٧) الزكى : الطاهر النقى . والظنين : المتهم .
(٨) « الحبر » .
(٩) « ظاهر الخوبة » .
(١٠) الشاعر زهير بن أبى سلمى .

وكذبٍ ظاهرٍ، كثيرُ الإيهام، شديدُ التمويه، لا يرجع إلى وُدٍّ صادق، ولا إلى عَقد صحيح وعهدٍ محفوظ؛ وإنّما كان الماضى يقرّبه لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء الخُرّ بين القرامطة، وكان أيضا مذموم[1] الهيئة، فكان لايَنْبس[2] إلا بما يقوّيه ويحرسُ حاله، واليوم هو رَخِيُّ اللَّبَب[3]، جاذب لكلّ سبب؛ وليس هناك كفاية ولا صيانة[4] ولا ديانة ولا مروءة؛ و بعد، فهو مشئوم نَـكِد، ثقيل الرُّوح، شديد البُهْت[5] قوله الإفساد وعادته تأجيل[6] للّهَنأ والشماتةُ بالعاثر[7] والتشفى من المنكوب.

وأمّا بَهْرام فرجل مجوسىّ معجَب ذميم، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ، غرضه[8] أن يتبجّح فى الدنيا بجاهه، ولا يبالى أين صار بعاقبته؛ وهو يَحُضُّ[9] مع ذلك عليه فى كلّ ماهو مديره ومدبّره.

وأما ابن مكيخا، فرجل نصرانىّ أرعنُ خسيس، ماجاء يوما بخـير قطّ
(٣) لا فى رأى ولا فى عمل ولا فى توسّط؛ وأصحابنا يلقّبونه بقفًا وهو «منهمك[10]

(١) مذموما بالهيئة.
(٢) ينبس: يتكلم.
(٣) رخى اللبب، أى متسع الحال. وهو مجاز؛ وأصل اللبب مايشد من سيور السرج فى اللبة من صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل.
(٤) «صناعة».
(٥) البهت: الـكذب والباطل.
(٦) فى الأصل: «تعجيل» وسياق الـكلام يقتضى ما أثبتنا. والمهنأ مصدر ميمى
(٧) «بالثار»؛ وهو تصحيف.
(٨) «عرضه».
(٩) يحض مع ذلك الخ، أى يغرى الناس بالوزير ويفسد قلوبهم عليه.
(١٠) وردت هذه العبارة فى الأصل محرفة الحروف، مهمل أكثرها من النقط؛ وما أثبتناه أقرب إلى الرسم الوارد فى الأصل، كما أن سياق الـكلام الآتى يقتضيه.

يَطَأُ حوضَــه المستوردون وتَغْشَه شوائبُ لا تبقَى عليها النقائبُ[١]

وما ضاع قولهم : لا تكن حلوا فتؤكَل ، ولا مُرًّا فتُعاف . ليس الحَذَرُ يقى[٢] فكيف التهوُّر ، أهْهنا لِحًى تُسحَبُ كلَّ يوم ، وطوارقُ تُتوقَّع كلَّ ليلة ! والتوكّل والاستسلام يليقان[٣] بأهل الدِّين فى طلب الآخرة ؛ فأمّا أصحاب الدنيا وأربابُ المراتب ، فيجب أن يدَعوا الهوينا جانبا ، ويشمّروا للنفع والضّر ؛ والخير والشرّ ويكون ضُرُّهم أكثر ، وشرُّهم أغلب ؛ ورَهَبوت خير من رَحَموت .

ولهذا قال الأعرابى :

أنا الغلام الأعسَرْ الخيرُ فىّ والشّرْ
والشرّ فىّ أكثرْ

وهذا معنى بديع ، ولم يُرِد أنّ البذاءة بالشرّ خير من الخير ، وإنما أراد أنّى أتّقى بالشر ، وإذا أقبل الشرّ قلتُ له : مرحبا ، وأدفع الشرّ ولو بالشر ، والحديد بالحديد يُفْلَح[٤] . وقد قال الآخر[٥] :

وفى الشّر نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسانُ

وقال ابن دارة :

إذا كنت يوما طالب القوم فاُطّرِحْ مقالتهم وأذهب بهم كلَّ مذهبِ
وقاربْ بذى حـلم وباعِدْ بجاهل جَلوبٍ عليك الشرّ من كلّ مَجلَبِ
فإن حَدِبوا[٦] فاُقعَسْ وإنهم تقاعَسوا ليستمسكوا ممّا يريدون فاُحْدَبِ

(١) شوائب ، أى عيوب تخالط أخلاقه . والنقائب : السجايا والأخلاق ، الواحدة نقيبة .
(٢) فى الأصل « ليت الحذر وقى » وقوله بعد « فكيف » الخ يقتضى ما أثبتنا .
(٣) « يلتقيان » ؛ وهو تحريف .
(٤) يفلح : يشق .
(٥) فى الأصل : « نجاة لك » وقوله « لك » زيادة من الناسخ .
(٦) حدبوا : من الحدب بالتحريك ، وهو خروج الظهر ودخول الصدر والبطن . والقعس بالتحريك : عكسه .

وإن حلبوا خِلفين[1] فاحلُب ثلاثة   وإن ركبوا يوما لك الشر فاركبِ

وقال الحجاج بن يوسف أبو محمد — وهو من رجالات العرب وقد قهر العجم بالدهاء والزكانة — « لو أخذتُ من الناس مائة ألف ، كان أرضى عنّى من أن أفرّق فيهم مائة ألف » . كان الناس بالأمس مزمومين[2] مخطومين ، يقوم كل واحد بنفسه على نفسه ، ويتّهم غَدَهُ لما جناه فى أمسه ؛ لأن المَلِك السعيد ساسهم ، وقوّم زيغهم ، وقلّم أظفارهم ؛ وشغلهم بالحاجة عن البطر والأشَر ، وبالكفاية عن القلق والضجر ؛ وتقدّم[3] إليهم بترك الخوض فيما لا مرجوع له بخير ؛ وكانوا لا يشكرون الله على نعمته عليهم به ، وإحسانه إليهم بمكانه ، فسُلِبوه فتنفّسَ خناقُهم ، واتسع نطاقُهم ، فامتطى كلٌّ واحد هواه ، ويوشِك أن يقع فى مَهْواة .

قال : وههنا أشياء أخرى غير هذه ، ولكن من يسمع ويَقبل ؟ ومع هذا فالأمور صائرةٌ إلى مصايرها ، كما أنّها صادرة عن مصادرها .

فقال له ابن جبلة : ما عندى إلا أن الوزير — أبقاه الله — عارفٌ بهم ومستبطِن لأمرهم ؛ مع العشرة القديمة ، والملابَسة المتصلة ، والخِبرة الواقعة ؛ ولكن [لا بدّ] [4] لمن كان فى محلّه ورفعته من جماعةٍ يقرّبهم ، ويَرجع إليهم ويَسمع منهم ، وينظر بأعينهم ، ويُصغِى بآذانهم ، ويتناول بأيديهم . فقال له مجاوبا : إن كان عارفا[5] بهم ، ومستبطنا لأمرهم ، وخبيرا بشأنهم ؛ فلِمَ سلّطهم وبسَطَهم ، وحدّد أنيابهم ، وقوّى أسنانهم ، وفتح أشداقهم ، وطوّل أعناقهم

(١) الخلف : الضرع .
(٢) فى الأصل « مرموقين محطوطين » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام الآتى بعد يقتضى ما أثبتنا . ومزمومين مخطومين ، من الزمام والخطام .
(٣) تقدم إليه بكذا أمره به .
(٤) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ولا تستقيم العبارة بدونها .
(٥) « فارقا بهم مشكبطنا » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

وقطّع أرباقهم ؛ وأبطرهم فأسكرهم ، حتى صاروا يجهلون أقدارهم ، وينسون ما كانوا فيه من القلّة والذلّة ؟ هلاّ[١] رتّبَ كلّ واحد منهم فيما تظهر به كفايته ولا يرفعه إلى ما يظن معه الظنّ الفاسد ، وَلِمَ يضحك فى وجوههم ، ويغضى[٢] على جناياتهم ؟ أما بلغه أنّ ابن يوسف قال[٣] : تشبّثه بابن شاهويه لأنّه قد أعدّه للهرب إلى القرامطة إن دَهَمه أمر ؟ وأنسُه ببهرام إنما هو لاستمداد[٤] الفساد منه وتقديمُه لابن طاهر للسرقة على يده ، وفرحُه بابن مكيخا[٥] للسخرية به وتقريبُه لابن الحجّاج للسّخف ، ولَهَجُه بابن هرون للهُزء واللّعب .

قال له ابن جبلة : من أراد أن يحسّن القبيحَ عند رضاه ، ويقبّح الحَسَن عند سُخْطه فعَل ، ولا يخلو أحد تهبّ ريحه[٦] ، ويعلو شأنه ، وينفذُ أمره ونهيه من حاسد وقارِف[٧] ، ومُدخل ومُرجِف ، على هذه الأمور بُنِيت الدار ، وعليها جرت الأقدار ، إن كنت تنكر هذا الرهط ، فاعرف له[٨] الرهط الآخر ؛ فإنّك تعرف بذلك حُسن اختياره وجميل انتقائه ومحمودَ رأيه .

قال : من هم ؟ . قال : أبو الوفاء المهندس ، وابن زرعة المتفلسف ، وابن عبيد الكاتب ، ومسكويه ، والأهوازىّ والمسجدى فأين[٩] هؤلاء الغامطة[١٠] ؟

(١) « على » .
(٢) « يقضى » .
(٣) « قال » .
(٤) « الاستبداد » .
(٥) « ابن مكينجاج » .
(٦) تهب ريحه : كناية عن نهوض الحظ وقيام الدولة .
(٧) قارف ، أى كاذب ظالم . والمدخل : العائب ، من الدخل بالتحريك وسكون الخاء بمعنى العيب .
(٨) له ، أى الوزير .
(٩) « فالآن » .
(١٠) الغامطة : الذين لايشكرون النعمة . ويشير بهذا الوصف إلى الجماعة المتقدم ذكرهم وهم ابن شاهويه وبهرام الخ . يريد أين هؤلاء من هؤلاء .

قومٌ همُّهم أن يأكلوا رغيفا ويشربوا قدحا ، لا همُّ ممن يُقتبَس من علمهم ولامهم[١] يتكلفون له نصحا ، وهيبته[٢] تعوقهم عن ذكر شيء في الدولة من تلقائهم إلا أن يكون شيء يتعلّق بهم على معنى خاصّ ؛ فهو ينود[٣] هكذا وهكذا حتى يبلغ منهم ما قدر عليه .

فلما سمع الوزير هذا كلّه قال : سألقى إليك فى جواب هذه المسألة ما تخدمنى به إن لاقيتَهم فى مجلس آخر على وجه يُخفِى[٤] أنك له ملقّن مُحمَّل كأنّك ساهٍ عنه غيرُ حافلٍ به ؛ وقد تقطّع الليل ، ويُحتاج فى هذا الحديث إلى أستئناف زمان ، بعد أستيفاء جِمام ؛ ثم أنشدتُ قول الشاعر :

إنى لأصفح عن قومى وألبَسُهم على الضغائن حتى تبرأ المِئَرُ

ثم قال : ما المئر ؟ قلت : هى الضغائن التى ذكرها فى حشو البيت ، واحدها مِئْرَةٌ ، كأنه أراد وألبَسُهم على الضغائن [حتى تبرأ الضغائن[٥]] فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورةَ القافية لمّا كان معناهما واحدا ؛ قال : لمن هذا البيت ؟ قلتُ : لا أحفظ أسمَ شاعره ، ولكن أحفظ معه أبياتا . قال : هاتها ؛ فأنشدتُ أوّل ذلك :

يأيُّها الرجل المُزْجِى أذيّتَه[٦] هل أنت عن قولك العوراء مزدجرُ

إنى إذا عُدَّ مِبْطاءٌ[٧] إلى أمدٍ لا يستطيع حِضارى[٨] المقرف البَطِرُ

---

(١) « لا هو » .
(٢) « عتقهم » .
(٣) ينود : يتحرك ويتمايل . والمراد انه يلوّح هكذا وهكذا بالكلام .
(٤) « الخفى » .
(٥) هذه العبارة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، ولا يستقيم الكلام بدونها ، فان قوله : « وألبسهم على الضغائن » من لفظ البيت ، فلا يصح أن يقال فيه : « كأنه أراد » .
(٦) « أدبته » .
(٧) « مد ميطاء » .
(٨) الحضار ، بكسر الحاء والمحاضرة : المغالبة فى الحضر بضمها ، وهو العدو السريع. =

لاقى قناتىَ مِصْرارا عَشَوْزَنَةً[١] لا قادح قد تبغّاها ولا خَوَرُ
إنى لأصفح عن قومى وأَلْبَسُهم على الضغائن حتى تبرأ المِئَرُ

قال: أُكتبها. قلت: أفعلُ، وانصرفتُ، فاأعاد علىّ بعدذلك شيئا مما كان.

الليلة الرابعة

(١) قال لى بعد ذلك فى ليلة أخرى: كيف رضاك عن أبى الوفاء[٢] ؟ قلت: أرضى رضًا بأتمّ شكر وأحمدِ ثناء؛ أخذ بيدى، ونظر فى معاشى، ونشّطنى وبشّرنى، ورعى عهدى، ثم ختم هذا كلّه بالنعمة الكبرى، وقلّدنى بها القلادة الحسنى، وشملنى بهذه الخدمة، وأذاقنى حلاوة هذه المزيّة، وأوجهنى عند نظرائى.

قال: هات شيئا من الغَزَل. فأنشدته:

كلانا سواء فى الهوى غير أنّها تجـلّدُ أحيانا وما بى تجلّدُ

= والمقرف من الخيل: ما أمه عربية وأبوه أعجمى. والبطر بكسر الطاء: من البطر بالتحريك؛ وهو هنا بمعنى التحير والدهش والانبهار. يريد أنه يتحير ويدهش حين يسابق أسرع منه فيقصر عن مسابقته بسبب ذلك. ويقال للبعير القطوف إذا جارى بعيراً واسع الخطو فقصرت خطاه عن مباراته: «قد أبطره ذرعه» أى حمله على أكثر من طوقه.

(١) ورد هذا البيت فى الأصل هكذا:

لاقى قناتى مصرارا عسورته لا قارح قد تبغاها ولا خور

وفى بعض ألفاظه تحريف ظاهر. ومصرارا، أى ذات صرير، أى صوت. والعرب يصفون القناة الجيدة بأنها تصوّت عند غمزها، كما يدل على ذلك بيت عمرو بن كلثوم الآتى. والعشوزنة: الصلبة الشديدة الغليظة، قال عمرو بن كلثوم يصف قناة:

عَشَوْزَنَةً إذا غُمِزت أَرَنّتْ تشُجّ قفا المثقِّف والجبينا

والقادح: أكال يقع فى الشجر. والصدع فى العود.

(٢) يريد أبا الوفاء المهندس، وهو محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، مولده ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨، وكان إماماً فى الحساب والهندسة والجبر والفلك؛ توفى سنة ٣٨٧ كما فى ابن الأثير أو سنة ٣٨٨ كما فى تاريخ الحكماء. وهو الذى ألف أبو حيان له هذا الكتاب.

تخاف وعيد الكاشحين وإنما جنونى عليها [حين] أنْهَى وأُبْعَدُ

ثمّ قال : غالب ظنّى أن نصرا غلامَ خواشاذه[١] ما هرب من فِنائى إلا برأيك (٢)
وتجسيرك ؛ فإنّ ذلك عبد ، ولا جرأة له على مثل هذا النُّدود والشُّذوذ ، فقد قال لى القائل : إنّك من خُلَصائِه .

فقلت : واللّه الذى لا إله إلاّ هو ما كان بينى وبينه ما يقتضى هذا الأنس وهذا الاسترسال ، إنما كنا نلتقى على زَنبرية[٢] باب الجسر بالعشايا وعند البيمارِستان وعلى باب أبى الوفاء ؛ وإنما ركنت إليه لمرقَّعَتِه[٣] وتاسومته عند ما كنت رأيتُه عند صاحبه بالرّىّ سنة تسع وستين وهو متوجه إلى قابوس وجرجان ، فى المذلّة الدائمة والحال المربوطة[٤] ؛ ولو نَبَس لى بحرف من هذا[٥] ، أو كنت أشعر بأقلّ شىء منه ، لكنت أقوله لأبى الوفاء قضاء لحقّه ، ووفاء بما لَه فى عنقى من مننه وخوفا من هذا الظنّ بى ، وقصورا عن اللائمة لى .

قال : أفما تعرف أحدا تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه ؟ قلت : ما رأيته إلا وحده ؛ وكم كان زمان التلاقى ؟ كان أقلّ من شهر ، أفى هذا القدر يتوكّد الأنس وترتفع الحشمة وتستحكم الثقة ويقع الاسترسال والتشاور ؟

(١) خواشاذه هو أبو نصر خواشاذه كان فارسيا من كبار رجال شرف الدولة البويهى وكان سفيرا فى الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة .

(٢) انظر تفسير هذا اللفظ فى الحاشية رقم ٢ صفحة ٤١ .

(٣) المرقعة : من لبس الصوفية ، لما فيها من الرقع . والتاسومة : كلمة شائعة الاستعمال عند العامة فى نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء ؛ ولم نجدها فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أنها لم ترد فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة .

(٤) لعله يريد بالمربوطة فى هذا الموضع ، الواقفة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه .

(٥) من هذا ، أى من أمر هربه .

هذا بعيد . قال : هذا المتخلِّفُ(١) كنتُ قد قرّبتُه ورتّبتُه ، ووعدته ومنّيته ؛ وتقدمت إلى أبي الوفاء بالإقبال عليه ، والإحسان إليه ، وإذكارى بأمره في الوقت بعد الوقت ، حتى أزيده نباهة وتقديما ، فترك هذا كلّه وطوى الأرضَ كأنّه هارب من حبس ، أو خائف من عذاب . ويقال في الأثر : إن بعض الصّفيحيّين(٢) قال : لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، ما أكثر من يفرّ من هذه الكرامة ، ويَتقوى — على تَرَفٍ جَمّ — على الهوان ، ويصبر على البلاء ، ويَقلق في العافية ! إنّ السجايا لمختلفة ، وإنّ الطباع لمتعادية ؛ قَلَّما يُرَى شخصان يتشاكلان في الظاهر إلاّ يتباينان في الباطن .

قلتُ : كذلك هو .

(٣) قال : حدِّثني لِمَ امتنعتَ من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل فيما رسَمْنا له أن يتوجّه فيه ؟ ولقد أطلتُ التعجّب من هذا وكرّرتُه على أبي الوفاء .

فقلتُ : منعني من ذلك ثلاثة أشياء : أحدها أن ابن موسى لم يكن من شكلي « ولا أشدّ للضدّ »(٣) هُونا(٤) من مصاحَبة الضّدّ(٥) ، لأنّه سَوداويّ وجَمْد . والآخَر أنّه قيل : ينبغي أن تكون عينا عليه ، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيتُه [لائقا(٦)] بحالي ، فكيف إذا قُرِنتُ برجل باطليّ(٧) لو مرّ بوهمه أمري

(١) يريد بالمتخلف : هذا الغلام الآبق ، لتخلفه عن متابعة مولاه .

(٢) الصفيحيون : نسبة إلى الصفيح ، وهو من أسماء السماء ، يريد المتصدين المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوى .

(٣) وردت هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في الأصل محرفة لا معنى لها وما أثبتناه هو أقرب الحروف إلى الرسم الوارد في الأصل ، كما أن سياق الكلام يقتضيه .

(٤) الهون : الذل والهوان .

(٥) « الصك » .

(٦) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، ولعله يريد أنه لو اكتفى بنقل حقيقة الحديث لما كان ذلك لائقا بحاله لما في هذا العمل من وصفه بالسعاية والوشاية .

(٧) يريد بالباطلي أنه يأخذ بالشبهات والظنون الباطلة .

لدَهْدَهَنِي(١) من أعلى جبل فى الطريق . والآخَرَ أنّى كنت أفِدُ مع هذا كله على ابن عبّاد — وهو رجل أساء إلىّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أنقلب إليه ثانيا ؛ وكنت أكره ذلك ، وما كنتُ(٢) آمَنُ ما يكون منه ومنّى ، والمجنون(٣) المطاع ، مهروب منه بالطباع .

وبعد ، فليس لى [حَاجَةٌ](٤) فى مثل هذه الخدمة ، لأن صدر العمر خلا منّى عاريا من هذه الأحوال ، وكان وسطه أضعفَ حملا ، وأبعدَ من القيام به والقيام عليه .

فقال : ما كان عندى هذا كلّه .

قال : إنّى أريد أن أسألك عن ابن عبّاد فقد أنتجعتَه وخبرتَه وحضرتَ مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالبِ ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ؛ فما أظنّ أنّى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، على أنّى قد شاهدته بهمَذان لمّا وافى ، ولكنّى لم أعْجُمْه ، لأن اللُّبث كان قليلا ، والشغلَ كان عظيما ، والعائقَ كان واقعا . (٤)

فقلت : إنّى رجل مظلوم من(٥) جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديدُ الغيظ لحرمانى ، وإن وصفتُه أرْبَيْتُ(٦) منتصِفا(٧) ، وانتصفتُ منه مسرِفا(٨) ،

---

(١) دهدهه : دحرجه .

(٢) « وما أكتب » .

(٣) « والمحكوت » .

(٤) موضع هذا اللفظ فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا أو ما يفيد معناه .

(٥) « أمر » .

(٦) أربيت : زدت .

(٧) ورد فى الأصل بعد هذه الكلمة لام وميم ؛ ولعلهما من زيادات النساخ ، لاستقامة الكلام بدونهما .

(٨) « مشترفا » ، وقد ورد بعد هذه الكلمة فى الأصل حاء وياء ؛ ولعلهما من زيادات النساخ .

فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلَق ؛ على أنى عملت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نَفَسى الغزير ، ولفظى الطويلَ والقصير ، وهى فى المسوّدة ولا جسارة لى على تحريرها ، فإنّ جانبه مَهيب ، ولمكره دبيب ، وقد قال الشاعر :

إلى أن يَغيبَ[1] المرء يُرجَى ويُتّقَى ولا يَعلم الإنسانُ ما فى المغيَّبِ

قال : دع هـذا كلَّه ، وأنسخ لى الرسالة من المسوّدة ، ولا يَمنعنَّك ذاك فإنّ العين لا ترمقُها والأذنَ لا تسمعها واليدَ لا تنسخها .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِل عليه ، أو بما كسب[2] هو بيديه من خير وشرّ ؛ وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنّه مع علمه الواسع ، وكرمه السابغ ، يصف المحسن والمسىء ، ويُثنى على هـذا وينْثو[3] على ذاك ؛ فاُذكر لى من أمره ما خفىّ اللفظ به وسبق الخاطرُ إليه وحضر السببُ له .

قلت : إنّ الرجل كثيرُ المحفوظ حاضرُ الجواب فصيحُ اللسان ؛ قد نَتَف من كل أدب خفيفٍ أشياء ، وأخَذَ من كلّ فنّ أطرافا ؛ والغالب عليه كلام المتكلّمين المعتزلة ، وكتابته مهجّنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة[4] بعبارة الكتّاب ؛ وهو شـديد التعصّب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطبّ والتنجيم والموسيقى والمنطق والعَدد ؛ وليس [عنده][5] بالجزء

(١) يغيب ، أى يموت . وفى الأصل « يعيش » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .
(٢) « كتب » بالتاء .
(٣) « ينثو على ذلك » ، أى يخبر عنه بذنوبه ، يقال : « نثا على فلان ذنوبه » ، إذا أخبر بها عنه وأشاعها .
(٤) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل : « مسترقة » .
(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ ومكانها كلمة مطموسة تتعذر قراءتها .

الإلهى خبر ، ولا له فيه عين(١) ولا أثر ؛ وهو حسَن القيام بالعروض والقوافى ؛ ويقول الشعر ، وليس بذاك ؛ وفى بديهته غزارة . وأما رويّته(٢) فخوّارة ؛ وطالعُه الجوزاء ، والشِّعْرَى قريبة منه ؛ ويتشيّع لمذهب أبى حنيفة ومقالةِ الزّيديّة ، ولا يرجع إلى الرقّة والرأفة والرحمة ، والناس كلّهم محجمون عنه ، لجرأته وسلاطته واقتدارِه وبسطتِه ؛ شديد العقاب طفيفُ الثواب ، طويلُ العتاب ؛ بذىء اللسان ؛ يُعطِى كثيرا قليلا (أعنى يعطى الكثيرَ القليل) ، مغلوبٌ بحرارة الرأس ، سريعُ الغضب ، بعيــد الفيْئَة(٣) قريبُ الطِّيَرة ، حسودٌ حقودٌ حديد ، وحسدُه وقفٌ على أهل الفضل ، وحِقْدُه سارٍ إلى أهل الكفاية ؛ أمّا الكتّاب والمتصرّفون فيخافون سطوته ، وأمّا المنتجعون(٤) فيخافون جفوته ؛ وقد قتَل خَلْقا ، وأهلك ناسا ، ونَفَى أمّة ، نخوةً وتعنُّتا وتجبُّرا وزَهْوا ؛ وهو مع هذا يخدعه الصبىّ ، ويخلُبه الغبىّ ؛ لأنّ المَدخَل عليــه واسع ، والمأتَى إليه سهل ؛ وذلك بأن يقــال : مولانا يتقدّم بأن أعارَ شيئا من كلامه ، ورسائلِ منثورِه ومنظومِه ؛ فمـا جُبْتُ الأرض إليه(٥) من فَرْغَانةَ ومصرَ وتفليسَ إلاّ لأستفيد كلامَه وأفْصُحَ به ، وأتعلّمَ البلاغةَ منه ؛ لكأنّما رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُه فيها آيات فرقان ؛ واحتجاجُه من ابتدائها إلى انتهائهـا برهان فوقَ برهان ؛ فسبحان من جمع العالَمَ فى واحد ، وأبرز جميع قدرتِه فى شخص .

---

(١) « جبن ولا إبر » .

(٢) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : «بديهته» ولا يستقيم مع العبارة السابقة .

(٣) « النية » . والتصحيح عن معجم ياقوت . والفيئة : الرجعة .

(٤) « المنكبفون » .

(٥) « إلا من فرغانة » وقوله « إلا » زيادة من الناسخ .

فيلين عند ذلك ويذوب ، ويَلهَى عن كلّ مهمّ له ، ويَنسى كلّ فريضة عليه ويتقدم إلى الخازن [١] بأن يُخرج إليه رسائله مع الورَق [٢] والوَرِق ويسهّل [٣] له الإذنَ عليه ، والوصولَ إليه ، والتمكّنَ من مجلسه ؛ فهٰذا هٰذا .

ثم يعمَل فى أوقات كالعيد والفَصْل شِعرا ، ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجّم ، ويقول : قد نحلتُك هذه القصيدة ، امدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهَمَج [٤] المُنْشدين [٥] . فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادىّ محكّك [٦] قد شاخ على الخدائع وتَحَنّك — ويُنشِد ، فيقول له عند سماعِه شِعرَه فى نفسه ووصْفَه بلسانه ، ومدْحَه من تحبيره : أَعِدْ يا أبا عيسى ، فإنّك — والله — مُجيد زِهْ يا أبا عيسى والله ، قد صفا ذِهنُك ، وزادت قريحتُك ، وتنقّحتْ قوافيك ؛ ليس هذا من الطِّراز الأوّل حين أنشدتَنا فى العيد الماضى ، مجالسُنا تُخرِّج الناس وتَهَب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحوّل الكَوْدَنَ [٧] عتيقا ، والمحمّرَ [٨] جَوادا ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلاّ بجائزة سنيّه ؛ وعطيّة هنيّه ؛ ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرِهم ، لأنّهم يعلمون أن أبا عيسى لا يَقرِض مِصْراعا ولا يَزِنُ بيتا ولا يذوق عَرُوضا .

قال يوما : من فى الدار ؟ فقيل له : أبو القاسم الكاتب وأبن ثابت ؛ فعَمِل

(١) « الحازق » .
(٢) يريد بأحد الورقين : الدراهم المضروبة ، وهو بفتح الراء وكسرها .
(٣) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٧ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : «ويهلم» ؛ وهو تحريف لا معنى له .
(٤) « المهج » ، وفى حروفه قلب .
(٥) « المفسدين » وما أثبتناه عن معجم الأدباء .
(٦) محكك ، أى مجرب مدرب .
(٧) الكودن : الفرس الهجين . والعتيق : عكسه .
(٨) المحمّر : الفرس الهجين .

فى الحال بيتين ، وقال لإنسان بين يديه : إذا أذنتُ لهذين فأدخلْ بعدهما بساعة وقل : « قد قلتُ[١] بيتين ، فإن رسمتَ لى إنشادَهما أنشدتُ » وأزعم أنك بُدِهْتَ بهما ، ولا تجزع من تأفُّفى بك ، ولا تفزع من نُكْرى عليك ، ودفعَ البيتين إليه ، وأمره بالخروج إلى الصحن ؛ وأذن للرجلين حتى وَصلا ؛ فلما جلسا وأنسا[٢] دخل الآخر[٣] على تَفيئتهما[٤] ، ووقف للخدمة ، وأخذ يتلمّظُ يُرِى أنه يَقرِض شِعرا ؛ ثم قال : يا مولانا ، قد حضرنى بيتان ، فإن أنت أذنتَ لى أنشدتُ . قال : أنت إنسان أخرَقُ سخيف ، لا تقول شيئا فيه خير ، اِكفنى أمرَكَ وشعرَكَ . قال : يامولانا ، هى بديهتى ، فإن نَكِرْتَنى[٥] ظلمتَنى ؛ وعلى كلّ حال فأسمع ، فإن كانا بارعَين وإلاّ فعامِلْنى بما تحبُّ[٦] قال : أنت لجوج ، هاتِ . فأنشد :

يا أيها الصاحب تاجَ العلا ... لا تجعلَنّى نُهْزَةَ الشامتِ

بمُلحِدٍ يُكنَى أبا قاسم ... ومُجْبَرٍ[٧] يُعزَى إلى ثابتِ

قال : قاتلك الله ، لقد أحسنتَ وأنت مسىء . قال لى أبو القاسم : فكدتُ أتفقّأ غيظا ، لأنى علمت أنه من فَعَلاته المعروفة ؛ وكان ذلك الجاهل لا يَقرِض

---

(١) ورد فى الأصل بعد قوله : « قلت » جيم وميم وهما زيادة من الناسخ ، لاستقامة الكلام بدونهما ، ولأنهما لم يردا فى معجم الأدباء . ويلاحظ أن فى هذه النسخة كثيرا من الحروف الزائدة .

(٢) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل : « موانسا » ؛ وهو تحريف .

(٣) « الأحمر » وما أثبتناه عن معجم الأدباء .

(٤) « تفيائهما » ؛ وهو تحريف . « ودخل على تفيئتهما » ، أى على أثرهما . وتفيئة الشىء : حينه وزمنه .

(٥) « تكسرتنى » ؛ وهو تحريف . وفى معجم الأدباء « كهرتنى » .

(٦) « يحب » .

(٧) « مجبر » بفتح الباء ، أى منسوب إلى مذهب الجبرية بالتحريك ، وهم فرقة يقولون : ليس للعبد قدرة ، وإن الحركات الإرادية بمثابة الرعدة والرعشة .

بيتنا . ثم حدّثنى الخادمُ الحديثَ بنصّه .

والذى غلّطه فى نفسه وحمَلَه على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه ، أنّه لم يُجْبَهْ قطُّ بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئة ؛ ولا قيل له : أخطأتَ أو قصّرتَ أو لحنتَ أو غَلِطتَ أو أخللْت ، لأنّه نشأ على أن يقال : أصاب سيّدُنا ، وصدَقَ مولانا ، ولله دَرُّه ، ولله بَلاؤه ، ما رأينا مِثلَه ، ولا سمعنا مَن يقاربه ، مَن (أبنُ عبدِ كان) مضافا إليه ؟ ومَن (أبنُ ثوابةَ) مَقيسا عليه ؟ ومن (إبراهيم بن العباس) الصُّولىُّ [إذا جُمع بينهما] ؟ مَن (صريع الغوانى) مَنْ (أشْجَع السُّلمىّ) إذا سَلَكَ طريقهما ، ومَتَحَ برشائهما ، وقَدَح بزَنْدِهما ؟ قد أستدرك مولانا على (الخليل) فى العَروض ، وعلى (أبى عمرو بن العَلاء) فى اللّغة وعلى (أبى يوسفَ) فى القضاء ، وعلى (الإسكافىّ) فى الموازَنة ، وعلى (أبن نُوبختَ) فى الآراء والدّيانات ، وعلى (أبن مُجاهد) فى القراءات ؛ وعلى (أبن جرير) فى التفسير ، وعلى (أرسطوطاليسَ) فى المنطق ، وعلى (الكِندىّ) فى الجزء[١] ، وعلى (أبن سيرين) فى العبارة ، وعلى (أبى العَيْناء) فى البديهة ، وعلى (أبن أبى خالد) فى الخطّ ، وعلى (الجاحظ) فى الحيوان ، وعلى (سهل بن هرون) فى الفِقَر ، وعلى (يوحنّا) فى الطبّ ؛ وعلى (أبن رَبَن)[٢] فى الفردوس ، وعلى (عيسى بن دَأْب) فى الرواية ، وعلى (الواقدىّ) فى الحفظ ، وعلى (النّجار) فى البَدَل[٣] ، وعلى (ابن ثوابة) فى التفقّه[٤] ، وعلى (السَّرِىّ السَّقَطىّ) فى الخَطَرات والوساوس ، وعلى (مزَبّد)[٥]

---

(١) يريد الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو ما يسمى بالجوهر الفرد .

(٢) « ابن ربن » هو على بن ربن كان طبيبا مشهورا ، ألف كتابا اسمه فردوس الحكمة ، وكان يهوديا ثم أسلم على يد المعتصم .

(٣) البدل : اسم كتاب فى الكلام لأبى عبد الله الحسين بن محمد النجار .

(٤) فى معجم الأدباء « وعلى بنى ثوابة فى التفقية » .

(٥) هو أبو إسحاق مزبد المدنى اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف ملحه .

فى النوادر ، وعلى (أبى الحسن العروضىّ) فى استخراج المعمّى ، وعلى (بنى برمك) فى الجود ، وعلى (ذى الرياستين) فى التدبير ، وعلى (سَطِيح) فى الكهانة ، وعلى (ابن المحيّا خالد بن سنان العَبْسىّ) فى دعواه[1] ؛ هو والله أولى بقول (أبى شريح أوس بن حَجَر التميمىّ) فى (فضالة بن كَلْدة) :

الألمعىُّ الّذى يظنّ بك الظنّ * كأنْ قد رأى وقد سمعا

قد يَسبق المدحُ إلى من [لا[2]] يستحقّه ، ويصير المال إلى من لا يليق به أن يكون مَيِّلا[3] حتى إذا وجد من كان لذلك مستحقا مُنِحَه ووُفِّر عليه .

فتراه عند هذا الهَذَر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ، ويطير فرحا ويتقسّم ويقول : ولا كذا[4] ؛ ثمرةُ السَّبْق لهم ، وقصّرْنا أن نَلحقهم ، أو نَقْفُوَ أثَرهم ونشقّ غُبارَهم أو نرِدَ غِمارَهم . وهو فى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويَلوِى شِدْقَه ، ويبتلع ريقَه ، ويَرُدُّ كالآخذ ، ويأخذ كالمتمنّع ، ويَغضَب فى عَرْض الرضا ، ويرضى فى لَبُوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل[5] ويتمايل ؛ ويحاكى الموسسات ، ويَخرُج فى أصحاب السماجات ؛ ومع هذا كلّه يظنّ أن هذا خافٍ على نُقّادِ الأخلاق وجَهابذة الأحوال ، والذين قد فرّغهم الله لتتبّع

---

(١) خالد بن سنان رووا أنه كان نبيا وكان فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام وكان بأرض عبس . ولم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من لقبه بابن المحيا ، وقد وردت كنيته فى معجم الأدباء بأبى المحياة .

(٢) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٣) « ميتا » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . والميّل ، ذو المال .

(٤) « ولا كذا » : كلمة ظاهرها الرغبة فى الاقتصاد فى المدح ، وباطنها الحث على الإكثار منه .

(٥) « ويتقابل » ، أى تتقابل أجزاؤه بعضها ببعض ، وذلك إذا استوى فى مجلسه ولم يمل إلى ناحية .

الأمور ، واستخراجِ مافى الصدور ، وأعتبار الأسباب ؛ وذلك أنه ليس بجيّد العقل ، ولا خالصِ الحُمقِ ؛ وكلّ كَدَر بالتركيب فقلما يصفو ، وكل مركّب على الكدَر فقلّما يعتدل ؛ إلا أن الانحراف متى كان إلى جانب العقل كان أصلحَ من أن يكون إلى طرَف الحُمق ؛ والكامل عزيز ، والبرىء من الآفات معدوم ؛ إلاّ أنّ العليل إذا قيّض الله له طبيبا حاذقا رفيقا ناصحا كان إلى العافية أقرب ، وللشفاء أرجى ، ومن العطَب أبعَد ، وبالأحتياط أعلَق ، أعنى أنّ العاقل إذا عَرَف من نفسه عيوبا معدودة ، وأخلاقا مدخولة ، استطَبّ لها عقلَه ، وتطبّبَ فيها بعقله ، وتولّى تدبيرَها برأيه ورأى خُلْصانِه ، فنَفَى ما أمكن نفيُه ، وأصلَحَ ما قُبِل إصلاحُه ، وقَلَّل ما أُستطاع تقليلَه ؛ فقد يجد الإنسان الرّمَصَ فى عينه فينحّيه ، ويُبتلَى بالبرَص فى بدنه فيخفيه .

وقد أفسده أيضا ثقةُ صاحبه[١] به ، وتعويلُه عليه ، وقلّةُ سماعِه من الناصح فيه ؛ فبُذِر[٢] بازدهاء المال والعلمِ والأقتدارِ والأمرِ والكفايةِ وطاعةِ الرجال وتصديقِ الجلساء والعادةِ الغالبة ؛ وهو فى الأصل مجدود[٣] لا جَرَم ليس يُقِلّه مكانٌ دلالاً وترَفا ، وعُجْبا وتيها وصَلفا ؛ وأندراء[٤] على الناس ، وأزدراء للصغار والكبار ، وجَبْها للصادر والوارد ؛ وفى الجملة ، صِغارُ[٥] آفاته كبيرة ، وذنوبُه جَمّة * ولكنّ الغنَى ربٌّ غفورُ * قال : ما صَدْرُ هذا البيت ؟ فأنشدتُه الأبيات ، وهى

(١) يريد بصاحبه : الملك الذى استوزره ، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخوه فكلاهما قد استوزره .

(٢) « فقدر » بالقاف والدال .

(٣) المجدود : المحظوظ .

(٤) الاندراء : الاندفاع والتهجم .

(٥) « تعار » .

لعروةَ بنِ الوَرْد فى الجاهليّة ، وكان يقال له عروة الصعاليك ، لأنّه كان يؤويهم ويُحسِن إليهم كثيرا :

ذَرِينى للغِنَى أسعى فإنّى رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الْفَقِيرُ
وأبعَدُهُمْ وأهونُهمْ عليهم وإن أمْسَى له حَسَبٌ وخِيرُ
ويُقصِيه النَّدِىُّ وتزدَريه حليلتُه وينهره الصغير
وتَلْقَى ذا الغِنَى وله جَلالٌ يكاد فؤادُ صاحبه يَطيرُ
قليلٌ ذنبُه والذنب جَمٌّ ولكنّ الغِنَى ربٌّ غفورُ

فقال : لا شكّ أنّ المُسَوَّدة جامعةٌ لهذا كلّه . قلتُ : تلك تُجَزَّع [1] فى دَسْتِ كاغَدٍ فرعونىّ . فقال : أجِدْ[2] تحريرَها ، وعلىّ بها ، ولك الضّمان ألاّ يراها إنسان ، ولا يدور بذِكرها لسان .

(٥) قلتُ : السمعَ والطاعة . قال : قد تركْنا من حديثه ما هو أولَى مما مرَّ بنا ؛ كيف بلاغتُه من بلاغة ابن العميد ؟ وأين طريقتُه من طريقة ابن يوسفَ والصابى ؟ قلتُ : قد سألتُ جماعة عن هذا ، فأجابنى كل واحد بجواب إذا حكيتُه عنه كان ما يقال فيه ألصَق ، وكنتُ من الحُكم عليه وله أبعَد .

قال : صِفْ هذا ؛ قلتُ : سألتُ ابن عبيد الكاتبَ عن ابن عبّاد فى كتابته فقال : يرتفع عن المتعلّمين فيها بدرجة أو بدرجتين . وقال علىّ بن القاسم : هو مجنون الكلام ، تارةً تبدو[3] لك منه بلاغةُ قُسّ ، وتارة يلقاك بعِىٍّ باقل ؛ تحريف كثير فى المعانى ، وإحالةٌ فى الوضع ، وغلطٌ فى السَّجْع ، وشرودٌ عن الطبع .

---

(١) تجزع ، أى تجزأ . والدست : أربع وعشرون ورقة ، كما فى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستاينجاس . والكاغد : الورق ، معرب . وفرعونى ، أى مصرى .
(٢) فى الأصل : « أجد » ؛ والميم زيادة من الناسخ .
(٣) « كنمو » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

وقال ابن المرزبان : هو كثير السرقة ، سيّئ الاتفاق ، ردىء القلب والعكس ، فَرُوقَة[(١)] فى إيراده ، هزيمته قبل هجومه[(٢)] . [وإحجامه[(٣)]] أظهرُ من إقدامه . وقال الصابى : هو مجتهد غيرُ موفّق ، وفاضل غيرُ منطّق[(٤)] ولو خَطا كان أسرع له ، كما أنّه لمّا عَدا كان أبطأ عليه ؛ وطباع[(٥)] الجبلىّ مخالِف لطباع العراقىّ ، يثب[(٦)] مقاربا فيقع بعيدا ، ويتطاول صاعدا فيتقاعسُ قعيدا .

وقال علىّ بن جعفر : مِمَّ كانت الطبائع[(٧)] ! هو يَكذِب نفسَه بحسن الظن فى البلاغة ، وطباعُه تَصْدُق عنه بالتخلّف ، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة ؛ وأمّا إحالته فبالإبعاد عن حَوْمة القصيد والإرادة ؛ والعجب أنه يحفظ الطِّمَّ والرِّمَّ[(٨)] من النثر والنظم ؛ ثم إذا ادّعاهما يقع دونهما سقوطا ، أو يتجاوزهما فُروطا[(٩)] ؛ هذا مع الكبر الممقوت والتشيّع الظاهر ، والدعوى العارية من البيّنة العادلة .

(٦) وما أحسن ما كتب به أحمد بن إسماعيل بن الخصيب إلى آخَر : الكِبْر — أعزّك الله — مَعرِض يستوى فيه النّبيه ذِكرا ، والخامل قَدْرا ، ليس

(١) الفروقة : الشديد الفرق بالتحريك ، وهو الفزع .
(٢) « عجومه » .
(٣) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، والسياق يقتضى ما أثبتنا أو إثبات ما يفيد معناه .
(٤) غير منطق ، أى غير بليغ النطق .
(٥) الطباع : الطبع ، يستعمل مفردا كما هنا وجمعا .
(٦) « بنسته »
(٧) يتعجب بهذه العبارة من أصل الطبائع التى تخالف صاحبها فتصدق عنه إذا كذب نفسه ، كما يدل على ذلك سياق الكلام الآتى .
(٨) الطم والرم : العدد الكثير . يقال : جاء بالطم والرم . والطم فى الأصل : الماء الكثير ، أو ما ساقه الماء من غثاء . والرم : الثرى . والذى فى الأصل « الكظم وأكرم » وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(٩) الفروط : التقدم . وفى الأصل : « فروطا » وهو تصحيف .

أمامه حاجب يمنعه ، ولا دونه حاجز يحظُره ؛ والناس أشدّ تحفّظا على الرئيس المحظوظ ، وأكثر اجتلاء لأفعاله ، وتتبّعا لمعايبه ، وتصفّحا لأخلاقه ، وتنقيرا[1] عن خصاله منهم عن خامل لا يُعبَأ به ، وساقطٍ لا يُكترَث له ؛ فيسيرُ عيب الجليل[2] يقدَح فيه ، وصغير الذنب يَكبر منه ، وقليل الذمّ يُسرع إليه ؛ ولابن هندو فى هذا المعنى :

العيب فى الرجل المذكورِ مذكورُ   والعيب فى الخامل المستورِ مستورُ
كَفُوفَةِ[3] الظُّفْر تَخفى من مهانتها   ومثلها فى سواد العين مشهورُ

وقال الزّهيرى : قد نَجَم بأصبهان ابنٌ لعبّادٍ فى غاية الرقاعة والوقاحة والخلاعة وإن كان له يوم ، فسيَشقى به قوم ، سمعته يقول هذا سنة اثنتين وخمسين فى مجلسٍ من الفقهاء .

وقال ابن حبيب : قال بعض الحكماء : إن للنفس أمراضا كأمراض البدن إلا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن فى الشرّ والضرر كفضل النفس على البدن فى الخير ؛ وصاحبنا[4] يعنى — ابن عبّاد — مريض عندنا ، صحيح عند نفسه ، زَيْف بنقدنا ، جيّد بنقده ؛ ولو قامت[5] السُّوق على ساقها ، وتَناصَف المتعاملون فيها ، ولم يقع إكراه فى أخذٍ ولا إعطاء ، عُرِف البَهْرَج[6] الذى

(١) « وتنكيرا » ؛ بالكاف .
(٢) « الجليل » .
(٣) « فوفة » ، وهو تصحيف . والفوف بفاءين : البياض الذى يكون فى الأظفار الواحدة فوفة .
(٤) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة لم يظهر منها غير الواو والصاد والألف .
(٥) « قالت » ، واللام زيادة من الناسخ .
(٦) « التهزيج » . والبهرج : الردىء .

ضرب خارج الدار[١] والجيّد الذى ضُرِب داخل الدار .

وقال أحمد بن محمد : إذا أنصفْنا ألتزمنا مزيّة العراقيِّين علينا بالطبع اللطيف والمَأخَذ القريب ، والسَّجع الملائم ، واللفظ المُونِق ، والتأليف الحلو ، والسُّبوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة فى السَّمع[٢] ، الخالبة[٣] للقلب[٤] العابثة بالروح ، الزائدة فى العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة[٥] على فضل الأدب ، الدالّة على غزارة المغترَف ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف ؛ وأبن عبّاد بُلِىَ فى هذه الصناعة بأشياء كلّها عليه لا له ، وخاذِلتُه لا ناصِرتُه ، ومُسلِمتُه لا مُنقِذتُه ؛ فأوّل ما بُلِىَ به أنّه فقد الطبع ، وهُوَ[٦] العمود ؛ والثانى العادة وهى المؤاتية[٧] ؛ والثالث الشغف بالجاسى[٨] من اللفظ وهو الأختيار الردئ ؛ والرابع تتبّع الوحشىّ ، وهو الضلال المبين ؛ والخامس الذّهاب مع اللفظ دون المعنى ؛ والسادس استكراه المقصود من المعنى ، واللفظ على النَّبْوَة ؛ والسابع التعاظُل[٩] المجهولُ بالأعتراض ؛ والثامن إلْف الرسوم ألفاسدة من غير تصفّح ولا فحص ؛ والتاسع قلة الاتعاظ[١٠] بما كان — للثقة الواقعة فى النفس — من الفائت[١١] ، والعاشر تنفيق المتاع بالأقتدار فى

---

(١) يريد دار الضرب .
(٢) « السبع » .
(٣) فى الأصل : « الجالبة » بالجيم .
(٤) ورد فى الأصل بعد قوله « للقلب » كاف ولام ، ولعلهما زيادة من الناسخ لاستقامة الكلام بدونهما .
(٥) « المرقوقة على فضل الأذن » . وفى هذه العبارة تحريف فى كلمتين .
(٦) « ولهو » واللام زيادة من الناسخ .
(٧) المؤاتية ، أى المساعدة المعينة .
(٨) الجاسى : الجاف الصلب .
(٩) « التعاطل » بالطاء وهو تصحيف . ويقال : « عاظل الكلام » : إذا عقده ووالى بعضه فوق بعض . « وعاظل بالكلام » : أتى بالرجيع من القول وكرره .
(١٠) « الاعتطال » .
(١١) الغائب .

سُوق العِزّ ، وهذه كلّها سبيل الضلالة ، وطرق الجهالة . قال : وليس شيء أنفع للمنشئ من سوء الظنّ بنفسه ، والرجوعِ إلى غيره وإن كان دونه فى الدرجة وليس فى الدنيا محسوب[١] إلا وهو محتاج إلى تثقيف ، والمستعين[٢] أحزَمُ من المستبدّ ، ومن تفرّد لم يكمل ، ومن شاور لم ينقص ، وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ ، ويَشْرُدُ اللفظ كما يَندُّ[٣] المعنى ، وينتثر النظم[٤] كما ينتظم النثر وينحل المعقّد كما يعقّد المنحلّ .

والمدار على اجتلاب الحلاوة المَذوقة بالطبع ، واجتناب النَّبْوَة الممجوجة بالسمع ؛ والقريحةُ الصافية قد تَكدُر ، والقريحة الكَدِرة قد تصفو ، وشرّ آفات البلاغة الاستكراه ، وأنصَحُ نصائحها الرضا بالعفو . وقال : كان ابن المقفّع يَقِفُ قلمُه كثيرا ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : إنّ الكلام يزدحم فى صدرى فيَقِفُ قلمى لأتخيّره .

والكتاب يُتصفَّح أكثرَ من تصفّح الخطاب ، لأن الكاتب مختار والخاطِب[٥] مضطرّ ؛ ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أسرعتَ فيه أم أبطأت وإنّما ينظر أصبتَ فيه أم أخطأت ، وأحسنتَ أم أسأت ؛ فإبطاؤك غيرُ إصابتك كما أنّ إسراعك غير مُعَفٍّ[٦] على غلطك .

قال : هذا كله مفيد فأين هو مِن غيره من أصحابِنا ؟ قلتُ : فى الجملة هو (٥)

(١) محسوب ، أى أحد معدود فى الناس .
(٢) فى الأصل : « والمستعمل أجزتم من المشيكم » ، وفى جميع ألفاظها تحريف لا معنى له .
(٣) « يبرد » ، و« ينفد » مكان « يشرد » و« يند » .
(٤) « اللفظ » .
(٥) « الحاكم » .
(٦) « مقف » .

أبلغ منِ أبن يوسف[١] ، وأغزَرُ وأحفَظُ وَأرْوَى وَأجمُّ رَكِيَّة ، وَأعذَبُ مَوْرِدا ، وأبعَدُ من التفاوت ؛ وليس أبن يوسف من أبن عبّاد فى شىء .

فأما ابن العميد فإنى سمعت ابن الجمل يقول : سمعت ابن ثوابة يقول : أوّل من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تَخيَّل مذهبَ الجاحظ وظنّ أنّه إن تَبِعه لَحِقه ، وإن تلاه أدركَه ، فوقع بعيدا من الجاحظ ، قريبا من نفسه ؛ ألا يعلم أبو الفضل أنّ مذهب الجاحظ مدبَّر بأشياء لا تلتقى عند كلّ إنسان وَلا تجتمع فى صدر كلّ أحد : بالطبع وَالمنشأ وَالعِلْم وَالأصول وَالعادة وَالعمر وَالفراغ وَالعشقِ[٢] وَالمنافَسة وَالبلوغ ؛ وَهذه مَفاتحُ قلّما يملكها وَاحد ، وسواها[٣] مَغالقُ قلّما ينفكّ منها واحد .

وَأمّا أبنُه ذو الكفايتين ، فلو عاش كان أبلغ من أبيه ، كما كان أشعَرَ منه ؛ ولقد تشبّه بالجاحظ فافتضح فى مكاتبته لإخوانه ، وَمجانَتِه فى كلامه ومسائلِه لمعلّمه التى دلّتنا على سرقته وغارته[٤] وسوء تأتّيه[٥] ، فى تستُّره وتَغطِّيه ؛ ومن شاء حَمَّقَ نفسه ؛ وكان مع هذا أشدّ الناس أدّعاء لكل غريبة ، وأبعَدَ الناس من كلّ قريبة ؛ وهو نَزْر[٦] المعانى ، شديدُ الكَلَف باللفظ ؛ وكان أحسَدَ

---

(١) ابن يوسف الذى يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف أحد أعيان الكتاب فى دولة بنى بويه ، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده ، وهو الذى دس لابن سعدان عند صمصام الدولة حتى سجنه ثم قتله . وفى الجزء الثانى من اليتيمة نماذج من رسائله .

(٢) يريد بالعشق هنا : رغبته وميله إلى ما يزاوله من صناعة الكتابة

(٣) « ووباها » .

(٤) « وغارفته » .

(٥) « تأليه » .

(٦) « يزور » .

الناس لمن خطَّ بالقلم ، أو بلغ باللّسان ، أو فَلَج[١] فى المناظرة ، أو [فَـكِه[٢]] بالنادرة ، أو أغرَبَ فى جواب ، أو اتّسع فى خطاب ؛ ولقد لقِىَ الناسُ منه الدواهىَ لهذه الأخلاق الخبيثة ؛ وقد ذكرتُ ذلك فى الرسالة ، وإذا بُيِّضتْ وقفتَ[٣] عليها من أوّلها إلى آخرها إن شاء الله ؛ وانصرفتُ .

الليلة الخامسة

قال لى ليلة أخرى : ألا تتمّ ما كنّا به بدأنا . قلت : بلى . (١)

فأما أبو إسحاق[٤] فإنّه أحَبّ[٥] الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المَحَجّة الوُسطى ، وإنما يُنقَم عليه قِلّةُ نصيبه من النحو ؛ وليس ابن عبّاد فى النحو بذاك ؛ ولا كان أيضا ابن العميد إلاّ ضـعيفا ؛ وكان يذهب عنه الشىء اليسير . وأبو إسحاق معانيه فلسفيّة ، وطِباعُه عِراقيّة ، وعادته محمودة ؛ لا يَثِبُ ولا يَرْسُب ، ولا يَكِلّ ولا يَكْهَمُ[٦] ، ولا يَلتفت وهو متوجّه ، ولا يتوجّه وهو ملتفِت . وقال[٧] لنا : إمامى ابنُ عبد كان[٨] ، وهو قد أوفَى عليه ، وإن كان

(١) فلج : فاز على خصمه وظفر به .

(٢) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ؛ وما أثبتناه أقرب إلى ما ظهر من حروفها .

(٣) « ووقفت » . والواو زيادة من الناسخ .

(٤) يريد بأبى إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ ونقم عليه عضد الدولة مكاتبات صدرت منه ، فلما ملك عضد الدولة أراد قتله فشفعوا فيه فأطلقه ، وألف له كتاب « التاجى » فى أخبار بنى بويه ، وأريد على الإسلام فأبى وظل على دين الصابئة إلى أن مات سنة ٣٨٤ كما روى ابن خلكان . وقال ابن النديم إنه مات قبل سنة ٣٨٠ .

(٥) « جم » وسياق العبارة الآتية بعد يقتضى ما أثبتنا .

(٦) يكهم : يضعف .

(٧) وقال ، أى أبو اسحاق الصابى .

(٨) «ابن عبد كان» هو محمد بن عبد كان ، كان كاتبا للدولة الطولونية ، وكان بليغا مترسلا فصيحا ، وله ديوان رسائل .

أُحتذَى على مثاله ؛ وفنونُه أكثر ، ومأخَذُه أخْفَى ، وخاطرُه أوْقَد ، وناظِرُه أنْقَد ، ورَوْضُه أنضر ، وسراجُه أزهَر ، ويزيد على كلّ من تقدّم بالكتاب «التاجيّ» ، فإنه أبان عن أمور وكَنَى فى مواضع ، وشنّ الغارةَ فى الصبح المنير مع الرَّعيل الأوّل ، ودلّ على التفلسف ، وعلى الأطلاع على حقائق السياسة ولو لم يكن له غيره[1] لكان به أعرَقَ الناس فى الخَطابة ، وأعرَقَ الكتّاب فى الكتابة ، هذا ونَظْمُه منثورُه ، ومنثورُه منظومُه ؛ إنّما هو ذَهَبٌ إبْرِيزٌ كيفما سُبِك فهو واحد ، وإنما يختلف بما يُصاغ منه ويشكَّلُ عليه ؛ هذا مع الظَّرْف الناصع والتواضع الحَسَن ، واللّهجة اللطيفة ، والخُلُق الدَّمِث ، والمعرفةِ بالزمان ، والخِبرةِ بأصناف الناس ؛ وله فنونٌ من الكلام ما سَبقه إليها أحد ، وما ماثلَه فيها إنسان .

وإنّي لأَرْحَمُ مَن لا يسلِّم له هذا الوصف ، لأنّه إمّا أن يكون جاهلا ، وإما عالما فإن كان جاهلا فهو معذور ، وإن كان عالما فهو مَلُوم ، لأنه يدل من نفسه — بدافعِ ما يعلمه — على حسده ، والحاسد مَهِين .

(٢) قال : هل كان فى زمان هؤلاء من يُلحَق بهم ، ويَدخل فى زُمْرَتِهم ؟ قلتُ : نعم ، أبو طالب الجَرّاحى من آل على بن عيسى كَتَب للمَرْزُبان ملكِ الدَّيْلَم بعد ما انتجَع فِناءَ ابن العميد أبى الفضل ، فحسَدَه وطرَدَه ، وعَضّ بعد ذلك على ناجذِه ندما على سوءِ فعلِه ، ولقِىَ منه ابن أبى طالب الأمَرَّين ؛ ورسائلُه مبثوثة .

وأبو الحسن الفَلَكيّ ، وكان من أهل البَصْرة ، ووقع إلى المراغة ونواحيها وهو حَسَن الدِّيباجة ، رقيقُ حواشى اللّفظ ؛ وهو أحَدُّهُمْ[2] غَرْبا ، وأغْزَرُهُمْ سَكْبا[3] ، وأبعَدُهم مُناخا[4] وأعذَبُهم نُقاخا[5] ، وأعطفُهم للأوّل على

---

(١) «خيره» .
(٢) «وأجدهم قربا» بالجيم فى الأول والقاف فى الثانى .
(٣) «وأعررهم سكنا» .
(٤) «تناخا» بالتاء .
(٥) «نفاخا» بالفاء ؛ وهو تصحيف . والنقاخ : الماء البارد العذب الصافى .

الآخِرِ وأنشَرُهم للباطن من الظاهر . وقرأتُ له :

« فإن رأى أن ينظر نَظَرَ راحم متعطِّف ، إلى نادم متلهِّف ؛ ويجعل العفوَ عن فَرْطَتِه وكفرانِه ، صدقةً عن بسطتِه وسلطانِه ؛ فأجدَرُ الناس بالاغتفار أقدَرُهم على الانتصار ؛ فَعَلَ — إن شاء الله تعالى — » .

وله مكاتَبات واسعة بينــه و بين رجل من أهل المراغة يقال له : محمد بن إبراهيم ، من أهل (سُرَّ مَنْ رأى) وفى الجملة ، الفضل فى الناس مبْثُوث ، وهم منه على جدود [١] ؛ والمرذول هو العارى من لَبُوسِه ، المتردِّد بين تخلّفه ونقصِه .

قال[٢] : فكيف يتمّ له ما هو فيه مع هذه الصفاتِ التى تذكرها ؟ قلتُ : والله لو أنّ عجوزا بَلْهاء ، أو أمةً وَرْهاء [٣] أقيمت مُقامه ، لكانتِ الأمور على هذا السياق . قال : وكيف ذاك ؟ قلتُ : قد أَمِن أن يُقال له : لِمَ فعلتَ ، ولِمَ لَمْ تفعل ؟ وهذا باب لا يتّفق لأحدٍ من خَدَم الملوك إلّا بجَدٍّ سعيد ، ولقد نُصِحَ صاحبُه الهَرَوِىُّ فى أموال تاوية [٤] ، وأمورٍ من النظر عارية ؛ فقَذَف بالرُّقعة إليــه حتى عَرَف ما فيها ، ثم قتل الرافعَ خنقا . هذا وهو يدين بالوعيد ، وله نظائر ، ولنظائره نظائر ، ولكن ليس له ناظر ، ولا فيه مُناظر . وقال لى الثقةُ من أصحابه : ربّما شَرَع فى أمر يُحكِم فيه بالخطأ فيقلبُه جَدُّه صوابا ، حتى كأنّه عن وحى ؛ وأسرار الله فى خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيّةٌ فى أستار الغيب ، لا يهتدى إليها ملَك مقرَّب ، ولا نبىّ مرسَل ، ولا ولىّ مهذَّب ؛ ولو جرت الأمور على موضوع

(١) الجدود : الحظوظ ، الواحد جد بالفتح .

(٢) قال ، أى الوزير ، والضمير فى « له » يعود على ابن عباد .

(٣) الورهاء : الحمقاء .

(٤) تاوية ، أى هالكة .

الرأى وقضيّة العقل ، لكان معلّما فى مصطبة على شارع ، أو فى دار ؛ فإنّه يخرّج الإنسان بتفيهُقِه وتشادُقِه ، وأستحقاره وأستكباره ، و إعادتِه وإبدائه ، وهذه أشكال تُعجب الصبيان ولا تنفّرهم من المعلّمين ، ويكون فرحُهم بها سببا للملازمة والحرصِ على التعلّم والحفظ والرواية والدراسة .

(٤) قال : هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيِّض الرسالة ؛ هات مُلْحةَ الوَداع . قلتُ : قال أبو العيناء : قال أبو دعلج : قال المهدىّ : بايع ؛ قلتُ : أبايعكم [علام ؟ قال[1]] : على ما بويع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم صِفّين . قال كريز أبو سيّار المسمعىّ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يدرك صِفّين ، إنما كانت صِفّين بين علىّ ومعاوية . فقال دوست بن رباط الفُقَيمىّ أبو شعيب : قد علم الأميرُ هذا ، ولكن أَحَبَّ التسهيل على الناس ، وأنصرفتُ .

الليلة السادسة

(١) ثم حضرتُه ليلةً أخرى فأول ما فاتحَ به المجلسَ أن قال: أتفضّل العرب على العجم أم العجم على العرب ؟

قلتُ : الأمم عند العلماء أربع : الروم ، والعرب ، وفارس ، والهند ؛ وثلاث من هؤلاء عجم ، وصَعْبٌ أن يقال : العرب وحدها أفضلُ من هؤلاء الثلاثة ، مع جوامع ما لَها ، وتفاريقِ ما عندها . قال: إنّما أريد بهذا الفُرْسَ . فقلتُ : قبل أن أحكم بشىء من تلقاء نفسى ، أروى كلاما لابن المقفّع ، وهو أصيلٌ فى الفُرْس عريق فى العجم ، مفضّل بين أهل الفضل ؛ وهو صاحب (اليتيمة) القائل :

(١) ما بين المربعين لم يرد بالأصل ؛ والسياق يقتضيه .

تركتُ أصحابَ الرسائل بعد هذا الكتاب فى ضحضاح من الكلام . قال : هات على بركة الله وعونه . قلتُ : قال شَبيبُ بن شَبّة : إنّا لوقوفٌ فى عرصة المِرْبَد — وهو مَوْقف الأشراف ومجتمع الناس وقد حضر أعيان المصر — إذ طلع أبن المقفّع ، فما فينا أحد إلاّ هَشَّ له ، وأرتاح إلى مُساءلته ، وسررنا بطلعته ؛ فقال : ما يَقِفُكم على مُتون دوابّكم فى هذا الموضع ؟ فوالله لو بعث الخليفةُ إلى أهل الأرض يبتغى مثلكم ما أصاب أحدا سواكم ، فهل لكم فى دار ابن برثن فى ظلّ ممدود ، وواقيةٍ من الشمس ، واستقبال من الشَّمال ، وترويحٍ للدّوابّ والغلمان ، ونتمهّد الأرض فإنّها خير بساط وأوطَؤه ، ويَسمع بعضنا من بعض فهو أمَدُّ للمجلس ، وأدَرُّ للحديث . فسارعنا إلى ذلك ، ونزلنا عن دوابنا فى دار ابن برثن نتنسّم الشَّمال ، إذ أقبل علينا أبن المقفّع ، فقال : أىّ الأمم أعقل ؟ فظننا أنه يريد الفُرْس ، فقلنا : فارسُ أعقل الأمم ، نقصد مقاربته ، ونتوخّى مصانعته . فقال : كلاّ ، ليس ذلك لها ولا فيها ، هم قوم عُلِّموا فتعلَّموا ، ومُثِّل لهم فامتثَلوا وأقتدوا [1] وبُدئوا بأمر فصاروا إلى أتّباعه ، ليس لهم أستنباط ولا أستخراج . فقلنا له : الرُّوم . فقال : ليس ذلك عندها ، بل لهم أبدانٌ وثيقة وهم أصحاب بناء [2] وهندسة ، لا يعرفون سواهما ، ولا يحسنون غيرَهما .

قلنا : فالصِّين . قال : أصحاب أثاثٍ وصنعة ، لا فكر لها ولا رويّة . قلنا : فالتُّرْك . قال : سِباع للهِراش . قلنا : فالهند . قال : أصحاب وهم ومخرقة [3] وشَعْبَذة وحيلة . قلنا : فالزِّنْجُ . قال : بهائمُ هاملة [4] . فرددنا الأمرَ إليه . قال : العَرَب .

(١) « وامتدوا » .

(٢) « بقاء » ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « الخرق » . والشعبذة والشعوذة : واحد ، وهى أُخَذ كالسحر ترى الشىء بغير ما عليه أصله فى رأى العين .

(٤) هاملة ، أى مهملة . وفى الأصل : « هائلة » .

فتلاحظنا وهمس بعضنا إلى بعض ، ففاظه ذلك منّا ، وامتُقِع لونُه ، ثم قال : كأنّكم تظنّون فىّ مقارَبتكم ، فوالله لوددتُ أنّ الأمر ليس لكم ولا فيكم ولكن كرهتُ [إنْ] فاتنى الأمر أن يفوتنى الصواب ، ولكن [لا[1]] أدعُكم حتى أبيّن لكم لِمَ قلت ذلك ، لأخرج من ظِنّة المداراة ، وتوهُّمِ المصانَعة ؛ إن العرب ليس لها أولٌ تؤمّه[2] ولا كتابٌ يدلّها ، أهلُ بلد قفْر ، ووحشةٍ من الإنس ، احتاج كلٌّ واحد منهم فى وَحدته إلى فكره ونظره وعقله ؛ وعلموا أنّ معاشهم من نبات الأرض فوَسَموا كلّ شىء بسِمَته ، ونسبوه إلى جنسه وعرَفوا مصلحة ذلك فى رَطبِه ويابسه ، وأوقاتِه وأزمنته ، وما يَصلُح منه فى الشاة والبعير ؛ ثم نظروا إلى الزمان واختلافِه فجعلوه ربيعيا وصيفيا ، وقَيْظيا وشتويا ؛ ثم علموا أنّ شربهم من السماء ، فوَضَعوا لذلك الأنْواء ؛ وعرفوا تغيّر الزمان فجعلوا له منازله من السنة ؛ واحتاجوا إلى الانتشار فى الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أدلّةً على أطراف الأرض وأقطارِها ، فسلكوا بها البلاد ؛ وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغّبهم فى الجميل ، ويَتجَنّبون به على الدناءة ويحضّهم على المكارم ؛ حتى إنّ الرجل منهم وهو فى فَجّ من الأرض يصف المكارمَ فما يُبقِى من نعتها شيئا ، ويُسرف فى ذمّ المَساوئ فلا يقصّر ؛ ليس لهم كلام إلّا وهم يُحاضّون به على اصطناع المعروف ثم حِفْظِ الجار وبَذْلِ المال وابتناء المَحامد ، كلّ واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته فلا يتعلّمون ولا يتأدّبون ، بل نَحائزُ[3] مؤدّبة ، وعقولٌ عارفة ؛ فلذلك قلت لكم :

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيها .

(٢) « كوكبه » ، وهو تحريف لا معنى له . وتؤمه ، أى تتوخاه وتقصده وتتبع ما يسنه لها .

(٣) النحائز : العادات والطبائع ، الواحدة نحيزة . وفى الأصل : « تجاير » وهو تحريف .

إنهم أعقل الأمم ، لصحّة الفطرة[١] واعتدال البِنيَة وصواب الفِكْر وذكاء الفهم .
هذا آخر الحديث

قَال[٢] : ما أحسن ما قَال ابن المقفّع ! وما أحسن ما قصصتَه وما أتيتَ به ! هات الآن ما عندك من مسموع ومستنبَط .

(٢) فقلتُ : إن كان ما قال هذا الرجل البارعُ فى أدبه المقدَّمُ بعقله كافيا فالزيادة عليه فضلٌ مستغنًى عنه ، وإعْقابُه بما هو مثله لا فائدة فيه .

فقال : حدّ[٣] الوصف فى التزيين والتقبيح مختلف الدلائل على ما يُعتقَد صوابُه وخطؤه ، متباين ؛ وهذه مسألة — أعنى تفضيل أمّة على أمّة — من أمهات ما تَدارَأ الناس عليه وتَدافَعوا فيه ؛ ولم يَرجعوا منذ تناقلوا الكلامَ فى هذا الباب إلى صلح متين واتفاق ظاهر . فقلتُ : بالواجب ما وقع هذا ، فإن الفارسىّ ليس فى فطرته ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربىّ ، ولا فى جبلّة[٤] العربى وديدنه أن يقرّ بفضل الفارسىّ . وكذلك الهندىّ والرومىّ والتركىّ والديلمىّ ؛ وبعد ، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين : أحدهما ما خص به قوم دون قوم فى أيام النشأة بالاختيار للجيّد والردىء ، والرأى الصائب والفائل ، والنظر فى الأوّل والآخر . وإذا وقف الأمرُ على هذا فلكلّ أمّة فضائلُ ورذائل ولكلّ قوم محاسنُ ومَساوٍ ، ولكلّ طائفة من الناس فى صناعتها وحَلّها وعقدها كمال وتقصير ؛ وهذا يَقضِى بأنّ الخيرات والفضائل والشرورَ والنقائص مُفاضَة على جميع الخَلْق ، مفضوضةٌ بين كلّهم .

(١) فى الأصل : « الفكرة » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه تعبيره الآتى فى صفحة ٧٦ سطر ١٥ .
(٢) قال ، أى الوزير .
(٣) « ما حد » و « ما » زيادة من الناسخ ، فان سياق الكلام الآتى بعد لا يقتضى الاستفهام .
(٤) « حيلة » .

فللفُرْس السياسة والآداب والحدود والرسوم؛ وللرُّوم العلم والحكمة؛ وللهند الفِكْر والرويّة والخفّة[١] والسِّحْر والأناة؛ وللتُّرْك الشجاعة والإقدام؛ وللزَّنج الصبر والكدّ والفرح؛ وللعرب النَّجْدة والقِرَى والوفاء والبلاء والجود والذِّمام والخَطابة والبيان.

ثم إنّ هذه الفضائل المذكورة، فى هذه الأمم المشهورة، ليست لكلّ واحد من أفرادها، بل هى الشائعة بينها؛ ثم فى جملتها[٢] مَن هو عارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعنى أنه لا تخلو الفُرْس من جاهل بالسياسة، خالٍ من الأدب، داخلٍ فى الرَّعاع والهَمَج؛ وكذلك العرب لا تخلو من جَبانٍ جاهلٍ طَيّاش بخيلٍ عيّ[٣] وكذلك الهند والرُّوم وغيرُهم؛ فعلى هذا إذا قو بل أهلُ الفضل والكمال من الرُّوم بأهل الفضل والكمال من الفُرْس، تلاقَوا على صراط مستقيم، ولم يكن بينهم تفاوُتٌ إلاّ فى مقادير الفضل وحدودِ الكمال، وتلك لا تخصّ[٤] بل تَلُمّ. وكذلك إذا قو بل أهلُ النقص والرذيلة من أمّة بأهل النقص والخساسة من أمّة أخرى، تلاقَوا على نَهْج واحد، ولم يقع بينهم [تفاوُت[٥]] إلاّ فى الأقدار والحدود؛ وتلك لا يُلتفَت إليها، ولا يعارُ[٦] عليها؛ فقد بان بهذا الكشف أنّ الأمم كلّها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفِطْرة، واختيار الفكرة. ولم يكن بعد ذلك إلاّ ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابيّة، والعادة المنشئيّة

(١) فى الأصل: «الفقة»، ولم نجد من معانيها ما يناسب السياق. ولعل صوابه ما أثبتنا. ويريد بالخفة: الشعوذة، فإنها خفة فى اليد. وقد سبق وصف الهنود بذلك.

(٢) «أجلتها».

(٣) «غبى».

(٤) فى الأصل: «يحصل بل تسلم» ومعنى الكلمتين لا يناسب السياق. ويريد أنها لا تخص أمة دون أمة، بل تجمع الأمم كلها.

(٥) موضع هذه الكلمة حروف مطموسة فى الأصل تتعذر قراءتها.

(٦) يعار: يعاب.

والهوى الغالب من النَّفْس الغضبيّة ، والنِّزاع الهائج من القوّة الشهويّة .

وهاهنا شيء آخَر ، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامُنا من الدلالة عليه والإيماء إليه .

[وهو أنّ[1]] كلّ أمّة لها زمان على ضدها[2] ، وهذا بيّن مكشوف إذا أرسلت وهمك فى دولة يونان والإسكندر ، لمّا غَلَبَ وساس ومَلَكَ ورأس وفتَق ورَتَق ورَسَم ودَبّر وأمر ، وحَثّ وزجر ، ومحا وسطّر ، وفعل وأخبر ؛ وكذلك إذا عطفت إلى حديث كسرى أنو شروَانَ وجدت هذه الأحوال بأعيانها ، وإن كانت فى غُلْف غيرِ غُلْف الأوّل ، ومَعارِضَ غير مَعارض المتقدّم ؛ ولهذا قال أبو مسلم صاحبُ الدولة حين قيل له : أى الناس وجدتَهم أشجع ؟ فقال : كل قوم فى إقبال دولتِهم شجعان . وقد صدق ؛ وعلى هذا كلّ أمّة فى مبدإ سعادتها أفضلُ وأنجدُ وأشجعُ وأمجدُ وأسخى وأجوَدُ وأخطَبُ وأنطَقُ وأرْأى وأصدَق ؛ وهـذا الاعتبار ينساق من شىء عامّ لجميع الأمم ، إلى شىء شاملٍ لأمّة أمة إلى شىء حاوٍ لطائفةٍ طائفة ، إلى شىء غالبٍ على قبيلةٍ قبيلة ، إلى شىء معتادٍ فى بيتٍ بيت ، إلى شىء خاصّ بشخصٍ شخص وإنسانٍ إنسان ؛ وهذا التحوّل من أمّة إلى أمّة ، يشير[3] إلى فيض جود الله تعالى على[4] جميع بريّته وخليقتِه بحسب استجابتهم لقبوله ، واستمدادهم على تطاول الدهر فى نيل ذلك من فضله ومن رَقِىَ إلى هذه الرَّبْوة بعين لا قَذًى بها ، أبصر الحقّ عِيانا بلا مِرْية ، وأخبر

---

(١) هذه التكملة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٢) ضدها ، أى لها زمان تكون لها فيه الدولة والغلبة على عدوها . وفى الأصل : « ضد هذا » وقوله : « ذا » زيادة من الناسخ كما يدل عليه سياق الكلام الآتى .

(٣) « وهو يشير » . والظاهر أن قوله « وهو » زيادة من الناسخ .

(٤) « إلى » .

عنه بلا [فرية[١]] ؛ ومتى صدق نظرك فى مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كلّه كالنهار إذا متَع[٢] ، وأستنار كالقمر إذا طلع ؛ ولم يَبق حينئذ ريب فى عرفان الحقّ وحصولِ الصواب ، إلاّ ما يَلْتاث بالهوى ، ويَسْمُج بالتعصّب ، ويَجلِب اللَّجاج ، ويخرج إلى المَحْك[٣] ؛ فهنالك يطيحُ[٤] المعنى ويضلّ المراد ، فإذا آثرت أن تعرف صحة هـذا الحكم وصوابَ هذا الرأى ، فاسمع ما أرويه : قال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ : انصرف العبّاس بن مِرْدَاس السُّلَمىُّ من مكّة فقال : « يا بنى سُلَيم ، إنى رأيت أمرا ، وسيكون خيرا ، رأيتُ بنى عبد المطلب كأنّ قُدودَهم الرِّماح الرُّدَيْنيّة[٥] ، وكأن وجوهَهم بدورُ الدُّجُنّة وكأن عمائمَهم فوق الرجال ألوية ، وكأنّ مَنطقَهم مطرُ الوَبْل على المَحْل ؛ وإن الله إذا أراد ثمراً[٦] غرَس له غَرْسا ، وإنّ أولئك غَرْسُ الله ؛ فترقّبوا ثمرتَه وَتَوَكّفوا[٧] غيْثه ، وتفيّئوا ظِلالَه، واستبشروا بنعمة الله عليكم به » . ولقد قرَع العبّاس بهذا الكلام باب الغيب ، وشَعَر بالمستور ، وأحَسّ بالخافى ، وأطْلع عقلَه على المستتر ، وأهتدى بلطف هاجِسِه إلى الأمر المُزْمَع ، والحادثِ المتوقَّع ؛ وهذا شيء فاشٍ فى العرب ، لطول وحْدَتها ، وصفاء فكرتها ، وجَوْدةِ بِنْيَتِها وأعتدالِ هيئتها ، وصحّةِ فِطْرَتِها ، وخَلاء ذَرْعِها ، وأتّقادِ طبعِها ، وسَعَةِ لغتها وتصاريفِ كلامِها فى أسمائها وأفعالها وحروفها ، وجَوَلانِها فى اشتقاقاتها ، ومآخذِها

(١) هنا كلمة مطموسة الحروف فى الأصل تتعذر قراءتها . واستقامة الكلام تقتضى ما أثبتنا أو ما يفيد هذا المعنى .

(٢) متع النهار : ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال .

(٣) المحك : للنازعة والتمادى فى اللجاج .

(٤) « يطبخ » .

(٥) الرماح الردينية : نسبة الى ردينة ، وهى امرأة من العرب كانت تقوم الرماح .

(٦) « أمرا » .

(٧) الحرفان الأولان من هذه الكلمة فى الأصل مطموسان تتعذر قراءتهما ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . ومعنى « توكفوا غيثه » ارتقبوه وانتظروه .

البديعةِ في أستعاراتها ، وغرائبِ تصرّفها في أختصاراتها ، ولطفِ كناياتها في مقابلة تصريحاتها ، وفنون تبحبُحِها[١] في أكناف مقاصدها ، وعجيب مقاربتها[٢] في حركات لفظها ؛ وهذا وأضعافه مسلَّمٌ لهم ، وموفَّرٌ عليهم ، ومعروفٌ فيهم ومنسوبٌ إليهم ، مع الشجاعة والنَّجدة والذِّمام[٣] والضِّيافة والفِطْنة والخَطابة والحَمِيّة والأَنَفة والحِفاظ والوفاء ، والبذل والسَّخاء ، والتَّهالُك في حب الثناء والنَّكَل[٤] الشديد عن الذم والهجاء ؛ إلى غير ذلك ممّا خُصّت به في جاهليتها قبل الإسلام ، ممّا لا سبيل إلى دفعه وجحوده ، والبُهْتِ فيه ، والمكابرة عليه ؛ وقد سمعنا لغاتٍ كثيرةً — وإن لم نستوعبها — من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخُوارَزم وصِقْلاب وأندلس والزَّنج ، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوعَ[٥] العربيّة ، أعني الفُرَج التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجده بين حروفها ، والمسافةَ التي بين مخارجها ، والمعادَلة التي نذوقها في أمثلتها ، والمساواةَ التي لا تُجحَد في أبنيتها ؛ وإذا شئتَ أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحّة هذا الحكم ، فألحظ عرض[٦] اللّغات الّذي هو بين أشدّها تلابسا وتداخُلا ، وترادُفا وتعاظُلا[٧] وتعسُّرا وتعوُّصا[٨] ، وإلى ما بعدها ممّا هو أسلس حروفا ، وأرقّ

(١) تبحبحها ، أي اتساعها .

(٢) « مقاربها » .

(٣) « والتمام » .

(٤) النكل بالتحريك : لغة في النكول ، أي النكوص عن الشيء والتنحي عنه .

(٥) وردت هذه الكلمة في الأصل مطموسة الحرفين الأولين ، ولم يظهر منها غير الواو والعين .

(٦) « غرض » .

(٧) تعاظل الكلام : تراكبه وتوالي بعضه فوق بعض . وكان زهير لا يعاظل بين الكلام أي لا يكرره .

(٨) في الأصل : « وتقوضا » بالقاف والضاد ؛ ولم نجد من معاني التقوض ما يناسب السياق ، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه عطفه على التعسر ، إذ مؤدى الكلمتين واحد .

لفظا ، وأخفُّ اسما ؛ وألطفُ أوزانا(١) ، وأحضَرُ(٢) عِيانا ؛ وأحلى مَخرَجا وأجلى منهجا(٣) وأعلى(٤) مَدرَجا ؛ وأعدلُ عَدلا ، وأوضحُ فضلا ، وأصحّ وصلا إلى أن تنزِل(٥) إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهى إلى العربية ، فإنَّك تحكم بأن المبدأ الذى أشرنا إليه فى العوائص والأغماض ، سَرَى(٦) قليلا قليلا حتى وقف على العربية فى الإفصاح والإيماض .

وهذا شىء يجده(٧) كلّ من كان صحيحَ البِنية ، بريئا من الآفة ، متنزّها عن الهوى والعصبيَّة ، محبا للإنصاف فى الخُصومة(٨) ، متحرّيا للحقّ فى الحكومة ، غير مسترقّ(٩) بالتقليد ، ولا مخدوع بالإلف ، ولا مسخّر(١٠) بالعادة ، وإنّى لأعجب كثيرا ممّن يرجع إلى فضل واسع ، وعلمٍ جامع ؛ وعقل سديد ، وأدب كثير ، إذا أبى هذا الذى وصفتُه ، وأنكر ما ذكرتُه ؛ وأعجب

(٢) أيضاً فضلَ عجبٍ من الجَيْهانىّ(١١) فى كتابه وهو يسبّ العرب ، ويتناول

(١) « أوراقا » .

(٢) فى الأصل : « وأخطر » ومعناه لا يناسب السياق . ويريد بقوله : أحضر عيانا : أنها شديدة الظهور .

(٣) « منهجكم » .

(٤) « ولعلا » .

(٥) « تترك » .

(٦) « سترى » ؛ والتاء زيادة من الناسخ .

(٧) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل غير الدال والهاء . وسياق الكلام يقتضى إثباتها على هذا الوجه .

(٨) « الخصوصية » .

(٩) فى الأصل : « مستفرغا » . ولعل صوابه ما أثبتنا .

(١٠) « مستخزنا » .

(١١) الجيهانى : نسبة إلى جَيْهان مدينة بخراسان . وقدشهر بهذه النسبة اثنان : أحدهما أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر وزير السامانية ببخارى ، كان أديباً فاضلا له من الكتب كتاب آيين نامه وكتب أخرى ؛ وجيهانى آخر اسمه محمد بن أحمد كان كذلك وزيرا للسامانيين . =

أعراضَها ويحطّ من أقدارها ، ويقول : يأكلون اليرابيع والضِّباب والجُرْذان والحيَّات ويتعاورون (١) ويتساورون ، وَيتهاجَون ويتفاحشون ، وكأنّهم قد سُلخوا من فضائل البَشَر ، ولبسوا أُهُبَ الخنازير . قال : ولهذا كان كسرى يسمِّى ملِك العرب : « سَكَان شاه » ، أى ملِك الكلاب . قال : وهـذا (٢) لشدّة شبههم بالكلاب وجِرائها ، والذئاب وأطْلائها (٣) وكلاما كثيرا من هذا الصَّوب أرفع قدره عن مِثله ، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله . أتراه لا يعلم لو نزل (٤) ذلك القفرَ وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوى وتلك الفَيافىَ والمَوامىَ ، كلُّ كسرى كان فى الفُرس ، وكلُّ قيصرَ كان فى الروم ، وكلُّ بَلْهوَرَ (٥) كان بالهند ، وكلُّ يقفورَ كان بخراسان ، وكلُّ خاقانَ كان بالتُّرك وكلُّ أخشادَ (٦) كان بفَرْغانة وكلُّ صَبَهْبُذ (٧) كان من أسكنانَ (٨) وأَرْدُوان

= قال فيه ياقوت : كان أديبا فاضلا شهما جسورا . وقد ترجم لكليهما ياقوت . وقال ابن النديم فى الأخير : إنه من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ويصنفون فى نصرة الأثينية . والظاهر أن الأخير هو المراد هنا .

(١) يتعاورون ، أى يذكر بعضهم عورة بعض .

(٢) « ولهذا » ؛ واللام زيادة من الناسخ .

(٣) أطلاؤها : أولادها .

(٤) فى الأصل : « كوثر » وبعد الراء حرف مطموس يشبه أن يكون « لاما » .

(٥) بلهور: لقب لكل عظيم من ملوك الهند ، مثل به سيبويه فى كتابه ، وفسره السيرافى .

(٦) أخشاد وأخشيد لقب كان لملوك فرغانة ، ولهذا لقب الرضى بالله العباسى محمد بن طغج صاحب مصر والشام بالأخشيد ، لأنه كان فرغانيا . وفرغانة مدينة وكورة واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان .

(٧) فى الأصل : « شبه » بالشين ؛ وفيه تحريف ونقص حرفين إذ لم نجده بالمعنى المناسب فيما راجعناه من معجمات اللغتين العربية والفارسية ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، فقد ورد فى شفاء الغليل أن صبهبذ معناه الأمير ؛ وهو معرب ورد فى شعر جرير . وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة أن سپهبد بالفارسية معناه قائد العسكر وهو مركب من كلمتين « سپه » أى عسكر و « بد » أى صاحب .

(٨) لعله « أشكيشان » كما فى معجم البلدان ، وهى من قرى أصبهان . وأردوان : ويقال فيه : أردوال ، بلدة صغيرة بين واسط والجبل وبلاد خوزستان .

ما كانوا يَعْدُون هذه الأحوال لأنّ من جاعَ أكل ما وجد ، وَطعِم ما لَحِق[١] ، وَشَرِب ما قَدَر عليه ، حبّاللحياة ، وطلباً للبقاء ، وجزعا من الموت ، وهَرَبا من الفَناء . أترى أنو شروان إذا وقع إلى فيافى بنى أسد وَبَرّ (وَبار[٢]) وسُفوحِ طِيبة[٣] ، ورَملِ يَبْرِين وساحةِ هَبير[٤] ، وجاع وعَطِش وعَرِىَ ، أما كان يأكل اليَرْبوعَ والجُرْذان ؛ وما كان يَشرب بَوْلَ الجمل وماء البئر ، وما أسَنَ فى تلك الوَهَدات ؟ أو ما كان يلبس البُرْجُدَ[٥] والخَمِيصة[٦] وَالسَّمِلَ[٧] من الثياب وَما هو دونه وَأخشَن ؟ بلى وَالله ، وَيأكل حشراتِ الأرض وَنباتَ الجبال ، وَكلّ ما حَمض وَمَرّ ، وخَبُث وضَرّ ، هذا جَهْلٌ من قائله ، وحَيْفٌ مِن منتحِله ؛ على أن العرب — رحمك الله — أحسنُ الناس حالا وعيشا إذا جادتهم السماء ، وصدقَتْهم الأنْواء[٨] ؛ وازدانت الأرض ، فهُدِّلت الثمار ، وأُطّردت الأودية ، وكثر اللّبَن والأقِط[٩] والجُبن واللّحم والرُّطَب والتّمر والقمح ، وقامت لهم الأسواق ، وطابت

(١) « بالحق » .

(٢) وبار : أرض واسعة ببلاد اليمن زهاء ثلثمائة فرسخ فى مثلها ، وهى ما بين الشحر إلى تخوم صنعاء .

(٣) طيبة : بلدة عند زرود . ويريد سفوح الجبال التى هناك .

(٤) الهبير : رمل قرب زرود بطريق مكة . وفى الأصل : « هيبر » بتقديم الياء على الباء ولم نجده فيما راجعناه من الكتب .

(٥) البرجد : كساء غليظ من صوف أحمر . وقال بعضهم : هو كساء ضخم مخطط يصلح للخباء وغيره .

(٦) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

(٧) السمل من الثياب : الخلق البالى .

(٨) الأنواء : الأمطار ؛ الواحد نوء . وأصل النوء سقوط نجم فى المغرب وطلوع نجم بحياله من ساعته فى المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى هذه الأنواء .

(٩) الأقط : شىء يتخذ من المخيض الغنمى يطبخ ثم يترك حتى يمصل . وقيل : من اللبن الحليب .

المرَابع وفشا الخِصْب ، وتَوَالَى النِّتاج ، واُتّصلت المِيرة ، وصدق المصاب[(١)] وأرْفَغ[(٢)] المنتجع ، وتلاقت القبائل على المَحاضر[(٣)] ، وتقَاوَلوا[(٤)] وتضايفوا ، وتعاقدوا وتعاهدوا ، وتزاوروا وتناشدوا ؛ وعقدوا الذّمَم ، ونطقوا بالحِكَم ؛ وقرَوا الطُّرّاق ووَصَلوا العُفاة ، وزَوّدوا السابلة ، وأرشَدوا الضُّلاّل ، وقاموا بالحَمالات[(٥)] وفَكّوا الأسْرَى ، وتداعَوا[(٦)] الجَفَلى ، وتعافَوا النَّقَرى ، وتنافَسوا فى أفعال المعروف ؛ هذا وهم فى مساقط رءوسهم ، بين جبالهم ورمالهم ، ومناشئ آبائهم وأجدادهم ، ومَوالدِ أهلهم وأولادهم ، على جاهليّتهم الأولى والثانية ، وقد رأيتَ حين هبّت ريحُهم وأشرقتْ دولتهم بالدعوة ، واُنتشرت دعوتهم بالملّة ، وعزّت ملّتهم بالنبوّة ، وغَلبتْ نبوّتهم بالشريعة ، ورسختْ شريعتهم بالخلافة ، ونُضّرتْ خلافتهم بالسياسة الدينيّة والدّنيويّة ، كيف تحوّلتْ جميع محاسن الأمم إليهم وكيف وقعَتْ فضائل الأجيال عليهم من غيرِ أن طلبوها وكَدَحوا[(٧)] فى حيازتها أو تعِبوا فى نَيلها ، بل جاءتهم[(٨)] هذه المناقبُ والمَفاخر ، وهذه النوادرُ من المآثر عفوا[(٩)] ، وقَطَنتْ بين أطناب بيوتهم سَهوا رَهْوا[(١٠)] ؛ وهكذا يكون كلُّ شيء

(١) المصاب : المقصد . يريد المكان الذى يقصدونه للانتجاع ، من صاب يصوب إذا قصد .
(٢) أرفغ له المعاش : وسّعه .
(٣) المحاضر : المناهل ، لحضور القبائل واجتماعها عليها ، الواحد محضر بفتح الميم والضاد .
(٤) « وتنازلوا » بالنين والزاى ؛ وهو تصحيف .
(٥) الحمالات بفتح الحاء : الديات والغرامات يحملها قوم عن قوم .
(٦) تداعوا الجفلى ، أى دعا بعضهم بعضا إلى الطعام دعوة عامة لا تخصيص فيها . والنقرى : الدعوة الخاصة ، قال طرفة : (نحن فى المشتاة ندعو الجفلى * لا ترى الآدب فينا ينتقر) وتعافوا أى كرهوا ، من عاف الشىء يعافه .
(٧) « وقدحوا » بالقاف .
(٨) « جلتهم » .
(٩) « حقوا » ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .
(١٠) سهوا رهوا ، أى عفوا بلا مشقة . يقال : أتاه هذا الأمر سهوا رهوا ، أى فى سهولة ورفق .

تولاه الله بتوفيقه ، وساقه إلى أهله بتأييده ، وحلّى مستحقّيه باختياره ؛ ولا غالب لأمر الله ، ولا مبدّل لحكم الله ، ولذلك قال الله تعالى : (قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) . ولله فى خَلْقه أسرار ، تتصرّف بها دوائرُ الليل والنهار ، وتُذلّلها مجارى الأقدار ، حتى يُنتهَى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار .

عَزّ إلها معبودا ، وجَلّ ربّا محمودا مقصودا . وبعد ، فالّذى لا شكّ فيه من وصف العرَب ، ولا جاحدَ له من حالها ، أنه ليسَ على وجه الأرض جيلٌ من الناس ينزلون القفْر ، وينتجعون السحابَ والقَطْر ؛ ويعالجون الإبلَ والخيل والنعم وغيرَها ، ويستبدّون فى مصالحهم بكلّ ما عزّ وهان ، وبكلّ ما قلّ وكَثُر ، وبكل ما سَهُل وعَسُر ؛ ويرجون الخير من السماء فى صَوْبها[1] ، ومن الأرض فى نباتها ؛ مع مراعاة الأوان بعد الأوان ، وثقةً بالحال بعد الحال وتبصرةً فيما يُفْعَل ويُجتنَب ؛ ما للعرب فيما قدّمْنا وصفَه ، وكرّرنا شرحَه من علمهم بالخِصْب والجَدْب ، واللّين والقسوة ، والحرّ والبَرْد ، والرياح المختلفة والسحائبِ الكاذبة ، والمَخايلِ الصادقة ، والأنواءِ المحمودةِ والمذمومة ، والأسبابِ الغريبةِ العجيبة .

وهذا لأنّهم مع توحُّشهم مستأنسون ، وفى بواديهم حاضرون ، فقد أجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسنُ العادات ، ومن أخلاق البادية أطهرُ الأخلاق .

وهذا المعنى على هذا النَّظْم قد عدمه أصحاب المُدُن وأربابُ الحَضَر ، لأن الدناءة والرِّقّة والكَيْس والهَيْنَ والخَلابةَ والخداعَ والحيلة والمكر والخِبّ تغلّب

(١) « صوتها » بالتاء ؛ وهو تصحيف .

على هؤلاء وتَملِكهم ، لأن مدارَ أمرهم على المعاملات السيّئة ، والكذب فى الحِس[1] ، والخلفِ فى الوعد .

(٤) والعَرَب قد قدّسها الله عن هذا الباب بأسره ، وجَبَلها على أشرف الأخلاق بقدرته ؛ ولهذا تجد أحدهم وهو فى بَتٍّ[2] حافيا حاسرا يذكر الكرم ، ويفتخر بالمحمدة ، وينتحل النّجدة ، ويحتمل الكَلَّ[3] ، ويضحك فى وجه الضيف ويستقبله بالبِشر ، ويقول : * أحدّثه إن الحديث من القِرى * ثمّ لا يقنع ببثّ العُرف وفعلِ الخير والصبرِ على النوائب حتى يَحُضَّ الصغير والكبير على ذلك ويدعوَ إليه ، ويستنهضه نحوَه ، ويكلّفه مجهودَه وعفوَه .

وقد قيل لرجل منهم فى يوم شاتٍ وهو يمشى فى سَمِلٍ[4] : أما تجد البَرْدَ يا أخا العرب ؟ فقال : أمشى الخَيْزَلَى[5] ويكفينى حَسَبى . والفارسىُّ لا يُحسِن هذا النّمط ، ولا يذوق هذا المعنى ولا يَحلُم بهذه اللّطيفة ؛ وكذلك الرومىُّ والهندىُّ وغيرُهما من جميع العَجَم .

(٥) وممّا يدلّ على تحضُّرهم فى باديتهم ، وتبدّيهم فى تحضُّرهم ، وتَحلّيهم بأشرف أحوال الأمرين ، أسواقهم التى لهم فى الجاهليّة ، مثل دُومَة[6] الجَنْدَل بقُرى

---

(١) فى الأصل : « الحسة » والتاء زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : « بيت » والياء زيادة من الناسخ . والبت : كساء غليظ من صوف أو وبر .

(٣) الكل : الضعيف ؛ يقال هو يحمل الكل ، أى يعون الضعفاء الذين لا يستطيعون الكسب ويقوم بأمرهم .

(٤) السمل من الثياب : الخلق البالى .

(٥) « الحترلى » وهو تصحيف . والخيزلى : مشية فيها تثاقل وانفكاك ، كالخوزلى .

(٦) دومة الجندل : حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلى طئ وبينها وبين دمشق سبع مراحل ، وكانت منازل لكنانة من كلب .

كلب[١] وهى النصف بين العراق والشأم ، كان ينزلها الناسُ أوّل يوم من شهر ربيع الأول ، فيقيمون أسواقَهم بالبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ؛ وكان يعشِّرهم أُكَيْدِر[٢] دُومة ، وربمـا غَلَبَتْ على السوق كلب فيعشِّرهم[٣] بعضُ رؤساء كلب ؛ فيقوم سُوقُهم إلى آخر الشهر ، ثم ينتقلون إلى سُوق هَجَر[٤] ، وهو المُشَقَّر[٥] في شهر ربيع[٦] الآخِر ، فتقوم أسواقهم ؛ وكان يعشِّرهم المنذر بن ساوَى أحدُ بنى عبد الله بن دَارِم ، ثم يرتحلون نحو عُمان[٧] ، فتقوم سوقهم بديار دَبا[٨] ، ثم بصحار[٩] ، ثمّ يرتحلون فينزلون إرَم[١٠] ، وقرى الشِّحر[١١] فتقوم أسواقهم أيّاما ، ثم يرتحلون فينزلون عَدَن أَبْيَنَ ، ومن سوق عَدَنَ تُشتَرى اللطائم[١٢] وأنواعُ الطِّيب ، ولم يكن فى الأرض أكثر طِيبا ، ولا أحذق صنّاعا للطِّيب مِن عَدَن ؛ ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت ، ومنهم من

(١) فى الأصل : « كليب » والياء زيادة من الناسخ .
(٢) أكيدر ، هو صاحب دومة الجندل .
(٣) يعشرهم ، أى يأخذ منهم العشر .
(٤) مدينة هجر : قاعدة البحرين . وقيل : ناحية البحرين كلها هجر . قال ياقوت : وهو الصواب .
(٥) المشقر : حصن بالبحرين قديم كان لعبد القيس يلى حصنا لهم آخر يقال له : الصفا قبل مدينة هجر .
(٦) ذكر صاحب بلوغ الأرب أن هذه السوق كانت تقوم فى أول يوم من جمادى الآخرة .
(٧) عمان : كورة عربية على ساحل البحر ، وهى فى شرقى هجر .
(٨) فى الأصل : « بدها » وهو تحريف . قال ياقوت : « دبا سوق من أسواق العرب بعمان ، وهى مدينة قديمة مشهورة لها ذكر فى أيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكانت قديمة قصبة عمان » .
(٩) صحار : بلدة بعمان كانت فيا مضى قصبة هذه الكورة ، وهى على البحر وتلى الجبل .
(١٠) إرم : فلاة قرب عدن كما فى كتاب صفة جزيرة العرب .
(١١) الشحر : صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعمان .
(١٢) اللطائم : نوافج المسك ، أى سرره ، الواحد لطيمة .

يجوزها ويَرِد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها ، ومنها كانت تُجلَب آلة الخَرز والأَدَم والبُرود ، وكانت تُجلَب إليها من معافر[١] ، وهى مَعدِن البرُود والحِبَر[٢] ثم يرتحلون إلى عُكاظ وذى المجاز فى الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ، فيتناشدون ويتحاجّون ويتحادّون ، ومن له أسير يسعى فى فدائه ، ومن له حكومة ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة من بنى تميم ، وكان آخرهم الأقرع بن حابس ؛ ثم يقفون بعرفة ، ويقضون ما عليهم من مناسكهم ؛ ثم يتوجهون إلى أوطانهم .

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة ، فيحضرها مَن قَرُب من العرَب ومَن بَعُد . هذا حديثهم ، وهم هَمَل لا عزّ لهم إلا بالسؤدد ، ولا مَعقِل لهم إلاّ السّيف ، ولا حصون إلاّ الخيل ، ولا فخر إلاّ بالبلاغة .

(٦) ثم لمّا ملكوا الدُّور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقِلاع والمُدُن والبلدان والسهل والجبل والبرّ والبحر ، لم يقعدوا عن شأْوِ[٣] من تقدّم بآلاف سنين ، ولم يَعجزوا عن شىء كان لهم ؛ بل أَبَرُّوا عليهم وزادوا ، وأغربوا وأفادوا ؛ وهذا الحُكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ؛ ليس إلى مردّه سبيل ولا لجاحده[٤] ومنكِرِه دليل .

فليستحْيِ الجيهانى[٥] بعد هذا البيان والكشف والإيضاح ، بالإنصاف من القَذَع والسَّفَه اللّذين حَشا بهما كتابه ، وليرفع نفسه عما يَشين العقل ، ولا تقبله حُكّام العدل ؛ وصاحب العِلم الرصين ، والأدبِ المكين ؛ لا يسلّط

(١) فى الأصل : « معافير » والياء زيادة من الناسخ . ومعافر : مخلاف باليمن تنسب إليه الثياب المعافرية .

(٢) فى الأصل : « والحبر » ؛ وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه الكلمة فى الأصل هكذا : شا « و » والصواب ما أثبتنا .

(٤) « مجاحدة » ؛ وهو تحريف

(٥) فى الأصل : « الجانى » .

خصمَه على عِرضه بلسانه ، ولا يستدعى مُرّ الجواب بتعرضه ويَرضَى بالميسور فى غالب أمره ؛ فإنّ العصبيّة فى الحق ربّما خذلتْ صاحبها وأسلمتْه ؛ وأبدت عورتَه ، واجتلبت مساءته[1] ؛ فكيف إذا كانت فى الباطل ونعوذ بالله أن نكون لفضل أمّة من الأمم جاحدين ، كما نعوذ به أن نكون بنقص أمّة من الأمم جاهلين . فإنّ جاحد الحقّ يدلّ من نفسه على مهانة ، وجاهل النقص يدل من نفسه على قصور ؛ فهذا هذا ؛ وفى الجملة المسلّمة ، والدعوة المُرسَلة ، أنّ أهل البَرّ وأصحابَ الصّحارى الذين وِطاؤهم الأرض ، وغِطاؤهم السماء ، هم فى العدد أكثر وعلى بَسيط الأرض أجوَل ، ومن الترفُّه والرفاهية أبعَد ، وبالحول والقوّة أعلَق وإلى الفكرة والفطنة أفزَع[2] ، وعلى المصالح والمنافع أوقَع ، ومن المَخازى آنَف والقبائح أعْيَف ؛ وهذا للدّواعى الظاهرة ، والحاجات[3] الضروريّة ، والملائق الحاضّة[4] على الألفة والمودّة ، والشدائد المؤذية ، والعوارض اللّازبة[5] ؛ ولهذا يقال : عيبُ الغِنى أنّه يورث البلادة ، وفضيلة الفقر أنّه يبعث الحيلة ؛ وهذا معنًى كريم ، لا يُقرُّ به إلاّ كلُّ نَقّاب عليم .

(٧) وقال الجيهانىُّ أيضا : ممّا يدل على شرفنا وتقدُّمنا وعزّنا وعلوِّ مكاننا ، أنّ الله أفاض علينا النّعَم ، ووسّع لدينا القِسَم وبوّأنا الجِنانَ والأرياف ، ونعّمنا وأترَفَنا . ولم يَفعل هذا بالعرَب ، بل أشقاهم[6] وعذّبهم ، وضيّق عليهم وحرَمَهم ،

(١) « ماته » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « أفرع » .

(٣) فى الأصل : « وإلى الحاجات » وقوله « إلى » زيادة من الناسخ .

(٤) فى الأصل : « الحاضرة » والراء زيادة من الناسخ .

(٥) اللازبة ، أى الثابتة الشديدة .

(٦) « سقاهم » .

وجَمَعَهم فى جزيرة حَرِجة ، ورُقْعة صغيرة ، وسقام[1] بأرنَقَ ضاحٍ ؛ وبهذا يُعلَمَ أنّ المخصوص بالنعمة والمقصودَ بالكرامة فوق المقصود بالإهانة .

فأطال هذا البابَ بما ظَنّ أنّه قد ظَفِر بشىء لا جواب عنه ، ولا مقابل له ؛ ولو كان الأمر كما قال لما خفى على غيره وتجلَّى له ، بل قد خصت العرب بعد هذا بأشياء تطول حَسْرةُ[2] من فاتته عليها ، ولا يفيد ألتفاتُه بالغيظ إليها ؛ وقد دلّ كلامُه على أنّه جاهل بالنعمة ، غافلٌ عمّا هو سرُّ الحكمة .

وعنده أنّ الجاهل إذا لبس الثوب الناعم ، وأكل الخبزَ الحُوّارَى[3] ورَكِب الجواد ، وتقلّب على الحَشِيّة ، وشَرِب الرحيق ، وباشَرَ الحسناء ، هو أشرف من العالِم إذا لبس الأطمار ، وطَعِم العُشْب ، وشَرِب الماء القَراح ، وتَوَسَّد الأرض ، وقنع باليسير ورخِىّ العيش ، وسلا عن الفُضول ؛ هذا خطأ من الرأى ، ومردود من الحُكم ، عند الله تعالى أوّلا ، ثم عند جميع أهل الفضل والحِجا ، وأصحابِ التّقى والنُّهَى ؛ وعلى طريقته أيضا أن البصيرَ أشرفُ من الأعمى ، والغنىّ أفضل من الفقير .

ألا يَعلم أنّ المدار على العقل الّذى مَن حُرِمه فهو أنقص من كلّ فقير ، وعلى الدِّين الذى من عَرِىَ منه فهو أسوأ حالاً من كلّ موسر ؛ ونعمة الله على ضربين : أحد الضربين عمّ به عبادَه ، وغمر بفضله خليقتَه ، بَدْءا بلا أستحقاق وذلك أنّه خَلَق ورَزَق وكفل وحفظ ونَعَش وكلأ وحرس وأمهَل وأفضل ووَهَب وأجزل ؛ وهذا هو العدل المخلوطُ بالإحسان ، والتسويةُ المعمومة بالتفضّل

(١) وردت هذه الكلمة فى الأصل ساقطا منها الحرف الأخير ، وهو القاف ، وأرنق ، أى أكدر من رنق الماء من باب نصر وفرح إذا كدر . وضاح ، أى متعرض للشمس .

(٢) « حره » .

(٣) الحوارى : لباب الدقيق وخالصه .

والقدرةُ المشتملةُ على الحكمة ؛ والضرب الثانى هو ألذى يُستحَقّ بالعمل والأجتهاد والسعى والأرتياد ، والأختبار والأعتقاد ؛ ليكون جزاء وثَوابا ، ولهذا حَرَم العاصىَ المخالِف ، وأنال الطائعَ الموافق ؛ فقد بان الآن أنّ المدار ليس بالجِنان والترفُّه ، ولا بالذهب والفضّة ، ولا الوَبَرِ والمَدَر .

وقد مرّ[1] هذا الكلام كلّه فليَسكُن من الجَيهانىّ جأشُه ، وليفارقْه طيشُه ؛ وليعلمْ أنّ من أنصف أعطَى بيده ، وسلّمَ الفضلَ لأهله ؛ فإنّ التواضع للحقّ رفعة والترفع بالباطل ضَعة[2] .

(٨) وهٰهنا بقيّة ينبغى أن يُتبصَّر فيها ؛ من عَرَف النقص البحت ، والنقصَ المشوبَ بالزيادة ؛ والفضلَ الصِّرف ، والفضلَ الممزوجَ بالنقيصة لم يَجحد بالهوى المُغوِى فضلاً ، ولم يَدّعِ للعصبيّة المُرْدِيةِ شرفاً ، ولم يُنكِر بالحسد مزيّة ؛ والخَلْق كلُّهم فى نعم الله تعالى مشتركون ، وفى أياديه مغموسون و بمواهبه متفاضلون ، وعلى قدرته متصرّفون ؛ وإلى مشيئته صائرون ، وعن حكمته مخبِرون ، ولآلائه ذاكرون ، ولنَعْمائه شاكرون ، ولأياديه ناشرون ، وعلى أختلاف قضائه صابرون ، ولثوابه بالحسنات مستحقّون ، ولعقابه بالسّيئات مستوجبون ، ولعفوه برحمته منتظرون ، والله خبيرٌ بما يعملون ، و بصير بما يُسِرّون وما يُعلِنون مع الجماعة ، وأبو سليمان يقول : العَرَب[3] أذهَبُ مع صفو العقل ؛ ولذلك هم[4] بذكر المحاسن أبْدَه ، وعن أضدادها أنْزَه . ولو كانت رَوِيّتُهم فى وزنِ بديهتهم ، كان الكمال ؛ ولكن لمّا عزّ الكمالُ فيهم ، عَزّ

(١) « وقدم » .
(٢) « صنعة » .
(٣) « كقرب » .
(٤) فى الأصل : « لهم » واللام زيادة من الناسخ .

أيضا(١) فى غيرهم من الأمم ، فالأمم كلُّها شَرْعٌ واحد فى عدم الكمال إلاّ أنّهم متفاضلون بعد هذا فيما نالوه بالخِلْقة الأولى ، وبالاختيار الثانى ؛ واختلفتْ أبصارهم فى هذا الموضع ، فأمّا ما مُنِعه الإنسانُ فى الأوّل فلا عَتْب عليه فيه ، لأنه لا يقال للأعمى : لِمَ لا تكون بصيرا ، ولا يقال للطويل : لِمَ لا تكون قصيرا وقد يقال للقصير : سَدِّد طَرْفَك ، واُكحُل عينَك ، ومُدَّ(٢) ناظرَك ؛ كما يقال للطويل : تَطامَنْ ، فى هذا الزُّقاق حتى تَدخل ، وتَقاصَرْ حتى تصِل ؛ وأما ما لم يُمنَعه الإنسانُ فى الأوّل ، بل أُعطِيَه ووُهِب له ، فهو فيه مطالَبٌ بما عليه وله كما أنّه مطالَب بما له وعليه .

(٩) وقال الجَيهانىُّ أيضا : ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطىّ ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة ، ولا الطبّ ولا العلاج ، ولا ما يجرِى فى مصالح الأبدان ، ويدخل فى خواصّ الأنفس .

فليَعلَم الجَيهانىُّ أنّ هذا كلَّه لهم بنوعٍ إلٰهىّ لا بنوع بَشَرىّ ، كما أنّ هذا كلَّه لغيرهم بنوعٍ بَشَرىّ لا بنوعٍ إلٰهىّ ، وأعنى بالإلٰهىّ والبَشَرىّ الطِّباعىّ والصناعىّ ؛ على أن إلٰهىّ(٣) هؤلاء قد مازجه بشرىُّ هؤلاء ، وبَشَرىّ هؤلاء قد شابَهُ إلٰهىُّ هؤلاء ؛ ولو علم هذا الزارى لَعَلِم أن المجسطى وما ذكره ليس للفُرس أيضا ، وما عندى أنّه مُكابِر فيَدَّعىَ هذا لهم . فإن قال : هو لليونان ، ويونانُ من العَجَم ، والفُرسُ من العَجَم ، فأنا أُخرِج(٤) هذه الفضيلة من العَجَم إلى العَجَم فهذا منه حَيْفٌ على نفسِه ، وشهادةٌ على نقصِه ؛ لأنّه لو فاخر يونانَ لم يستطع أن

(١) رسمت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « عزا يصا » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : « وقد » بالقاف ؛ وهو تحريف وما أثبتناه أولى بالسياق .
(٣) فى الأصل : « للهى » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : « أجرح » ؛ وهو تصحيف .

يدّعىَ هذا للفُرس ، ولا يمكنه أن يقول : نحن أيضا عَجَم ، وفضيلتكم فى هــذه الـكتب والصناعة متّصلةٌ بنـا ، وراجعةٌ إلينا . ومتى قال جُبهَ[1] بالمـكروه وقوبل بالقَذْع[2] ، وقيل له : صه ، [3] كما يقـال للجاهل — إن لم تقل له : « اخسأ » ، كما يقال — فى كل[4] الأحاديث ، وإن أغفلتُه[5] ظلمتُ نفسى ؛ ومن حابى خصمَه غُلِب .

(١٠) قال القـاضى أبو حامد المَرْوَرُّوذِىّ[6] : لوكانت الفضائل كلُّها بعِقْدِها وسِمْطِها ، ونظمِها ونثرها ، مجموعةً للفُرس ، ومصــبوبةً على أرؤسهم ، ومعلّقةً بآذانهم ، وطالعةً من جِباهِهم ؛ لـكان لا ينبغى أن يذكروا شأنَها ، وأن يَخرَسوا عن دِقّها وجِلّها ، مع نيكهم الأمهات والأخوات والبنات فإن هذا شىء كريهٌ بالطباع ، وضعيف بالسّماع ، ومردود عنــد كل ذى فِطرة سليمة ، ومستبشع فى نفس كل من له جِبِلّة[7] معتدلة . قال : ومن تمـام طغيانهم ، وشدّة بهتانهم ، أنّهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى ، وبشريعة أتت من عند الله ، والله تعالى حرّم الخبائثَ من المطعومات فـكيف حَلّلَ[8] الخبائث من المنكوحات ؟

(١) لم يظهر من هذه الـكلمة فى الأصل غير الباء والهاء والسياق يقتضى ما أثبتنا .
(٢) القذع : الشتم والرمى بالفحش وسوء القول .
(٣) فى الأصل : « تأكل » وهى زيادة لا معنى لها .
(٤) فى « كل » وهو تحريف لا يستقيم معناه .
(٥) « أعقلته » بالعين والقاف ؛ وهو تصحيف .
(٦) هو القاضى أبو حامد أحمد بن بشر البصرى المروروذى ، كان عالما بفنون العلوم الدينية والأدبية . قال فيه أبو حيان : « كان بحرا يتدفق حفظا للسير ، وقياما بالأخبار ، واستنباطا للمعانى ، وثباتا على الجدل وصبرا فى الخصام » . وكان يقول فيه : « إنه أنبل من رأيته فى عمرى » . توفى سنة ٣٦٢ .
(٧) « لـكيم » ؛ وهو تحريف لا معنى له ، وسياق الـكلام يقتضى إثبات ما يفيد معنى الجبلة كما أثبتنا وإن كان بعيداً من الرسم الموجود فى الأصل .
(٨) « على » .

قال : وكَذَب القوم ، لم يكن زَرادشت نبيًّا ، ولو كان نبيًّا لذكره الله تعالى في عرض الأنبياء الّذين نوّه بأسمائهم وردّد ذكرهم في كتابه ، ولذلك قال النبي صلّى الله علَيه وسلم : « سُنّوا بهم سُنّةَ أهل الكتاب » لأنّه لا كتاب لهم من عند الله منزّل على مُبلِّغ عنه . وإنّما هو خرافة خدعهم بها زرادشتُ بقوّة المَلِك الّذي قَبل ذلك منه وحَمَلَ الناسَ عليه طوعا وكَرها ، وتَرغيبا وترهيبا ؛ وكيف يبعث الله نبيا يدعو إلى إلٰهين أثنين ؟ وهذا مستحيل بالعقل ، وما خلق الله العقلَ إلاّ ليشهد بالحق للمُحِقّ والباطل للمُبطِل ؛ ولو كان شرعا لكان ذلك شائعا عند أهل الكتابين ، أعنى اليهودَ والنصارى ؛ وكذلك عند الصابئين ، وهم كانوا أكثر الناس عنايةً بالأديان والبحث عنها ، والتوصّل إلى معرفة حقائقها ، ليكونوا من دينِهم على ثقة ؛ فكيف صارت النصارى تَعرف عيسى ، واليهود تعرف موسى ؛ ومحمدٌ — صلى الله عليه وسلم — يذكرهما ويذكر غيرَهما ، كداود وسليمان ويحيى وزكريّا ، وغيرَ هؤلاء ، ولا يَذكر زرادشتَ بالنبوّة وأنّه جاء من عند الله تعالى بالصدق والحق كما جاء موسى وعيسى . . . . .[1] لكنّي بُعِثتُ ناسخا لكلّ شريعة ، ومجدِّدا لشريعة خصّني الله بها من بين العرب .

قال : وهذا بيانٌ نافع في كذبهم ؛ وإنما جاءوا إلى وَهْمٍ فرقعوه ، وإلى حرامٍ بالعقل فأباحوه ، وإلى خَبيثٍ بالطبع فارتكبوه وإلى قبيحٍ في العادة فاستحسَنوه .

وقد وجدنا في البهائم ما إذا أُنْزِىَ الفحلُ منها على أمّه لم يطاوِع ، وإذا أُكرِه وخُدِع وعَرَف غضب على أهله ونَدَّ عنهم ، وشَرَّرَ عليهم ؛ فما تقول في خُلُق لا ترضاه البهيمة ، ولا تطاوِعه[2] فيه الطبيعة ، بل يأباه حسُّه مع كُلُولِه[3]

(١) يلاحظ أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل فيما يظهر لنا .
(٢) تطاوعه ، أى تطاوع الفحل .
(٣) وردت هذه الكلمة في الأصل هكذا : « ككوكه » ؛ وهو تحريف .

وتبرُد شهوتُه مع اشتعالها ، ويرضاه هؤلاء القومُ مع عُجْبِهم بعقولهم ، وكِبْرِهم في أنفسهم .

ولو كان زرادشت أقام لهم على هذه الخَصلة اللئيمة والفَعْلة الذميمة كلّ آية وكلّ برهان ، ونثر عليهم نجومَ السماء ، وأطلَعَ لهم الشمس من المغرب ، وفتّت لهم الجبال ، وغيّض لهم البحار ، وأراهم الثريّا تمشي على الأرض تخترق السّكك وتشهد له بالصدق ، لكان من الواجب بالعقل وبالغَيْرة وبالحَمِيّة وبالأَنَفة وبالتقزّز وبالتعزّز ألاّ يجيبوه إلى ذلك ، ويشكّوا في كل آية يرون منه ، ويقتلوه ، ويُنَكّلوا به .

ولكن بمِثل هذا العقل قبلوا من مَزْدَكَ ما قبلوه مرّة ، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدكَ ما كان الأمر إلا واحدا ، ولا كان الحقُّ إلا منصورا ، ولا كان الباطلُ إلا مقهورا ، ولكن اتّفق على مزدكَ ملِك عاقل فوَضَع باطله ، واتفق لزرادشتَ ملِك ركيك فرَفَع باطله ؛ وما نَزَع الله عنهم المُلك إلاّ بالحق ، كما قال تعالى : (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) . ثم قال : وبعدُ ، فكلّ شيء خارج من الحكمة الإلٰهيّة والعقليّة والطبيعيّة فهو ساقطٌ بَهْرَج ، ومردودٌ مرذول ، إذا فعله جاهل عُذِر بالجهل ، وإذا أتاه عالم عُذِل للعِلم .

قال : وكانت العرب بهذا الخُلُق الذميم ، وهذا الفعل اللئيم ، لو فعلته أعذَرَ ، لأنّهم أشدّ غُلْمة من غيرهم وأكثرُ تهيّجا ، وأقوى على البِضاع ، وأوثَبُ على النساء يدلّك على هذا غزَلُهم وعشقُهم ونظمُهم ونثرهم وفراغُهم وشهوتُهم ، وترامم مع هذه الدواعي والبواعث لم يستحسنوا هذا ولم يفعلوه ، ولو أكرههم على هذا مكرِه ودعاهم إليه داع لما أطاعوه ، ولذلك لم يَنجُم منهم ناجم بالحيلة

فدعا إلى هذا ؛ ولو كان لكان أوّلَ مَنْ دُقّ رأسُه بالعَمَد ، وبُعِج بطنُه بالخَنجر ؛ وما منعهم من هذا إلاّ الأنفس الكريمة ، والطباع المعتدلة ، والشكائم الشديدة ، والأرواح العيّفة ، والعادات الرضيّة ، والضرائب الطيّبة ؛ وكان وأدُ البنات عندهم أنفَى للمَعاير ، وأطرَدَ للقبائح من هذا الّذى استحسنه زرادشت وقَبل منه الفُرس ، وهم يدّعون الحُكم والعِلم والحَزم والعزم ، ولفرط جهلهم وغلبة شهوتهم غَفَلوا عمّا يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحا له أو حاظرا ، أو مطلِقا أو مانعا ، أو محلّلا أو محرّما ؛ هيهات ما كلّف اللهُ أهلَ العقل القيامَ بالدّين والتّصفّحَ للحقّ(١) من الباطل إلاّ لما شرّفهم به فى العاجل ، وعرّضهم له فى الآجل ؛ والعاقبة للمتّقين .

قال أبو الحسن الأنصارىّ(٢) — وكان حاضرا — الهند أوضح عذرا فى هذا الحديث لأنّهم جعلوه من باب القُربة فى بيوت الأصنام ، و بلغوا مرادَهم بهذه الخديعة ، ولم ينسبوا إلى الله شيئا منه ، ولا استجازوا الكذبَ عليه ، ولا علّقوه أيضا على نبىّ من عند الله ، بل رأوه صوابا بالوضْعِ(٣) ثم طابت أنفسهم من هذا الفعل بالمران والعادة . و بعد ؛ فعقولهم مدخولة ، والبارع منهم قليل ، وهم إلى الإفْك(٤) والوهم والسّحر أميَل ، وفى أبوابها أدخَل ؛ ثم قال أبو الحسن : انظر إلى جهل زرادشت فى هذا الحُكم و إلى ضعف عقول الفُرس فى قبولهم منه هذا

(١) « بالحق » بالباء ، والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا .

(٢) كذا بالأصل ولعله الأنطاكى ، فإنّنا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من يلقب بالأنصارى . وأبو الحسن الأنطاكى هو أبو القاسم على بن أحمد أصله من أنطاكية ونزل بغداد، وكان مهندسا حاسبا له مشاركة فى علوم الأوائل مع فصاحة لسانه وعذوبة بيانه . مات ببغداد سنة ٣٧٦ .

(٣) « لوضع » ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) « الفكر » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

الفحل ، وخيَّرْ بينها و بين عقول العرب ، فإنّهم قالوا : « اغتربوا لا تُضْوُوا[١] » . وأستفاض هذا منهم حتى سُمِعَ من صاحب الشريعة صلّى الله عليه وسلّم ، وذلك أنَّ الضَّوَى مكروه ؛ والعرب قالت هذا بالإلهام ، لقرائحهم الصافية ، وأذهانهم الواقدة ، وطينتهم الحرّة ، وأعراقهم الكريمة ، وعاداتهم السليمة : و إنّما شعروا بهذا لأن الضوَى الواصلَ إلى الأبدان هو سارٍ فى العقول ، ولكن الفُرس عن هذا السرّ غافلون ، ولا يفطن لهذا وأمثالِه إلا الألمعيّون الأحوذيّون[٢] ؛ ثم قال : أنشد الأصمعيُّ عن العرب قولَ قائلهم فى مدح صاحب له :

فتًى لم تلده بنتُ عمٍّ قريبةٌ ... فيَضوَى وقد يَضوَى رَدِيدُ الأقاربِ

قال : وقالت العرب : « أضواه حقَّه » : إذا نقَصه . قال : وقال آخَر لولده : والله لقد كفيتك الضُّؤولة ، وأخترتُ لك الخؤولة .

وقال أيضا : العرب تقول : « ليس أضوى من القرائب ، ولا أنجبَ من الغرائب » وقال الشاعر :

أنذرتُ من كان بعيدَ الهمّ ... تزويجَ أولادِ بناتِ العمّ

ليس بناجٍ من ضَوًى أو سُقمِ ... وأنت إن أطعمتَه لا يَنمِي

وقال الأسديّ يفتخر :

ولستُ[٣] بضاويٍّ تموج عظامُه ... ولادته فى خالد بعد خالد

تردَّد[٤] حتى عمّه خال أمه ... إلى نسب أدنى من السر واحد

(١) اغتربوا لا تضووا ، أى تزوجوا فى بعاد الأنساب لا فى الأقارب لئلا تضوى أولادكم أى تنحف وتضعف .

(٢) الأحوذى : الحاذق المشمر للأمور القاهر لها لا يشذ عليه شىء . وفى الأساس : « رجل أحوذى » : يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها .

(٣) فى الأصل : « وكنت » ، وهو تحريف ؛ ومقام الفخر يقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى الأصل : « تردده » والهاء زيادة من الناسخ .

ثم قال : والعرب لم تُرِد بهذا إلا نقص الذهن والعقل ، لأنّها لو أرادت نقصان الجسم لكانت مخطئة ، لأنّهم يريدون سَمانة الجسم مع السلامة والصلابة .
ثم قال : وعلى هذا طباع الأرض ، ولذلك يقال : إذا كثرت المؤتفكات[١] زكت الأرض ، لأنّ الرياح إذا أختلفتْ حوّلتْ تراب أرض إلى أرض ، وإذا كان الأغتراب يؤثّر من التراب إلى التراب ، فبالحرِيّ[٢] أن يؤثّر[٣] الإنسان فى الإنسان بالأغتراب ، لأن الإنسان أيضا من التراب .

قال أبو حامد : فما ظنّك بقوم يجهلون آثار الطبيعة ، وأسرار الشريعة[٤] ؟ ما أذلّهم الله باطلا ، ولا سلبهم مُلكَهم ظالما ، ولا ضربهم بالخِزى والمهانة إلاّ جزاء على سيرتهم القبيحة ، وكذبِهم على الله بالجرأة والمكابَرة ، وما الله بظلام للعبيد .

فلما بلغ القول مداه قال[٥] : لله[٦] [درُّ][٧] هذا النَفَس الطويل والنَّفْث (١١
الغزير ! لقد كنتُ قَرِما إلى هذا النوع من الكلام ، ففرّغ نفسَك لرسمه فى جزء لأنظر فيه ، وأُشربَ النفسَ حلاوته ، وأستنتجَ العقيمَ منه ؛ فإنّ الكلام إذا مرّ بالسمع حلّق ، وإذا شارَفَه البصر بالقراءة من كتاب أسَفَّ ؛ والمحلِّق بعيد المَنال ، والمُسِفّ حاضر العين ، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ

(١) المؤتفكات : الرياح التى تقلب الأرض ؛ أو التى تختلف مهابها .
(٢) فى الأصل : « فيه لجرى » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .
(٣) فى الأصل : « يوحش » ؛ وهو تحريف .
(٤) ورد فى الأصل بعد قوله : « الشريعة » قوله « من الشريعة » وهى زيادة من الناسخ لا تتسق مع الكلام .
(٥) أى الوزير .
(٦) « الله » والألف زيادة من الناسخ .
(٧) موضع هذه الكلمة فى الأصل حرفان مطموسان ؛ وسياق الجملة يقتضى ما أثبتنا .

تذكُّر منه الشيء بعد الشيء بالوم الذى لا أنعقاد له ، والخيالِ الّذى لا معرّج عليه . فقلتُ : أفعل سامعا مطيعا — إن شاء الله — .

الليلة السابعة

(١) ولما عدتُ إليه فى مجلس آخر ، قال : سمعتُ صياحك اليوم فى الدار مع أبن عبيد ، ففيم كنتما ؟ قلتُ : كان يذكر أن كتابة الحساب أنفعُ وأفضل وأعلق بالمُلك ، والسلطان إليه أحوَج ، وهو بها أغنَى مِن كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير ، فإذا الكتابة الأُولى جِدّ ، والأخرى هزل ؛ ألا ترى أنّ التشادُق والتفيهُق والكذبَ والخداعَ فيها أكثر ؛ وليس كذلك الحسابُ والتحصيل والأُستدراك والتفصيل . قال : و بعد هذا فتلك صناعةٌ معروفة بالمبدأ ، موصولةٌ بالغاية ، حاضرة الجدوَى ، سريعة المنفعة ؛ والبلاغة زَخرفة وحيلة ، وهى شبيهة بالسّراب ، كما أن الأخرى شبيهة بالماء . قال : ومن خساسة البلاغة أنّ أصحابها يُسترقَعون و يُستحمَقون ؛ وكان الكتّاب قديما فى دُور الخلفاء ومجالس الوزراء يقولون : اللهم إنا نعوذ بك من رَقاعة المنشئين ، وحماقةِ المعلّمين ، وركاكةِ النحويّين ، والمنشئ والمعلّم والنحويّ إخوة وإن كانوا لعَلاّت ؛ والآفة تشملهم والعادة تجمعهم ، والنقص يغمرهم ، وإن أختلفت منازلهم ، وتباينتْ أحوالهم

قال : ولو لم يكن من صنعة الإنشاء إلا أنّ المملكةَ العريضة الواسعة يُكتفَى فيها بمنشئٍ واحد ، ولا يُكتفَى فيها بمائة كاتِب حساب . . . .[1] وإذا كانت الحاجةُ إلى هذه أمسّ ، كانت الأخرَى فى نفسها أخسّ ؛ و بعد ، فمصالح أحوال

(١) لم يرد جواب « لو » للعلم به ، أى لكفى كتابة الحساب فخرا على كتابة الإنشاء ، أو ما يفيد هذا المعنى .

العامّة والخاصّة معلّقة بالحساب ؛ على هذه الجَدِيلة[١] والوتيرة يجرى الصغار والكبار والعِلْيَة والسِّفْلة ، ومازال أهل الحزم والتجارب يحثّون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلّم الحساب ، ويقولون لهم : هو سلّة الخبز . وهذا كلام مستفيض ؛ ومن عبّر عما فى نفسه بلفظ ملحونٍ أو محرّف أو موضوع غيرَ موضعِه وأفهَم غيرَه ، وبلغ به إرادته ، وأبلغ غيرَه ، فقد كَفَى ؛ والزائد على الكفاية فضل والفضل يُستغنَى عنه كثيرا ، والأصل يُفتقَر إليه شديدا ، قال : ومن آفات هذه الكتابة أن أصحابها يُقرَفون بالريبة ، ويُرمَون بالآفة ، كآل الحسن بن[٢] وهب وآل ابن ثوَابة . قال : هذه ملحمة منكَرة ؛ فما كان من الجواب ؟

قلتُ : ما قام من مجلسه إلا بعد الذلّ والقَماءة ، وهكذا يكون حال من عاب (٢) القمر بالكلَف ، والشمسَ بالكسوف ، وأنتحل الباطل ونصرالمبطِل ، وأبطل الحقّ وزرى على المحقّ . قلت : أيها الرجل ، قولك هذا كان يسلَّم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بائنةً من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك وعمل الجماعة وعقد المؤامرة[٣] . فأمّا وهى متّصلة بها وداخلة فى جملتها ومشتملة عليها وحاوية لها ، فكيف يطّرد حُكْمُك وتسلم دعواك ؟ ألا[٤] تعلم أن أعمال

(١) الجديلة : الشاكلة ؛ يقال : عمل على جديلته ، أى على شاكلته .

(٢) يشير بهذه العبارة إلى ما فعله الواثق بالله مع الحسن بن وهب كاتبه ، فقد حبسه وأغرمه أربعة عشر ألف دينار ، كما حبس كتابا آخرين وقبض منهم أموالا جمة ، وذلك فى سنة تسع وعشرين ومائتين . وإلى نكبة أبى الهيثم بن ثوابة سنة ثلاث وثلاثمائة ، فقد حبس حتى مات فى حبسه بالكوفة بعد أن أخذ منه إسحاق بن عمران أموالا جزيلة لنفسه وللسلطان . ويقال : إنه احتال على قتله خشية أن يقر عليه بما أخذ منه .

(٣) المؤامرة : عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة فى مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان فى آخره بإجازة ذلك ؛ وقد تعمل المؤامرة فى كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استئمار واستدعاء توقيع .

(٤) فى الأصل : « الا أن تعلم » « وأن » زيادة من الناسخ .

الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون مايصنفونه ويتعاطَونه ؛ بل لاسبيل لهم إلى العمل إلاّ بعد تَقدِمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيانِ المكشوف والاُحتجاجِ الواضح ، وذلك يوجد من الكاتب المنشئ الذى عِبتَه وعَضَضته (١) ، وهذه الدواوين معروفة ، والأعمال فيها موصوفة ؛ وأنا أحصيها لك كى تعلم أنّك غالط وعن الصواب فيها منحرف .

فمنها ديوان الجيش ، وديوان بيت المال ، وديوان التوقيع والدار ، وديوان الخاتَم ، وديوان الفَضّ (٢) ، وديوان النَّقد والعيار ودُورُ الضَّرب ، وديوان المَظالم وديوان الشرطة والأحداث ؛ هذا إلى توابع هذه الدواوين مثل باب العين (٣) والمؤامرات ، وباب النوادر (٤) والتواريخ ، وإدارة الكتب ومجالس الديوان وقَبْل وبَعد ، كما (٥) يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوهَ الأموال (٦) حتى إذا جباها وحصّلها عمل الحساب أعماله فيها ، فلا يُمْكنه (٧) أن يَجْبِيَ (٨) إلاّ بالكتب البليغة والحججِ اللازمة واللطائف المستعملة ، ومن تلك الوجوه الفَىْء ، وهو أرض العَنْوة وأرضُ الصلح وإحياء الأرض والقطائعُ والصفايا والمقاسَمة والوضائع

(١) يقال : عضه بلسانه ، إذا تناوله بمكروه الكلام .

(٢) فى الأصل : « الفص » بالصاد المهملة ؛ وهو تصحيف ، والمراد بالفض : فض الكتب المختومة .

(٣) يريد بالعين : خراج العين ، وهو مايقرر على البساتين والشجريات والكروم والمقاثئ ويستخرج على حكم الضريبة عند إدراك كل صنف . وكان هذا فى البلاد الشامية . انظر الجزء الثامن من نهاية الأرب ص ٢٦١ طبع دار الكتب المصرية .

(٤) لعل صوابه : « التقادير » أى تقادير ما تخرجه الأرض من غلة .

(٥) « فا » .

(٦) فى الأصل : « الأعمال » وهو خطأ من الناسخ ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « حتى إذا جباها » .

(٧) فى الأصل : « فيمكنه » . والسياق يقتضى زيادة « لا » النافية .

(٨) « يجيء » .

وجزيةُ رءوس أهل الذمّة وصدَقاتُ الإبل والبقر والغنم وأخماسُ الغنائم والمعادن والركاز(١) والمـالِ المدفون ، وما يخرج من البحر وما يؤخذ من التجار إذا مرّوا بالعاشر(٢) واللُّقَطة والضالّة وميراث من لا وارث له ومال(٣) الصدقة ؛ إلى غير ذلك من الأمور المحتاجة إلى المكاتبات البالغة على الرسوم المعتادة والعادات الجارية ، كعهد يُنشأ فى إصلاح البريد وتقسيط الشرب ، وكتاب فى العمارة وإعادة ما نقصَ منهـا ، وفى(٤) حَزْرِ الغَـلّة(٥) والدِّياس(٦) ، وفى الدّوالى والدواليب والفَرّافات ، وفى القلب والقسـمة ، وفى تقدير الخُضَر(٧) المبكّرة وفى المساحة وفى الطراز(٨) ، وفى الجوالى(٩) ، وفى قبض فرائض الصدقات ، وفى أفتتاح الخَراجات ، إلى غير ذلك من كُتُب(١٠) المحاسبين .

فإن قلت : « هـذا كلّه مستغنًى عنه » كابرتَ وبَهَتَّ ، لأن مدار المال ودُروره ، وزيادتَه ووفورَه على هـذه الدواوين التى إما أن يكون حظّ البلاغة فيها أكثر ، وإمّا أن يكون أثر الحساب فيهـا أظهر ، وإما أن يتكافآ ؛ فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملا ، ولا لأسمه مستحقا ، إلا بعد أن ينهض

(١) الركاز ، هو دفين الجاهلية من الأموال .
(٢) العاشر ، هو الذى يأخذ منهم عشر ما معهم .
(٣) « وفى مال » .
(٤) فى الأصل « فى » بسقوط واو العطف ؛ والسياق يقتضى إثباتها .
(٥) فى الأصل « حرز الغلم » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين لا يستقيم معناه ؛ والصواب ما أثبتنا . والحزر : التقدير بالظن .
(٦) دياس الحنطة : دراستها .
(٧) « الحصر » .
(٨) الطراز : مقسم الماء فى النهر كما ذكره صاحب مفاتيح العلوم فى الكلام على مصطلح كتّاب ديوان الماء . ثم قال : وتسمى مقاسم المياه فى بلاد ما وراء النهر : الدرقات والمزرقات .
(٩) يريد بالجوالى : مال الجوالى ، وهو الجزية المضروبة على أهل الذمة ، والجوالى هم الذين جلوا عن أوطانهم .
(١٠) « كسوة » .

بهذه الأثقال ، ويجمع إليها أصولا من الفقه مخلوطة [١] بفروعها ، وآيات من القرآن مضمومةً إلى سعته[٢] فيها ، وأخبارا كثيرة مختلفة فى فنون شتّى لتكون عُدّة عند الحاجة إليها ، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة ؛ والفِقَر البديعة ؛ والتجارب المعهودة ، والمجالس المشهودة ، مع خطّ كثير مسبوك ، ولفظٍ كوشيٍ محُوك ؛ ولهذا عزّ الكامل فى هذه الصناعة ، حتى قال أصحابنا : ما نظنّ أنّه اجتمع هذا كله إلاّ لجعفر بن يحيى فإن كتابته كانت سواديّة ، و بلاغته سَحبانيّة ، وسياستَه يونانيّة ، وآدابه عربية[٣] ، وشمائلَه عراقيّة ؛ أفلا ترى كيف غرق الحساب فى غِمار هذه الأبواب ؟ ثم اعلم أن البليغ مُشتَمِلٍ بلاغتَه من العقل ، ومأخذه فيها من التمييز الصحيح ، وليس كذلك الحسابُ فى متناوَلِه [فلو[٤]] ظنّ ظانّ بأن مدار المُلك على الحساب — [فهو[٤]] صحيح — ولكن بعد بلاغة المنشئ ، لأن السلطان يأمر وينهَى و يلاطِف و يخاطِب ويحتجّ و ينصف و يوعِد و يعد ويَضمن و يمنّى و يعلّق الأمل و يؤكّد الرجاء و يحسم المادّة الضارّة و يذيق الرعيّة حلاوة العدل و يجنّبهم مرارة الجور ، ثم يجبى ، فإذا جبى احتاج إلى الحساب حتى يكون بالحاصل عالما ، ثمّ يتقدّم بتوزيع ذلك على الحسّاب حتّى يكون من الغلط آمنا ، فانظر إلى المنزلتين كيف اختلفتا ؟ وكيف حصلت المزيّة لإحداهما ؛ ولو أنصفتَ لعلمتَ أنّ الصناعة جامعة بين الأمرين ، أعنى الحساب والبلاغة ؛ والإنسان لا يأتى إلى صناعة فيشقّها نصفين و يُشرّف[٥] أحد النصفين على الآخر .

(١) « مخلوطة » .
(٢) إلى سعته فيها ، أى إلى تبحره فى فهمها .
(٣) « عقلية » .
(٤) هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم ليستا بالأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتهما أو إثبات ما يؤدّى معناهما .
(٥) « يسرف » .

وأما قولك : « إحدى الصناعتين هزلٌ والأخرى جِدّ » فبئسما سوّلَتْ لك نفسك على البلاغة ، هى الجِدّ ، وهى الجامعة لثمرات العقل ، لأنّها تُحِقّ الحقّ وتُبطِل الباطل على ما يجب أن يكون الأمرُ عليـه ؛ ثم تحقيق الباطل و إبطال الحقّ لأغراض تختلف ، وأغراض تأتلف ، وأمورٍ لا تخلو أحوال هذه الدنيا منها من خير وشرّ ، و إباء و إذعان ، وطاعةٍ وعصيان ، وعدلٍ وعدول[١] ، وكفر و إيمان ، والحاجة تدعو إلى صـانع البلاغة وواضعِ الحكمة وصاحبِ البيان والخَطابة ؛ وهذا هو حدّ العقل والآخَر حدّ العمل .

وأما قولك : « الإنشاء صناعة مجهولة المبدإ ، والحساب معروف المبدإ » فقد خَرِفتَ[٢] ، لأنّ مبدأها من العقل ، وممرّها على اللفظ ، وقرارها فى الخطّ ؛ وأنت إذا قلتَ هذا دَللتَ من نفسك على أنّه ليس لك [ما] [٣] تبصر[٤] به هذا المبدأ الشريف وهذا الأوّل اللطيف .

وأما قولك : « والبلاغة زخرفة وهى شبيهة بالسراب » فقد أوضحنا لك فيه ما كفى ، فإن لم يكف فأنت محتاج إلى بيّنة أخرى .

وأما قولك : « إن أصحابها يُسترقَعون » فهذا شَنعٌ من القول ، ولو عرفتَ الصِّدق[٥] فيه لم تَنبِس به ولم تنطق بحرف منـه ، فإن فيه زِرايةً على السلف الصالح والصدر الأوّل ، ولو وجب أن يُسترقَع البليغ إذا كان عاقلا ، لوجب أن يُستعقَل العَيِيُّ[٦] إذا كان أحمق ؛ وهذا خُلف .

(١) يريد بالعدول : الجور ، من عدل عن الطريق عدولا إذا نكب عنه وانحرف .

(٢) « صدقت » .

(٣) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٤) « تنصر » .

(٥) « الصرف » .

(٦) « الغبى » .

وأما قولك : « المنشئ والمعلّم والنحويّ إخوة فى الركاكة » فما يتعلّم الناس إلّا من المعلّم والعالم والنحويّ و إن ندر منهم واحد قليل البضاعة من الحقّ .

وأما قولك : « إن المملكة تكتفى بمنشئ واحد » فقد صدقتَ ، وذلك أن هذا الواحد فى قوّته يفى بآحاد كثيرة ، وهؤلاء الآحادُ ليس فى جميعهم وفاء بهذا الواحد ، وهذا عليك لا لك . لكن بقى أن تفهم أنك محتاج إلى الأساكفة أكثر مما تحتاج إلى العطّارين ، ولا يدلّ هذا على أنّ الإسكاف أشرفُ من العطّار ، والعطّارُ دون الإسكاف ؛ والأطبّاء أقلّ من الخيّاطين ، ونحن إليهم أحوج ، ولا يدلّ على أنّ الطبيب دون الخيّاط .

وأمّا قولك : « ما زال الناس يحثّون أولادهم على تعلّم الحساب ويقولون : « هو سلّة الخبز » فهو كما قلتَ ، لأنّ الحاجة إليه عامّة للكبار والصغار ؛ وأشرف الصناعات يَحتاج إليها أشرفُ الناس ، وأشرف الناس الملِك ، فهو محتاج إلى البليغ والمنشئ والمحرّر ، لأنّه لسانه الّذى به يَنطِق ، وعينُه الّتى بها يُبصِر ، وعَيبتُه الّتى منها يَستخرج الرأى ويَستبصر فى الأمر ، ولأنّه بهذه الخاصّة لا يجوز أن يكون له شريك ، لأنّه حامل الأسرار ، والمحدِّث بالمكنونات ، والمُفضَى إليه ببنات الصدور .

وأما قولك : « من عبّر عما فى نفسه بلفظ ملحون أو محرّف وأفهمَ غيرَه فقد كفى » فكيف يصحّ هذا الحكم ويُقبَل هذا الرأى ؟ والكلام يتغيّر المراد فيه باختلاف الإعراب ، كما يتغيّر الحكم فيه باختلاف الأسماء ، وكما يتغيّر المفهوم باختلاف الأفعال ؛ وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف ؛ ولقد قال رجل بالرّىّ كان نبيلا فى حاله جليلا فى مرتبته عظيما عند نفسه : « اُقعد حتّى تتغذّى بنا » . وهو يريد : « حتى تتغذى معنا » ؛ فانظر إلى هذا المُحال الّذى ركبه بلفظه

وإلى المراد الذى جانَبه بجهله ؛ ولهذا نظائر غيرُ خافية عليك ولا ساقطةٍ دونك وكفى بالبلاغة شرفًا أنّك لم تستطع تهجينَها إلاّ بالبلاغة ، ولم تهتد إلى الكلام عليها إلا بقوّتها ؛ فانظر كيف وجدتَ فى استقلالها بنفسها ما يُقِلّها ويُقِلّ غيرَها ؛ وهذا أمر بديع وشأنٌ عجيب .

وأمّا قولك : « ومن آفاتها أنّ أصحابها يُقرَفون بالريبة ويُنالون بالعيب » فهذا ما لا يستحقّ الجواب ، وما يضرّ الشمسَ نُباحُ الكلاب ؛ وصيانة اللّسانِ عن هذا النوع أحسن ؛ قال الله تعالى : (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) ؛ وقال عمر بن الخطّاب — رضى الله عنه — لو كان المرء أقومَ من قِدْحٍ لوُجِد له غامز . وآل ابنِ وهب وابن ثوابة كانوا أنبل وأفضل وأعقل من أن يُظنّ بهم ما لا يُظنّ بخساس العبيد وسفهاء الناس وداصة[١] الرعيّة وسِفْلةِ العامّة ؛ على أنّا ما سمعنا هذا إلاّ فى مجلس ابن عبّاد ، منه وممّن كان يَخبِط[٢] فى هواه ، ويتحرّى بمثل هذه الأحاديث رضاه ؛ وحسدُه لهم فى صناعتهم يبعثه على هذه الأكاذيب عليهم ؛ فالعجب أنه يظن أن كذبه على غيره ينفى الصدق عن نفسه ؛ ولو نزّه[٣] لسانَه ومجلسَه ومذهبه وأبوّتَه لكان أولى به وأزينَ له ، ولكن النعمةُ والقدرة إذا عَدِمتا عقلا سائسا وحزما حارسا ودينا متينا وطريقا قويما أوْرَدَتا ولم تُصدِرا وخَذَلتا ولم تَنصُرا ؛ ونعوذ بالله من نعمة تَحُورُ بلاءً ، ومرحبا ببلاءٍ يورِث يقظة ويكون تمحيصا لما نقص من التقصير ؛ ولكن مَن هذا الّذى يَشرَب فلا يَسكَر ولا يَثمَل ؟ ومن هذا الّذى اذا سَكِر عَقَل ؟ ومن هذا الّذى إذا صحا لا يعتقب من شرابِه خُمارا يصدّع الراس ويمكّن الوَسواس ؟

(١) الداصة : الخساس الجبناء . واللصوص أيضا .

(٢) فى الأصل : « يحط » ؛ وهو تصحيف .

(٣) « كله » .

فقال : هذه جملة قامعة لمن ادّعى دعواه أو نحا مَنحاه ؛ وأنّى لك هــذا ؟ لِمَ لا تُداخِلُ صاحبَ ديوان ولِمَ تَرضَى لنفســك بهذا اللّبوس ؟ فقلتُ : « أنا رجلٌ حبُّ السـلامة غالبٌ علىّ ، والقناعةُ بالطفيف محبوبة عندى » .
فقال : كنيتَ عن الكسل بحبّ السلامة ، وعن الفُسُولة بالرضـا باليسير .
قلتُ : إذا كنتُ لا أصِلُ إلى السـلامة إلاّ بالفُسولة ، ولا أتحكّم الراحة إلّا بالكسل ، فمرحبا بهما .

فقال : لكلّ إنسان رأىٌ واختيار وعادة ومَنشأ ومألوف وقُرَناء متى زُحزِح عنها قَلِق ، ومتى أُرِيغَ[1] على سواها فَرِق ؛ أظنّ أنّه قد نصَف الّليل . قلتُ : لعلّه . قال : فى الدّعَة ؛ قد خبأتُ لك مسألة ، وسألقيها عليك بعدها — إن شاء الله تعالى — وانصرفتُ .

الليلة الثامنة

(١) وقال لى مرّة أخرى : أوْصَلَ وهبُ بن يعيش الرقّىُّ[2] اليهودىّ رسالةً يقول فى عُرْضها بعد التقريظ الطويل العريض : إن هنـا طريقا فى إدراك الفلسفة مذلّلةً مسلوكةً مختصَرة فسيحة ، ليس على سالـكها كدٌّ ولا شقٌّ فى بلوغ ما يريد من الحكمة ونيلِ ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز فى العاقبة ؛ وإنّ أصحابنا طوّلوا وهوّلوا وطرحوا الشوك فى الطريق ، ومَنَعوا من الجواز عليه غشًّا منهم وبخلا ولؤمَ طباع وقلةَ نصح وإتعابا للطالب وحسـدا للراغب ، وذلك أنّهم اتّخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبةً ، ومأكلة ومشربة ، فصار ذلك

(١) « أربع » .
(٢) ورد هذا الاسم فى المقابسات ؛ وكان أبو حيان يسأله فى مسائل فلسفية .

كسُور من حديد لطُلاّبِ الحكمة والمحبّين للحقيقة والمتصفّحين لأثناء العالم وكلاما هذا معناه ، وإلى هذا يرجع مغزاه .

فكان من الجواب : قد عرفتُ مذهب ابن يعيش فى هذا الباب ، وهو جارى ، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى المَلِك السعيد سنة سبعين [١] ، وتقرّب بها ، ونفعتُه بالمسألة والتفقّد له ، فإنّه شديد الفقر ، ظاهرُ الخَصاصة ، لاصق بالدَّقْعاء [٢] ؛ وللّذى قاله وادّعاه ، وقصده وانتحاه ، وجه واضح وحجّة ظاهرة ؛ وللّذى قاله أصحابنا — أعنى مخالفيه — وجهٌ أيضا وتأويل وللقولين أنصار وحُماة ، وحفَظَة ورُعاة .

قال : هاتِ — على بركة الله — فإنّى أحب أن أسمع فى هذا الخَطْب [٣] كلَّ ما فيه وأكثرَ ما يتّصل به ؛ فكان من الجواب أن ابن يعيشَ يريد بهذه الخطبة أنّ عمر الإنسان قصير ، وعِلمَ العالم كثير ، وسِرّه [٤] مغمور ؛ وكيف لا يكون كذلك وهو ذو صفائح مركّبة بالوَضْع [٥] المحكَم ، وذو نضائدَ مزيّنة بالتأليف المعجب المتقَن ؛ والإنسان الباحث عنه وعمّا يحتويه ذو قوًى متقاصرة ، وموانعَ معترِضة ، ودواعٍ ضعيفة ، وإنه مع هذه الأحوال منتبه بالحِسّ ، حالمٌ بالعقل ، عاشقٌ [٦] للشاهد ، ذاهل عن الغائب ، مستأنسٌ بالوطن الّذى ألِفه ونشأ فيه ، مستوحشٌ من بلد لم يسافر إليه ولم يُلِمّ به وإن كان صَدَر عنه [٧] ، فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقةٌ تامّة ؛ وإن الأولى بهذا الإنسان

---

(١) يعنى بعد الثلاثمائة .
(٢) الدقعاء : الأرض لا نبات بها . والتراب . وهذه العبارة كناية عن الفقر الشديد .
(٣) الخطب : الشأن .
(٤) « وشره » .
(٥) « بالوصف » .
(٦) « ما شق » .
(٧) عنه ، أى عن البلد .

المنعوت بهذا الضّعف والعجز أن يلتمس مسلكا إلى سعادته ونجاته قريبا ويعتصمَ بأسهل الأسباب على قدر جهدِه وطَوْقِه ؛ وإن أقرب الطرق وأسهلَ الأسباب هو فى معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإلٰهِ تعالى ، فإنه متى عرف هذه الجملةَ بالتفصيل ، وأُطْلِع على هذا التفصيل بالجملة ، فقد فاز الفوز الأكبر ونال المُلكَ الأعظم ، وكُفِيَ مؤونة عظيمة فى قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير ، مع العناء المتّصل فى الدرس والتصحيح والنَّصَب فى المسألة والجواب ، والتنقير عن الحق والصواب ؛ وهذا الذى قاله ابن يعيشَ ليس بحَيْف ولا خارجٍ عن حَوْمة الحق ، وإن كان الأمر فيه أيضا صعبا وشاقا وهائلا وعاملا ، ولكن ليس لكلّ أحد هذه القوّةُ الفائضة ، وهذه الخصوصيّةُ الناهضة ؛ وهذا الأستبصارُ الحَسَن ، وهذا الطبع الوقّاد ، والذهنُ المُنقاد ، والقريحةُ الصافية والأستبانةُ والتأمّل ، لأن هذه القوّة إلٰهيّة ، فإن لم تكن إلٰهيّة فهى مَلَكية ؛ وإن لم تكن مَلَكية فهى فى أُفُق البشريّة ؛ وليس يوجد صاحبُ هذا النعت إلاّ فى الشاذّ النادر ، وفى دهر مديدٍ بين أُمّة جمّةِ العَدَد ؛ والفائقُ من كلّ شيء والبائن من كلّ صنف عزيزٌ فى هذا العالَم الوحشىّ ، كما أن الردىء والفاسدَ معدوم فى هذا العالَم الإلٰهىّ ، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى : إن من يتكلّم بالإعراب والصحّة ولا يَلحَن ولا يخطئ ويجرى على السليقة الجيدة والضريبةِ السليمة ، قليل أو عزيز ، وإنّ الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجيّة وهذا المنشأ إلى أن يتعلّم النحو ويقف على أحكامه ، ويجرىَ على منهاجه ، ويفىَ بشروطه فى أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعمَلاتها ومهمَلاتها ؛ ومتى أُتفق[١] إنسانٌ بهذه الحلية[٢] وعلى هذا النّجار ، فلعَمرى إنّه غنىّ عن تطويل

(١) اتفق إنسان ، أى وجد بطريق الاتفاق ، أى الصدفة .

(٢) لعله « الجبلة »

النحويّين كما يَستغني قارض الشِّعر بالطبع عن علم العَروض ، وهكذا يَستغني صاحبُ تلك القوّة التي أشار إليها ابن يعيشَ عن ذلك ، ولكن أين ذاك الفرد والشاذّ والنادر ؟ فإن حضر فما تفعل معه إلاّ أن تقلّده وتأخذَ عنه وتتبعَه .

وإنّما المدار على أن تكون أنت بهذا الكمال حائزاً لهذه الغاية ، ولا سبيل لك إليها من تِلقاء نفسك ، وإنما هو شيء يأتي من تلقاء غيرك ، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغي أن تخطوَ على آثار المنطقيّين والطبيعيّين والمهندسين بالزحف والعَناء والتكلّف والدُّءوب حتى تصير متشبّها بذلك الرجل الفاضل والواحد الكامل والبديع النادر ؛ فقد بان من هذا القَدْر صوابُ ما أشار إليه ابن يعيش وانكشف أيضا وجهُ ما حثّ عليه مخالفوه ؛ ولا عيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل المجهود ، وإن الكامل مربوط بما مُنِح من العطيّة من غير طلب .

وأمّا قوله في صدر كلامه : « إن القوم صدّوا عن الطريق وطرحوا الشوك فيه ، واتّخذوا نشر الحكمة فخًا للمَثالة[1] العاجلة » ، فما أبعَد ، بل قارب الحقّ فإن مَتّى[2] كان يُملي ورقةً بدرهم مقتدريّ وهو سكرانُ لا يعقل ، ويتهكّم ، وعنده أنه في ربح ، وهو من الأخسرين أعمالا ، الأسفلين أحوالا .

ثم إنّي أيّها الشيخ — أحياك الله لأهل العلم وأحيَى بك طالبيه — ذكرتُ (٢)
للوزير مناظَرةً جرت في مجلس الوزير أبي الفتح [الفضل بن[4]] جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السيرافيّ وأبي بِشْر[5] متّى واختصرتُها ؛ فقال لي : اكتب هذه

(١) المثالة : حسن الحال ؛ ومنه قولهم : كلما زدتَ مثالة ، زادك الله رعالة ؛ والرعالة : الحمق .
(٢) « متى » .
(٣) انظر التعريف بأبي سعيد السيرافي في الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٥ من هذا الجزء .
(٤) هاتان الكلمتان لم تردا بالأصل وقد أثبتناهما عن معجم ياقوت . وأبو الفتح هذا كان وزير المقتدر الخليفة العباسي سنة عشرين وثلاثمائة .
(٥) موضع هذا الاسم حروف مطموسة في الأصل ؛ وقد أثبتناه هكذا نقلا عن المقابسات وأخذا من الكلام الآتي . وأبو بشر متّى ، هو ابن يونس القُنّائي من أهل دَيْر قُنَّى . كان=

المناظرة على التمام فإنّ شيئاً يجرى فى ذلك المجلس النبيهِ بين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغى أن يُغتنمَ سماعُه، وتُوعَى فوائده، ولا يُتهاوَنَ بشىء منه. فكتبتُ[١]: حدّثنى أبو سعيد بلُمَع من هذه القصّة. فأما على بن عيسى الشيخ الصالح فإنّه رواها مشروحة.

لما انعقد المجلس سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير ابن الفرات للجماعة — وفيهم الخالدىّ وابن الأخشاد والكتبىّ وابن أبى بشر وابن رَباح وابن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهرىّ وعلى بن عيسى الجرّاح وابن فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمى وابن يحيى العلوىّ ورسول ابن طغج من مصر والمرزبانىّ صاحب آل سامان[٢] — : ألا[٣] ينتدب منكم إنسان لمناظرة متّى فى حديث المنطق، فإنه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحقّ من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشرّ والحجّة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناه[٤] من المنطق وملكناه من القيام به، واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه. فأحجم القوم وأطرقوا. قال ابن الفرات: والله إن فيكم لمَنْ يفى بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه وإنى لأعُدّكم فى العلم بحارا، وللدّين وأهلِه أنصارا، وللحق وطُلّابه منارا؛ فما هذا الترامز والتغامزُ اللّذان[٥] تَجِلّون عنهما؟ فرفع أبو سعيد السيرافىّ رأسه فقال: أعذِر أيّها الوزير، فإن العلمَ المصون فى الصدر غيرُ العلم المعروض فى هذا

= نصرانيا عالما بالمنطق، وإليه انتهت رآسة المنطقيين فى زمنه، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة، وكانت وفاته فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

(١) «وكنت».

(٢) «ساسان».

(٣) «أن ينتدب».

(٤) «جربناه».

(٥) فى الأصل: «اللذين».

المجلس على الأسماع المُصيخة (١) والعيون المحدِقة والعقول الحادّة (٢) والألباب الناقدَة ؛ لأن هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مَكسَرة ، ويجتلب الحياء ، والحياء مَغلَبة ؛ وليس البِراز فى معركة خاصّة كالمِصاع (٣) فى بقعة عامّة .

فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد ، فاُعتذارك عن غيرك يوجب عليك الأنتصار لنفسك ، والأنتصار فى نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك .

فقال أبو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسَمه هُجْنة ، والاُحتجازُ عن رأيه إخلاد إلى التقصير ؛ ونعوذ بالله من زَلّة القَدَم ، وإياه نسأل حُسنَ المعونة فى الحرب والسِّلْم ؛ ثم واجه متّى [فقال (٤)] : حدِّثنى عن المنطق ما تَعنِى [به] ؟ فإنا إذا فهمنا مرادَك فيه كان كلامُنا معك فى قبول صوابه وردّ خطئه على سَنَنٍ مَرضِيّ وطريقة معروفة .

قال متّى : أعنى به أنّه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسدُ المعنى من صالحه ، كالميزان ، فإنّى أعرف به الرُّجحان من النقصان ، والشائل (٥) من الجانح .

فقال أبو سعيد : أخطأتَ ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرَف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنّا نتكلّم بالعربيّة ؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرَف بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل ؛ وهَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من

---

(١) « المطنبة » .

(٢) فى الأصل : « الجامة » وهو تحريف . وفى معجم الأدباء ترجمة أبى سعيد السيرافى : الجامدة ؛ وهو تحريف أيضا لا يستقيم به المعنى ، ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٣) المصاع : من صاع الشجاع أقرانه : إذا حمل عليهم ففرق جمعهم .

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « والسائل » بالسين المهملة ؛ وهو تصحيف . والشائل : المرتفع . والجانح : المائل .

طريق الوزن ، فمن لكَ[١] بمعرفة الموزون أيّما[٢] هو حديد أو ذهب أو شَبَه[٣] [أو رَصاص][٤] ؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون و إلى معرفة قيمتِه وسائر صفاته التي يطول عَدُّها ؛ فعلى هـذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادُك ، وفى تحقيقه كان اجتهادُك ، إلاّ نفعا يسيرا من وجه واحد ، و بقيتْ عليك وجوه ، فأنت[٥] كما قال الأوّل[٦] :

* حفظتَ شيئا وغابت عنك أشياء *

و بعد ، فقد ذهب عليك شيء هاهنا ، ليس كلُّ ما فى الدنيا يوزَن ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يُذْرَع ، وفيها ما يُمسَح و [فيها ما][٧] يُحزَر وهذا و إن كان هكذا فى الأجسام المرئيّة ، فإنّه على ذلك أيضا فى المعقولات المقرّرة ؛ والإحساسات[٨] ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه المحفوظ والمماثَلة الظاهرة . ودع هذا ؛ إذا كان المنطقُ وَضَعَه[٩] رجل من يونانَ على لغة أهلها واصطلاحِهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم التُّركَ والهندَ والفُرسَ والعرب أن ينظروا فيـه و يتخذوه قاضيا وحَكَما لهم وعليهم ، ما شهد لهم به قبلوه ، وما أنكره رفضوه ؟

---

(١) « من ذلك » .
(٢) «إنما» .
(٣) الشبه بالتحريك : النحاس الأصفر .
(٤) الكلمة التى بين مربعين عن ياقوت .
(٥) فى الأصل : « قال » ؛ وهو تحريف .
(٦) هو أبو نواس ؛ وأول البيت : فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة * حفظت شيئا الخ .
(٧) لم ترد هـذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات لأبى حيان .
(٨) « والاحتباس ظلال العقول تحكيها » .
(٩) « وصفه » .

قال متّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق بَحْثٌ[1] عن الأغراض المعقولة والمعانى المدرَكة ، وتصفّح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة ؛ والناس فى المعقولات سواء ألا ترى أنّ أربعةً وأربعة [ثمانية] سواء عند جميع الأمم ، وكذلك ما أشبهه .

قال أبو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكوراتُ باللفظ ترجع مَعَ شُعَبِها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البيّنة فى أربعة وأربعة وأنّهما ثمانية ، زال الاختلاف وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موّهت بهذا المثال ، ولكم عادة بمثل هذا التمويه ؛ ولكن مع هذا أيضا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى المدرَكة لا يوصل إليها إلا[2] باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ قال : نعم . قال : أخطأتَ ، قل فى هذا الموضع : بلى . قال : بلى ، أنا أقلّدك فى مثل هذا . قال : انت إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق ، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانيّة وأنت لا تعرف لغة يونانَ ، فكيف صرتَ تدعونا إلى لغة لا تفى بها ؟ وقد عَفَتْ منذ زمان طويل ، وباد أهلُها ، وانقرض القومُ الّذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها ؛ على أنّك تَنقُل من السريانية ، فما تقول فى معان متحوّلة[3] بالنقل من لغة يونانَ إلى لغةٍ أخرى سريانيّة ، ثم مِن هذه إلى أخرى عربية ؟

قال متّى : يونان وإن بادت مع لغتها ، فإن الترجمة حَفظت الأغراض ، وأدّت المعانى ، وأخلصت الحقائق .

---

(١) « يحث » .

(٢) ورد فى الأصل بعد قوله : « إلا » جيم وألف وذال ، وهى زيادة من الناسخ . والصواب حذفها .

(٣) « مملوكة » .

الخالقة ، وأنّهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدَروا ، ولو قصَدوا أن يكذبوا ما أستطاعوا وأنّ السكينــة نزلت عليهم ، والحقّ تكفّل بهم ، والخطأ تبرّأ منهم ؛ والفضائلَ لصقت بأصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدتْ من جواهرهم وعروقِهم ؛ وهذا جهلٌ ممّن يظنّه بهم ، وعنادٌ ممن يدّعيه لهم ؛ بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون فى أشياء ويخطئون فى أشيــاء ، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء ، ويَصدُقون فى أمور ويَكذِبون فى أمور ، ويُحسِنون فى أحوال ويسيئون فى أحوال ؛ وليس واضع المنطق يونانُ بأسرها ، إنما هو رجل منهم ، وقد أخذ عمّن قبله كما أخذ عنه مَن بعده ؛ وليس هو حجّةً على هذا الخَلق الكثير والجمّ الغفير ، وله مخالِفون منهم ومن غيرهم ؛ ومع هــذا فالأختلاف فى الرأى والنظر والبحث والمسألة والجواب سِنْخٌ[1] وطبيعة ، فكيف يجوز أن يأتىَ رجل بشىء يرفع به هذا الخلاف أو يحلحله أو يؤثّر فيه ؟ [هيهات[2]] هذا محال ، ولقــد بقىَ العالَم بعد منطقه على ما كان عليه قبل منطقه ؛ فأمسح وجهك بالسلوة عن شىء لا يستطاع لأنّه منعقد بالفِطرة والطباع ؛ وأنت لو فرّغتَ بالك وصرفتَ عنايتك إلى معرفة هذه اللّغة التى تَحاورنا بها ، وتَجارينا فيهــا ، وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها وتشرح كتبَ يونانَ بعادة أصحابها ، لعلمتَ أنّك غنىّ عن [معانى[3] يونان كما أنك غنىّ عن لغة] يونان .

وهاهنا مسألة ، تقول : إن الناس عقولهم مختلفة ، وأنصباؤهم منها متفاوتة . قال : نعم . قال : وهذا الأختلاف والتفاوتُ بالطبيعة أو بالأكتساب ؟ قال : بالطبيعة . قال : فكيف يجوز أن يكون هاهنا شىء يرتفع به هذا الأختلاف

(١) السنخ : الأصل . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط .
(٢) الكلمة التى بين مربعين عن معجم الأدباء .
(٣) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات ص ٣

قال أبو سعيد : إذا سلّمنا لك أنّ الترجمة صدقتْ وما كذبتْ ، وقوّمتْ وما حرّفتْ ، ووَزنتْ[(١)] وما جَزَفت ، وأنها [ما][(٢)] ألتاثت ولا حافَت ، ولا نقصتْ ولا زادت ، ولا قدّمتْ ولا أخّرت ، ولا أخلّت بمعنى الخاصّ والعامّ ولا [بأخصّ الخاصّ[(٣)] ولا] بأعمّ العامّ — وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو فى طبائع اللغات ولا فى مقادير المعانى — فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلاّ ما أبرزوه .

قال متّى : لا ، ولكنّهم من بين الأمم أصحابُ عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالَم وباطنِه ، وعن كلّ ما يتّصل به وينفصل عنه ، و بفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وأنتشر ما أنتشر وفشا ما فشا [ونشأ ما نشأ] من أنواع العلم وأصناف الصنائع ؛ ولم نجد هذا لغيرهم .

قال أبو سعيد : أخطأتَ وتعصّبت ومِلتَ مع الهوى ، فإنّ عِلمَ العالَم مبثوث فى العالَم بين جميع من فى العالَم ، ولهذا قال القائل :

العلم فى العالم مبثوث   ونحوَه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع مَن على جَدَدِ[(٤)] الأرض ؛ ولهذا غَلب علمٌ فى مكان دون عِلم ، وكثرتْ صناعة فى بقعة دون صناعة ؛ وهذا واضح والزيادة عليه مَشغَلة ؛ ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت يونانُ معروفةً من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفِطْنة الظّاهرة ، والبِنية

(١) فى الأصل : « ووريت وما حزفت » ، وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين . يقال جزف فلان الشىء ، أى باعه أو اشتراه جزافا بلا كيل ولا وزن .
(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل .
(٣) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٤) الجدد بالتحريك : ما استوى من الأرض . وفى الأصل « جديد » ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق .

الطبيعىّ والتفاوت الأصلىّ ؟ قال متّى : هذا قد مر فى جملة كلامك آنفا . قال أبو سعيد : فهل وصلتَه بجواب قاطع و بيانٍ ناصع ؟ ودَع هذا ؛ أسألك عن حرف واحد ، وهو دائر فى كلام العرب ، ومعانيه متميِّزة عند أهل العقل ؛ فاُستخرج أنت معانيَه من ناحية منطق أرسطاطاليس الّذى تُدِلّ به وتُباهِى بتفخيمه ، وهو (الواو) ما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبُهِت متّى وقال : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقىّ إليه ، وبالنحوىّ حاجة شديدة إلى المنطق ، لأنّ المنطق يبحث عن المعنى (١) [والنحو يبحث (٢) عن اللفظ] ، فإن مر المنطقىّ باللفظ فبالعَرَض ، و إن عَثَر النحوىُّ بالمعنى فبالعَرَض والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى .

فقال أبو سعيد : أخطأتَ ، لأن الكلام (٣) والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاُستخبار (٤) والعَرْض [والتَّمنِّى (٥)] والنهى والحضّ والدعاء والنداء والطلب كلُّها من وادٍ واحد بالمشاكلة والمماثلة ، ألا ترى أنّ رجلا لو قال : « نطق زيد بالحقّ ولكن ما تكلّم بالحق ، وتكلّم بالفُحش ولكن ما قال الفُحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، وأبان المراد ولكن ما أوضَح ، أو فاهَ بحاجته ولكن ما لَفَظ ، أو أخبَر ولكن ما أنبأ » ، لكان فى جميع هذا محرِّفا ومناقِضا وواضعا للكلام فى غير حقّه ، ومستمِلا اللّفظ على غير

(١) فى الأصل : « اللفظ » ؛ وهو تبديل من الناسخ لا يستقيم به المعنى .

(٢) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل ، وقد أثبتناها عن المقابسات ، إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٣) فى المقابسات : « لأن النحو والمنطق » .

(٤) الظاهر أن فى قوله « والاستخبار » تبديلا من الناسخ صوابه « والإنباء » بدليل قوله فى التمثيل الآتى « أو أخبر ولكن ما أنبأ »

(٥) الكلمة التى بين مربعين عن معجم الأدباء .

شهادة [من] عقله[١] وعقلِ غيره ؛ والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ، ولكنه مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعيّ والمعنى عقليّ ؛ ولهذا كان اللفظ بائدا على الزمان ، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة [بأثر آخر[٢] من الطبيعة] ولهذا كان المعنى ثابتا على الزمان ، لأن مستملَى المعنى عقل ، والعقل إلهيّ ؛ ومادّة اللفظ طينيّة ، وكلّ طينيّ متهافِت ؛ وقد بقيتَ أنت بلا اسم لصناعتك التي تنتحلها ، وآلتِك التي تزْهَى بها ، إلا أنْ تستعير من العربيّة لها أسما فتُعار ، ويسلَّم لك ذلك بمقدار ؛ وإذا لم يكن لك بدّ من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة[٣] فلا بدّ لك أيضا من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثّقة والتوقّي من الخلّة اللاحقة .

فقال متّى : يكفينى من لغتكم هذه الأسم والفعل والحرف ، فإنى أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذّبتْها لى يونان .

قال [أبو سعيد] : أخطأت ، لأنك فى هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائِها على الترتيب الواقع فى غرائز أهلها ؛ وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف ، فإن الخطأ والتحريف فى الحركات كالخطأ والفساد فى المتحرّكات ، وهذا باب [أنت[٤] وأصحابُك ورهطُك عنه فى غفلة ؛ على أنّ هاهنا سرًّا ما عَلِق] بك ، ولا أسفر لعقلك ؛ وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تُطابِق[٥] لغةً أخرى من جميع جهاتها بحدود

(١) « وغفلة » .
(٢) العبارة التى بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء .
(٣) « التجربة » .
(٤) هذا الكلام الذى بين هذين المربعين لم يرد فى الأصل ؛ وقد أثبتناه عن المقابسات .
(٥) « تناطق » .

صفاتها ، فى أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها ، وأستعارتها وتحقيقها ، وتشديدها وتخفيفها ، وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ، ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ وما أظنّ أحدا يدفع هذا الحكم أو يشكّ فى صوابه ممن يرجع إلى مُسكةٍ من عقل أو نصيبٍ من إنصاف ، فمن أين يجب أن تَثِق بشىء تُرجِم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوجُ منك إلى تعرّف المعانى اليونانيّة ؛ على أنّ المعانىَ لا تكون يونانيّة ولا هنديّة ، كما أنّ اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركيّة ؛ ومع هذا فإنّك تزعم أن المعانىَ حاصلة بالعقل والفحص والفكر ، فلم يبق إلاّ أحكام اللغة ، فلِمَ تُزرى على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها ، مع جهلك بحقيقتها ؟

وحدّثنى عن قائل قال لك : حالى فى معرفة الحقائق والتصفح لها [والبحثِ عنها[1]] حالُ قومٍ كانوا قبل واضع المنطق ، أنظر كما نظروا ، وأتدبّر كما تدبّروا ، لأنّ اللغة قد عرفتُها بالمنشأ والوراثة ، والمعانى نقّرتُ عنها بالنظر والرأى والأعتقاب والاجتهاد . ماتقول له ؟ أتقول : إنّه لا يصحّ له هذا الحُكم ولا يستتبّ هذا الأمر ، لأنه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التى عرفتَها أنت ؟ ولعلّك تفرح بتقليده لك — وإن كان على باطل — أكثرَ مما تفرح باستبداده وإن كان على حقّ ؛ وهذا هو الجهل المبين ، والحُكم المَشين[2] .

ومع هذا ، فحدّثنى عن الواو ما حكمه ؟ فإنى أريد أن أبيّن أنّ تفخيمك للمنطق لا يغنى عنك شيئا ، وأنت تجهل حرفا واحدا فى اللغة التى تدعو بها إلى

(١) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن معجم الأدباء لياقوت والمقابسات للمؤلف .

(٢) فى رواية أخرى « غير المستبين » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

حكمة يونان ، ومَن جهل حرفا أمكن أن يجهل حروفا ، ومن جهــل حروفا جاز أن يجهل اللغة بكمالها ، فإن كان لا يجهلها كلَّها ولـكن يجهل بعضها ، فلعلّه يجهل ما يَحتاج إليه ، ولا ينفعه فيه علم ما لا يَحتاج إليه . وهذه رتبة العامّة أو رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير ؛ فلِمَ يتأبّى على هذا ويتكبّر ، ويَتوهّم أنه من الخاصّة وخاصّةِ الخاصّــة ، وأنه يعرف سرَّ الكلام وغامض الحـكمة وخفىَّ القياس وصحيحَ البرهان ؟

وإنما سألتك عن معــانى حرف واحد ، فـكيف لو نثرتُ عليك الحروف كلَّها ، وطالبتُك بمعانيها ومواضعها التى لهــا بالحق ، والّتى لها بالتجوّز ؛ سمعتكم تقولون : إن « فى » لا يعرف النحويّون مواقعها ، وإنما يقولون : هى « للوعاء » كما [يقولون] : « إنّ الباء للإلصاق » ؛ وإن « فى » تقال على وجوه : يقال « الشىء فى الإناء » « والإناء فى المكان » « والسائس [فى السياسة] » والسياسة فى السائس » .

أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها ؟ ولا يجوز أن يُعقَل هذا بعقول الهند والترك والعرب ؟ فهذا جهلٌ من كلّ من يدّعيه ، وخطَلٌ من القول الّذى أفاض فيه ؛ النحوىُّ إذا قال « فى » للوعاء[١] فقد أفصح فى الجملة عن المعنى الصحيح ، وكَنَى مع ذلك عن الوجوه التى تظهر بالتفصــيل ؛ ومثل هذا كثير ، وهو كافٍ فى موضع التَّـكْنِيَة[٢] .

فقال ابن الفرات : أيّها الشيخ الموفَّق ، أجبه بالبيان عن مواقع « الواو »

(١) فى الأصل : « للوما » وما أثبتناه عن المقابسات ص ٢٧ إذ به يستقيم الـكلام .
(٢) فى الأصل : « التبكيت » وفى المصــادر الأخرى « السكت » ؛ وفى كلا اللفظين تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

حتى تكون أشدّ فى إخامه ، وحقّق عند الجماعة ماهو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنَّع(١) به .

فقال أبوسعيد : للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف فى قولك : « أكرمت زيدا وعَمرا » ومنها القسم فى قولك : « والله لقد كان كذا وكذا » ومنها الاستئناف فى قولك : « خرجتُ وزيد قائم » لأن الكلام بعدَه ابتداء وخبر ومنها معنى رُبَّ التى هى للتقليل نحو قولهم(٢) : * وقاتِمِ الأعماق خاوى المخترَق * ومنها أن تكون أصلية فى الأسم ، كقولك : واصِلٌ واقِدٌ وافِدٌ ، وفى الفعل كذلك ، كقولك : وَجِل يَوْجَل ؛ ومنها أن تكون مقحَمة نحو قول الله عزّ وجل . (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ) ، أى ناديناه ؛ ومِثْلُه قول الشاعر(٣) :

* فلما أجزنا ساحةَ الحيّ وانتحَى * المعنى : انتحَى بنا ؛ ومنها معنى الحال فى قوله عز وجل : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً) أى يكلّم الناس فى حال كهولته ؛ ومنها أن تكون بمعنى حرف الجرّ ، كقولك : استوى الماء والخشبةَ أى مع الخشبة .

فقال ابن الفرات : [لمتّى] : يا أبا بشر : أكان هذا فى نحوك(٤) .

ثم قال أبو سعيد : دع هذا ، هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلىّ أكثرُ من علاقتها بالشكل اللفظى ، ماتقول فى قول القائل : « زيد أفضل الإخوة » ؟

(١) فى الأصل والمقابسات « متشبع » . وفى معجم ياقوت « متشيع » . وفى كلا اللفظين تصحيف .

(٢) هذا الشطر من شعر رؤبة بن العجاج .

(٣) هذا الشطر صدر بيت لامرئ القيس ، وعجزه :

بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل .

(٤) فى المقابسات « فى منطقك » ؛ وهى أنسب .

قال : صحيح . قال : فما [تقول(١) إن قال « زيد أفضلُ إخوته » ؟ قال : صحيح . قال : فما] الفرق بينهما [مع الصّحّة(٢)] فبَلَحَ(٣) وجَنَح وغصّ بريقه .

فقال أبو سعيد : أفتيتَ على غير بصيرة ولا أستبانة ؛ المسألة الأولى جوابُك عنها صحيح و إن كنتَ غافلا عن وجه صحّتها ؛ والمسألة الثانية جوابُك عنها غيرُ صحيح و إن كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متّى . بيّن لى ما هذا التهجين ؟

قال أبو سعيد : إذا حضرتَ الحَلْقة(٤) استفدتَ ، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس ، مَع من عادته التمويه والتشبيه ؛ والجماعة تعلم أنّك أخطأتَ ، فلِمَ تدّعى أن النحوىّ إنما ينظر فى اللّفظ دون المعنى ، والمنطقىّ ينظر فى المعنى لا فى اللفظ ؟ هذا كان يصحّ لو أنّ المنطقىّ كان يسكت ويجيل(٥) فكرَه فى المعانى ، ويرتّب ما يريد بالوهم السانح والخاطرِ العارض والحَدْس الطارىء ؛ فأمّا وهو يريغ أن يبرّر(٦) ماصح له بالاعتبار والتصفّح إلى المتعلّم والمُناظِر ، فلابدّ له من اللفظ الّذى يشتمل على مراده ، ويكون طِباقا لغرضه ، وموافقا لقصده(٧) .

قال أبن الفرات لأبى سعيد : تَمّم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرةً لأهل المجلس ، والتبكيتُ عاملا فى نفس أبى بشر .

---

(١) هذه العبارة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات وبها يستقيم المعنى .

(٢) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .

(٣) بلح : أعيى وعجز . وجنح ، أى مال .

(٤) « المختلفة » .

(٥) « ويجيد »

(٦) « يزن » .

(٧) « لضده » .

فقال : ما أكرهُ من إيضاح الجواب عن هـذه المسألة إلاّ مَلَلَ الوزير ؛ فإن الكلام إذا طال مُلّ .

فقال ابن الفرات : مارغبتُ في سماع كلامك وبيني وبين المَلَلِ عَلاقة ؛ فأما الجماعة فحرصُها على ذلك ظاهر .

فقال أبو سعيد : إذا قلت : « زيد أفضل إخوتِه » لم يجز ، وإذا قلت : « زيدأفضل الإخوة » جاز ؛ والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غيرُ زيد ، وزيدٌ خارج عن جملتهم . والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال : « من إخوة زيد » . لم يجز أن تقول : زيد وعمرو وبكر وخالد [وإنما[1] تقول : بكر وعمرو وخالد] ولا يدخل زيدٌ في جملتهم ، فإذا كان زيد خارجا عن إخوته صار غيرهم ، فلم يجز أن تقول : أفضل إخوته ، كما لم يجز أن تقول : « إن حمارك أفرهُ[2] البغال » لأن الحمير غير البغال ، كما أن زيدا غيرُ إخوته ، فإذا قلت : « زيد خير الإخوة » جاز ، لأنّه أحد الإخوة ، والاسم يقع عليه وعلى غيره ، فهو بعض الإخوة ، ألا ترى أنه لو قيل : « مَن الإخوة » ؟ عددتَه فيهم ، فقلتَ : « زيد وعمرو وبكر وخالد » فيكون بمنزلة قولك : « حمارك أفرهُ الحمير » لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير . فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس ، فتقول : « زيد أفضل رجل » و« حمارك أفرهُ حمار » فيدلّ « رجل » على الجنس كما دلّ الرجال ؛ وكما في « عشرين درهما ومائة درهم » .

فقال ابن الفرات : ما بعد هذا البيان مزيد ، ولقد جلّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار .

(١) هذه العبارة التي بين مربّعين لم ترد في الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات إذ بها يستقيم الكلام .

(٢) في المقابسات « أفضل » ؛ والمعنى عليها يستقيم أيضا .

فقال أبو سعيد : معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، و بين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخّى الصواب فى ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك ، و إن زاغ شىء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم . فأما ما يتعلّق باختلاف لغات القبائل فذلك شىء مسلّم لهم ومأخوذ عنهم ، وكلّ ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطّرد على الأصل المعروف من غير تحريف ، و إنما دخل العُجب على المنطقيّين لظنهم أن المعانىَ لا تُعرَف ولا تُستوضَح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلّفهم ، فترجموا لغةً هم فيها[١] ضعفاء ناقصون . وجعلوا تلك الترجمة صناعة ، وادّعوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى .

ثم أقبل أبو سعيد على متّى فقال : أما تعرف[٢] يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفتْ بمراتب ، وتقول[٣] بالمثل : هذا ثوب والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوبا ، لأنّه نُسجَ بعد أن غزل ، فسَداته لا تكفى دون لُحْمته ولُحْمتُه لا تكفى دون سَداته ، ثم تأليفه[٤] كنسجه ، و بلاغتُه كقِصارته[٥] ورقّةُ سِلْكِه كرِقّة لفظه ، وغِلَظُ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كلّه ثوب ، ولكن بعد تقدمة كلّ ما يُحتاج إليه فيه .

قال ابن الفرات : سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى ، فإن هذا كلّما توالى

(١) عبارة الأصل : « فترجموا لغتهم فهما » ؛ وهو تحريف .
(٢) رواية المقابسات : « ألا تعلم » والمعنى عليه يستقيم أيضا .
(٣) عبارة المقابسات : « مثال ذلك أن تقول » والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٤) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « بالنقل » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : « لنضارته » ؛ وهو تحريف .

عليه بأن انقطاعُه ، وانخفض ارتفاعه ، فى المنطق الّذى ينصره ، والحقّ الذى [لا[١]] يُبصره .

قال أبو سعيد : ما تقول فى رجل يقول : « لهذا علىّ درهم غير قيراط ؛ ولهذا الآخر علىّ درهم غيرُ قيراط » . قال : مالى علم بهذا النَّمط . قال : لست نازعا عنك حتى يصحّ عند الحاضرين أنّك صاحب مخرقة وزَرْق[٢] ، هاهنا ما هو أخفّ من هذا ، قال رجل لصاحبه : « بكم الثوبان المصبوغان » ، وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغان » وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغين » بيّن هذه المعانى التى تضمّنها لفظٌ لفظ .

قال متّى : لو نثرتُ أنا أيضا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالى .

قال [أبو سعيد] : أخطأت ، لأنك إذا سألتنى عن شىء أنظر فيه ، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظُه على العادة الجارية أجبتُ ، ثمّ لا أبالى أن يكون موافقا أو مخالفا ، وإن كان غير متعلّق بالمعنى رددتُه عليك ، وإن كان متّصلا باللفظ ولكن على وَضْعٍ لكم فى الفساد على ما حشوتم به كتبَكم رددتُه أيضا لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة فى لغة مقرّرة بين أهلها .

ما وجدنا لكم إلاّ ما أستعرتم من لغة العرب [كالسبب والآلة[٣]] والسّلْب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمَل والمحصور وأمثلة لا تنفع ولا تُجدِى ، وهى إلى العِىّ أقرَب ، وفى الفهاهة أذهَب .

---

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٢) يريد بالزرق : الخداع كما يستفاد من كتب اللغة فقد ورد فى اللسان ومستدرك التاج « رجل زراق » ، أى خداع . ولم يذكر فى هذين الكتابين فعله ولا مصدره .
(٣) الزيادة التى بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء .

ثم أنتم هؤلاء فى منطقكم على نقصٍ ظاهر ، لأنكم لا تفُون[1] بالكتب ولاهى مشروحة ، فتدّعون الشِّعر ولاتعرفونه[2] وتذكرون[3] الخَطابة وأنتم عنها فى منقطَع التراب ؛ وقد سمعتُ قائلكم يقول : الحاجة ماسّة إلى كتاب البرهان . فإن كان كما قال فلِمَ قُطِع الزمانُ بما قبله من الكتب ، وإن كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان ، فهى أيضا ماسّةٌ إلى ما بعد البرهان ، وإلاّ فلِم صُنِّف مالا يُحتاج إليه ويُستغنى عنه . هذا كلّه تخليط وزَرْق وتهويل ورعد وبرق .

وإنما بودّكم[4] أن تَشغَلوا جاهلا ، وتستذلّوا عزيزا ؟ وغايتكم أن تهوّلوا بالجنس والنوع والخاصّة والفصل والعَرَض والشخص ، وتقولوا : الهَليّة[5] والأَينيّة والماهيّة والكيفيّة والكَمّيّة والذاتيّة والعَرَضيّة والجوهريّة والهَيُولِيّة والصورية والأيْسية[6] واللَّيسيّة والنفسيّة ؟ ثم تتطاولون[7] فتقولون : « جئنا بالسِّحْر » فى قولنا : « لا » فى شىء من « ب » و « ج » فى بعض « ب » ، ف « لا » فى بعض « ج » و « لا » فى كلّ « ب » و « ج » فى كل « ب » فإذن « لا » فى كل « ج »[8] ؛ هذا بطريق الخُلف ، وهذا بطريق الاُختصاص .

---

(١) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « تقولون » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « تذكرونه » ؛ وما أثبتناه عن المقابسات .

(٣) فى المقابسات « وتدعون » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٤) فى الأصل : « قولكم » ؛ وهو تحريف .

(٥) الهلية والأينية : نسبة إلى « هل » و « أين » الاستفهاميتين ؛ والنسبة فى الألفاظ التى بعدها معروفة .

(٦) الأيسية والليسية : الإثبات والنفى .

(٧) فى المقابسات : « يتمطون » أى بتشديد الطاء .

(٨) كذا فى الأصل ، ولعل صحة العبارة : لا « ا » فى شىء من « ب » و « ج » فى بعض « ب » ف « ا » إذن لا فى « ج » و « ا » لا فى كل « ب » و « ج » فى بعض « ب » ف « ا » إذن ليس فى « ج » كما يقتضيه علم المنطق .

وهذه كلها خُرافات وتُرّهات ، ومغالق وشبكات ؛ ومن جاد عقله وحَسُن تمييزه ولَطُف نظره وثقُب رأيه وأنارت نفسُه أستغنى عن هـذا كلّه — بعون الله وفضله — وجُودةُ العقل وحُسنُ التمييز ولُطف النظر وثقوب الرأى و إنارةُ النفس من منائح الله الهنيّة ، ومواهبه السنيّة ، يختصّ بها من يشاء من عباده وما أعرف لأستطالتكم بالمنطق وجها ، وهذا الناشئ أبو العباس قد نقَض عليكم وتتبع طريقتكم ، و بيّن خطأكم ، وأبرز ضَعفَكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردّوا عليه [كلمة واحدة[1]] ممـا قال ، وما زدتم[2] على قولكم : لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا ، وإنّما تكلّم على وهم . وهذا منكم تحاجُزٌ ونُكول ورضًى بالعجز وكُلول ، وكلُّ ما ذكرتم فى الموجودات فعليكم فيه[3] أعتراض هذا قولكم فى « يَفعل و ينفعل » لم تستوضحوا فيهما مراتبَهما ومواقعَهما ، ولم تقفوا على مَقاسِمهما ، لأنّكم قنِعتم فيهما بوقوع الفعل من « يَفعل » وقبول الفعل من « يَنفعل » ، ومن وراء ذلك غاياتٌ خفيت عليكم ، ومعارفُ ذهبت عنكم وهذا حالكم فى الإضافة .

فأما البدل ووجوهه ، والمعرفةُ وأقسامُها ، والنكرة ومراتبها ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، فليس لكم فيه مقال و [لا] مجال .

وأنت إذا قلتَ لإنسان . « كن منطقيا » ، فإنما تريد : كن عقليّا أو عاقلا أو أعقِل ما تقول[4] لأنّ أصحـابك يزعمون أن النّطق هو العقل ؛ وهذا قولٌ مدخول ، لأن النطق على وجوه أنتم عنها فى سَهو .

(١) العبارة التى بين مربعين عن المقابسات .
(٢) فى الأصل : « زدتكم » والكاف زيادة من الناسخ .
(٣) « عليه » .
(٤) « مايكون » .

وإذا قال لك آخر: «كن نحويًّا لغويًّا فصيحا» فإنما يريد: افهم عن نفسك ما تقول، ثم رُمْ أنْ يَفهم عنك غيرُك.

وقدِّر اللفظَ على المعنى فلا يَفضُل عنه، وقدِّر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه؛ هذا إذا كنتَ فى تحقيق شىء على ما هو به. فأمَّا إذا حاولتَ فَرْش المعنى وبَسْطَ المراد فاجْلُ اللفظ بالروادف الموضِّحة والأشباه المقرِّبة، والاستعارات المُمتعة، وبيِّن[1] المعانىَ بالبلاغة، أعنى لوِّحْ منها لشىء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشَّوق إليها، لأن المطلوب إذا ظُفِر به على هذا الوجه عزَّ وحلا، وكَرُم وعلا؛ واشرح منها شيئا حتّى لا يمكن أن يُمترى [فيه] أو يُتعَبَ فى فهمه أو يُعرَّجَ عنه لأغتماضه؛ فهذا المذهب يكون جامعا لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق؛ وهذا بابٌ إن أستقصيتُه خرج عن نَمَط ما نحن عليه فى هذا المجلس؛ على أنّى لا أدرى أيؤثِّر فيك ما أقول أو لا؟

ثم قال: حدِّثنا هل فصلتم [قطُّ] بالمنطق بين مختلفَين، أو رفعتم الخلافَ بين أثنين؛ أتُراك بقوّة المنطق وبرهانِه اعتقدتَ أن الله ثالثُ ثلاثة، وأن الواحد أكثرُ من واحد، وأن الذى هو أكثر من واحد هو واحد، وأن الشرع ما تذهب إليه، والحقّ ما تقوله[2]؟ هيهات، هاهنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابِك وهذيانِهم، وتدِقُّ عن عقولهم وأذهانِهم.

ودَعْ هذا، هاهنا مسألة قد أُوقعتْ خلافا، فارفع ذلك الخلاف بمنطقك.

قال قائل: «لفلانٍ مِن الحائط إلى الحائط» ما الحكم فيه؟ وما قَدْرُ المشهود به لفلان؟ فقد قال ناس: له الحائطان معا وما بينهما. وقال آخرون:

(١) فى معجم الأدباء: «وسدد».

(٢) «ما هو له».

له [النصف من كلٍّ منهما . وقال آخرون[١] : له] أحدهما . هات الآن آيتك الباهرة ، ومعجزتك القاهرة ، وأنَّى لك بهما ، وهذا قد بان بغير نظرِك ونظرِ أصحابك .

ودع هذا أيضا ؛ قال قائل : « مِن الكلام ما هو مستقيم حَسَن ، ومنه ماهو مستقيم محال ، ومنه ما هو مستقيم قبيح ، ومنه ما هو محال كذب ، ومنه ما هو خطأ » . فسِّر هذه الجملة . واعترض عليه عالمٌ آخرُ ، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترِض وأرِنا قوّةَ صناعتك التى تميِّز [بها] بين الخطأ والصواب ، و بين الحقّ والباطل ؟ فإن قلتَ : كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعتُ مقالتَه ، والآخرُ لم أحصِّل اعتراضَه ؟ قيــل لك : استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملا له ، ثم أوضح الحقّ منهما ، لأن الأصل مســمو ع لك ، حاصلٌ عندك وما يصحّ به أو يَرِدُ عليه يجب أن يظهر منك ، فلا تتعاسَرْ[٢] علينا ، فإن هذا لا يخفى على [أحد[٣] من] الجماعة .

فقد بان الآن أنّ مركَّب اللفظ لا يَحُوز مبسوط العقل ؛ والمعـانى معقولة ولها اتّصال شديد و بساطة تامّة ؛ وليس فى قوّة اللفظ من أىّ لغة كان أن يَملك ذلك المبسوط ويحيطَ به ، ويَنصِبَ عليه سُورا ، ولا يَدَعُ شيئا مِن داخلِه أن يخرج ، ولا شيئا من خارجه أن يَدخل ، خوفا من الاختلاط الجالبِ للفساد ، أعنى أنّ ذلك يَخلِط الحقّ بالباطل ، ويشبِّه الباطلَ بالحقّ ؛ وهذا الذى وقع الصحيحُ منه فى الأوّل قَبْلَ وضع المنطق ، وقد عاد ذلك الصحيح فى الثانى بعد[٤] المنطق ؛

(١) التكملة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٢) « تتفلسف » .
(٣) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « على من حضرته » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به معنى الجملة .
(٤) فى المقابسات « بهذا » .

وأنت لو عرفتَ تصرُّف العلماء والفقهاء فى مسائلهم ، ووقفتَ على غَوْرهم فى نظرِهم وغَوْصِهم فى استنباطهم ، وحُسْنِ تأويلِهم لِمَا يَرِدُ عليهم ، وسَعةِ تشقيقهم للوجوه المحتَملة والكنايات المفيدة والجهاتِ القريبة والبعيدة ، لحقَّرْتَ نفسَك ، وأزدريتَ أصحابَك ، ولَكان ما ذهبوا إليه وتابَعوا عليه أقلَّ فى عينك من السُّها عند القمر ، ومن الحصا عند الجبل . أليس الكِنْدىُّ وهو عَلَمٌ فى أصحابك يقول[1] فى جواب مسألة « هذا[2] من باب عدّ » . فعَدَّ الوجوه بحسب الأستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب ، حتّى وضعوا له مسائلَ من هذا الشكل وغالطوه بها وأرَوْه أنّها من الفلسفة الداخلة ، فذهب عليه ذلك الوضع ، فاعتقد فيه أنّه [صحيح وهو[3]] مريض العقل فاسد المزاج حائلُ الغريزة مشوَّشُ اللُّب .

قالوا له : أخبرنا عن أَصْطِكاكِ[4] الأجرام ، وتَضاغُط الأركان ؟ هل يدخل فى باب وجوب الإمكان ؟ أو يخرج من باب الفُقْدان إلى ما يَخفَى عن الأذهان ؟

وقالوا له أيضا : ما نسبة الحركات الطبيعيّة إلى الصُّوَر الهَيُولانيّة ؟ وهل هى ملابسة للكيان فى حدود النظر والبيان ، أو مزايلةٌ لَه مزايَلة على غاية الإحكام ؟

وقالوا له : ما تأثير فِقْدان الوِجدان فى عدم الإمكان عند أمتناع الواجب من وجوبه فى ظاهرِ مالا وجوب له لاستحالته فى إمكان أصله ؟ وعلى هذا فقد حُفظ جوابُه عن جميع هذا على غاية الرَّكاكة والضَّعف [والفساد] والفسالة

(١) فى الأصل : « يقولون » ، والواو والنون زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : « عدم » ، وفى بعض المصادر الأخرى « عدة » وهى غير واضحة المعنى فى كلتا الروايتين ؛ ولعلّ الصواب ما أثبتنا .

(٣) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « استفصائك » ؛ وهو تحريف .

والسُّخف . ولولا التوقّي من التطويل لسردتُ ذلك كلَّه ، ولقد مرّ بي في خَطِّه : التفاوت في تلاشي الأشياء غيرُ مُحاطٍ به ، لأنَّه يلاقي الاختلاف في الأصول والاتفاقَ في الفروع ؛ وكلُّ ما يكون على هذا النّهج فالنَّكِرة تُزاحِم عليه المعرفة ، والمعرفةُ تُناقِض النَّكِرة ، على أنّ النَّكِرة والمعرفةَ من باب الألبِسةِ العاريةِ من ملابس الأسرار الإلهيّة ، لا من باب الإلهيّة العارضةِ في أحوال البشرية .

ولقد حدثنا أصحابُنا الصابئون عنه بما يُضحِك الثكْلَى ويُشْمِت العدوّ ويغُمّ الصّديق ، وما وَرِث هذا كلّه إلاّ من بركات يونانَ وفوائد الفلسفة والمنطق ونسأل الله عصمة وتوفيقا نهتدي بهما إلى القول الراجع إلى التحصيل ، والفعلِ الجاري على التعديل ، إنّه سميع مجيب .

هذا آخرُ ما كتبتُ عن عليّ بن عيسى الرّمّاني الشيخِ الصالحِ بإملائه . وكان أبو سعيد قد رَوَى لُمَعا من هذه القصّة .

وكان يقول : لم أحفظ عن نفسي كلّ ما قلتُ ، ولكن كتب ذلك أقوامٌ حَضروا في ألواحٍ كانت معهم ومحابرُ أيضا ؛ وقد أُختلّ عليّ كثير منه .

قال علي بن عيسى : وتقوّض المجلس وأهلُه يتعجّبون من جأش أبي سعيد الثابت ولسانِه المتصرف ووجهِه المتهلّل وفوائدِه المتتابعة .

وقال الوزير ابن الفرات : عينُ الله عليك أيّها الشيخ ، فقد نَدَّيْت أكبادا وأقررتَ عيونا ، وبيّضتَ وجوها ، وحُكْتَ طِرازا لا يبليه الزمان ، ولا يتطرّق إليه الحدثان .

قلت لعلي بن عيسى : وكم كانت سِنُّ أبي سعيد[1] في ذلك الوقت ؟

(١) في الأصل : « علي بن عيسى » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

قال : مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يومَ المُناظَرة أربعون سنة ، وقد عَبِثَ الشَّيب بلَهازمه[١] مع السَّمْت والوَقَار والدِّين والجِدّ ، وهذا شِعار أهل الفضل والتقدّم ، وقلّ من تظاهر به أو تحلّى بحليته إلا جلّ فى العيون وعظم فى النفوس ، وأحبّته القلوب ، وجرت بمدحه الألسنة .

وقلت لعلىّ بن عيسى : أما كان أبو علىّ[٢] الفَسَوىُّ النحوىُّ حاضرَ المجلس ؟ قال : لا ، كان غائبا ، وحُدِّث بما كان ، فكان يكتم الحَسَد لأبى سعيد على ما فاز به من هذا الخَبَر المشهور ، والثناء المذكور .

فقال لى الوزير[٣] عند منقطَع هذا الحديث : ذكَّرتنى شيئا قد دار فى (٣)
نفسى مرارا ، وأحببت أن أقف على واضِحه ؛ أين أبو سعيد من أبى علىّ ، وأين علىّ بنُ عيسى منهما ، وأين ابنُ المراغىّ أيضا من الجماعة ؟ وكذلك المَرْزُبانىّ وابن شاذان وابن الورّاق وابن حَيّويه ؟

فكان من الجواب ، أبو سعيد أجمَعُ لشمل العلم ، وأنظَمُ لمذاهب العرَب وأدخَلُ فى كلّ باب ، وأخرَجُ من كلّ طريق ، وألزَمُ للجادّة الوسطى فى الدِّين والخُلُق ، وأروَى فى الحديث ، وأقضَى فى الأحكام ، وأفقهُ فى الفتوى ، وأحضَرُ بركةً على المختلفة ، وأظهَرُ أثرا فى المقتبسة . ولقد كتب إليه نوح بن نصر — وكان من أدباء ملوك آل سامان — سنة أربعين[٤] كتابا خاطبه فيه بالإمام

(١) اللهازم : جمع لهزمة بكسر اللام ، وهى مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن ؛ أو هى العظم الناتئ فى اللحية تحت الأذن ، وهما لهزمتان ؛ ويريد هنا الشعر النابت عليهما .

(٢) أبو على الفسوى ، هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسى النحوى ، ولد بمدينة فسا سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان إمام وقته فى علم النحو وله فيه كثير من المؤلفات الوافية النافعة ، وتوفى فى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة .

(٣) يريد الوزير أبا عبد الله العارض .

(٤) أى وثلاثمائة .

وسأله عن مسائلَ تزيد على أربعمائة مسألة ، الغالب عليها الحروف ، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شكَّ فيها فسأل عنها ؛ وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب الوزير البَلْعَمِيّ خاطبه فيه بإمام المسلمين ، ضمّنه مسائل فى القرآن وأمثالا للعرب مشكِلة .

وكتب إليه المَرْزُبان بن محمد ملِكُ الدَّيْلَم مِن أَذْربيجانَ كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سأله عن مائة وعشرين مسألة ، أكثرها فى القرآن ، وباقى ذلك فى الروايات عن النبى صلّى الله عليه وسلّم وعن أصحابه رضوان الله عليهم .

وكتب إليه أبن حِنْزَابة من مصر كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، وسأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروىّ عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم وعن السلف .

وقال لى الدارقُطْنىّ سنة سبعين : أنا جمعتُ ذلك لأبن حِنزَابة على طريق المعونة .

وكتب إليه أبو جعفر ملِكُ سجستان على يد شيخِنا أبى سليمان كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفَرْد ، سأله عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائةِ كلمة فى العربية وثلاثمائة بيت من الشعر ، هكذا حدّثنى به أبو سليمان ؛ وأربعين مسألة فى الأحكام وثلاثين مسألة فى الأصول على طريق المتكلّمين .

قال لى الوزير : وهذه المسائل والجواب عنها عندك ؟ قلتُ : نعم . قال : فى كم تقع ؟ قلتُ : لعلّها تقع فى ألف وخمسمائة ورقة ، لأنّ أكثرها فى الظهور . قال : ما أحوَجَنا إلى النظر فيها والأستمتاع بها والأُستفادة منها ! وأين الفراغ وأين السكون ؟ ونحن كلّ يوم نُدفَع إلى طامّةٍ تُنسِى ما سلف ، وتُوعِد بالداهية

اللّهم هذه ناصيتى بيدك ، فتولّنى بالعصمة ، وأخصصنى بالسلامة ، وأجعل عقباىَ إلى الحسنى .

ثم قال : صل حديثك .

قلت : وأما أبو علىّ[1] فأشدّ تفرّدا بالكِتاب[2] وأشدُّ إكبابا عليه ، وأبعَدُ من كلّ ما عداه ممّا هو عِلمُ الكوفيّين ، وما تَجاوَزَ فى اللّغة كُتُبَ أبى زيد ، وأطرافا ممّا لغيره ؛ وهو متّقِد بالغيظ على أبى سعيد ، و بالحسد له ، كيف تمّ له تفسيرُ كتاب سيبويه من أوّله إلى آخره بغريبه وأمثاله وشواهده وأبياته (ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء) ، لأنّ هذا شىء ما تمّ للمبرّد ولا للزّجاج ولا لابن السّرّاج ولا لأبن درستويه مع سعة علمهم ، وفيضِ كلامهم .

ولأبى علىّ أطراف من الكلام فى مسائلَ أجاد فيها ولم يَأْتَلِ ، ولكنه قَعد على الكتاب[3] على النَّظْم المعروف .

وحدّثنى أصحابُنا أن أبا علىّ أشترى شرحَ أبى سعيد فى الاهواز فى توجّهه إلى بغداد سنة ثمان وستين — لاحقا بالخدمة المرسومة به ، والنّدامة[4] الموقوفة عليه — بألنى درهم ؛ وهذا حديث مشهور ، وإن كان أصحابُه يأبَون الإقرار به إلاّ من زعم أنّه أراد النقض عليه ، وإظهارَ الخطأ فيه .

وقد كان الملِك السعيد — رضى الله عنه — همّ بالجمع بينهما فلم يُقضَ له ذلك ، لأنّ أبا سعيد مات فى رجب سنة ثمان وستّين وثلاثمائة .

---

(١) يريد أبا على الفسوىّ السابق ذكره .

(٢) يريد بالكتاب كتاب سيبويه .

(٣) يريد بالكتاب كتاب سيبويه . يقول : إنه اقتصر على دراسته على الطريقة المعروفة .

(٤) الندامة ، أى المنادمة على الشراب ، بدليل ما يأتى بعد فى سطر (١) من صفحة ١٣٢ .

وأبو عليّ يشرب ويتخالع ويفارق هَدْىَ أهل العلم وطريقةَ الربانيين[١] وعادةَ المتنسّكين .

وأبو سعيد يصوم الدهر ، ولا يصلّى إلّا فى الجماعة ، ويقيم على مذهب أبى حنيفة ، ويلى القضاء سنين ، ويتألّه[٢] ويتحرّج ، وغيرُه بمَعزِل عن هذا ؛ ولولا الإبقاء على حُرْمة العِلم ، لكان القلم يجرى بما هو خافٍ ويخبر بما هو مُجَمْجَم[٣] ولكنّ الأخذ بحكم المروءة أولى ، والإعراض عما يجلب اللائمة أحرَى .

وكان أبو سعيد حَسَنَ الخطّ ، ولقد أراده الصَّيْمَرِىُّ أبو جعفر على الإنشاء والتحرير فاستعفَى وقال : هذا أمر يُحتاج فيه إلى دُرْبة وأنا عارٍ منها ، وإلى سياسةٍ وأنا غريب فيها * ومِن العَناء رياضةُ الهَرِم *

وحدّثنا النَّصْرى[٤] أبو عبد الله — وكان يكتب النوبة للمهلّبىّ — بحديث مفنّد[٥] لأبى سعيد هذا موضعه ، قال : كنتُ أخطّ بين يدى الصَّيْمَرِىّ أبى جعفر محمد بن أحمد بن محمّد ، فالتمسنى يوما لأن أجيب ابن العميد أبا الفضل عن كتاب فلم يجدنى ، وكان أبو سعيد السيرافىُّ بحضرته ؛ فظَنّ[٦] أنّه بفضل عِلمه أقومُ بالجواب من غيره ، فتقدّم إليه أن يكتب ويجيب ، فأطال فى عمل نسخة كثُر فيها الضرب والإصلاح ، ثم أخذ يحرّر ، والصَّيْمَرِىُّ يقرأ ما يكتبه ، فوجده مخالفا

(١) الربانى : المتألّه العارف بالله . وفى الأصل : « الديانين » ولم نجده فى كتب اللغة بهذا المعنى .

(٢) يتأله ، أى يتعبد ويتنسك .

(٣) مجمجم : من جمجم الكلام فى نفسه إذا لم يبينه يريد به المستتر الخاف .

(٤) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٣ طبع الحلبى . والذى فى الأصل : البقرى ؛ وهو تحريف .

(٥) « معد » .

(٦) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٢ طبع الحلبى . والذى فى الأصل : «فبان» .

لجارى العادة لفظا ، مباينا لما يريده(١) ترتيبا .

قال : ودخلت فى تلك الحال ، فتمثّل الصَّيْمَرِىُّ بقول الشاعر :

يا بارىَ القوسِ بَرْيا ليس يُصلِحه ... لا تَظلِم القوسَ ، أعطِ القوسَ باريها

ثم قال لأبى سعيد : خفِّفْ عليك أيّها الشيخ وادفع الكتاب إلى أبى عبد الله تلميذك ليجيب عنه ، فخجل من هذا القول ، فلمّا ابتدأتُ الجواب من غير نسخة تحيّر منّى أبو سعيد ، ثم قال : أيّها الأستاذ ، ليس بمستنكَرٍ ما كان منّى ، ولا بمستكثَرٍ ما كان منك ، إنّ مال الفَىْء لا يصحّ فى بيت المال إلاّ بين مستخرِجٍ(٢) وجَهْبَذٍ ، والكتّاب جَهابذةُ الكلام ، والعلماء مستخرجوه . فتبسّم الصَّيْمَرِىُّ وأعجبه ما سمع ، وقال : على كلّ حال ما أخليتَنا من فائدة .

وكان أبو سعيد بعيدَ القَرِين ، لأنّه كان يُقرأ عليه القرآنُ والفقهُ والشروطُ والفرائض والنحو واللغة والعَروض والقوافى والحسابُ والهندسة والحديث والأخبار وهو فى كل هذا إمّا فى الغاية وإمّا فى الوسط .

وأما على بن عيسى(٣) فعالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعَروض والمنطق ، وعِيبَ به ، إلا أنّه لم يَسلُك طريقَ واضع المنطق ، بل أفرَدَ صناعة ، وأظهرَ براعة ، وقد عمل فى القرآن كتابا نفيسا ، هذا مع الدِّين الثخين ، والعقل الرزين .

وأمّا ابن المراغىّ(٤) فلا يَلحَق بهؤلاء ، مع براعة اللفظ ، وسعة الحِفظ ، وعزّة

(١) فى معجم الأدباء : « لمأثورة » .

(٢) مستخرج الأموال ، أى جابيها ومحصّلها . والجهبذ : الناقد العارف بالجيد والردىء .

(٣) يريد بعلى بن عيسى أبا الحسن الرمانى وهو إمام فى العربية ، كان علامة فى الأدب ، إماما فى النحو ، بصيرا بالمقالات ، معتزليا ، مات سنة ٣٨٤ .

(٤) ابن المراغى هو أبو الفتح محمد بن جعفر الهمدانى وكان معلما فى دولة أبى منصور ، وكان حافظا نحويا بليغا إخباريا فى نهاية الشرف والحرية ؛ وله من الكتب كتاب البهجة على مثال كتاب الكامل .

النفس ، و بلل(١) الريق ، وغزارة النَّفْث ، وكثرة الرواية ؛ ومن نظر فى كتاب البهجة له عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف ، ونَحَلَ(٢) أكثر ممّا أبذُل .

وأما المرزُبانىّ(٣) وأبن شاذان وأبن القِرْمِسِينىّ وأبن حَيَّوَيْه(٤) فهم رواة وحَمَلة ليس لهم فى ذلك نَقْطٌ ولا إعجام ، ولا إسراج ولا إلجام .

(٤) فقال : فصِلْ حديثك [عن(٥)] هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء ، صف لى جماعتهم ، وأذكر لى بضاعتهم ، وما خصّ كلَّ واحد منهم . قلتُ : لست من الشعر والشعراء فى شىء ، وأكره أن أخطو على دَحْض(٦) ، وأحتسىَ غير محض . قال : دع هذا القول ، فما خُضْنا فى شىء إلى هذا الوقت إلاّ على غاية ما كان فى النفس ، ونهاية ما أفاد من الأنس ، فكان من الوصف :

أمّا السَّلاَمِىّ(٧) فهو حلو الكلام ، متّسق النظام ، كأنّما يَبسِم عن ثغر الغمام خفىُّ السرقة ، لطيفُ الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المَغارس ، جميلُ الملابس ؛ لكلامِه لَيْطَةٌ(٨) بالقلب ، وعبثٌ بالرُّوح ، و بَرْدٌ على الكبِد .

---

(١) بلل الريق : كناية عن الاتساع فى الكلام .

(٢) « نحل » الخ أى أضاف إليه من الفضائل أكثر مما أبذل فى وصفه .

(٣) المرزبانى ، هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، أصله من خراسان ، كان من الأدباء الاخباريين المصنفين ، وله كتب كثيرة فى الأدب والتاريخ عدّها صاحب الفهرست وقال : إنه كان صادق الهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع ، ومات سنة ٣٧٨ .

(٤) ابن حيويه ، هو محمد بن حيويه بن المؤمل ، عالم نحوى من أهل همذان مات سنة ٣٧٢ .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى صل .

(٦) على دحض ، أى على مزلقة ومزلّة للأقدام .

(٧) السلامى : من أشعر أهل العراق ، عربى الأصل من بنى مخزوم ، ولد بكرخ بغداد سنة ٣٣٦ واتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما ، وقد روى له صاحب اليتيمة كثيرا من شعره ، مات سنة ٣٩٤ .

(٨) ليطة بالقلب ، أى التصاق به وتعلق .

وأمّا الحاتميّ[١] فغليظ اللفظ، كثير العُقَد، يحبُّ أن يكون بدويا قُحًّا، وهو لم يَتِمّ حَضَريًّا؛ غزيرُ المحفوظ، جامعٌ بين النظم والنثر، على تشابهٍ بينهما في الجفوة[٢] وقلّة السّلاسة، والبعدِ من المَسْلوك، بادي العورة فيما يقول، لكأنّما يُبرِز ما يُخفي، ويكدِّر ما يُصفي، له سَكْرة في القول إذا أفاق منها خَمِر[٣] وإذا خُمِر سَدِر[٤]؛ يتطاول شاخصا، فيتضاءل متقاعِسا؛ إذا صدق فهو مَهِين، وإذا كَذَب فهو مَشِين.

وأما ابن جَلَبات[٥] فمجنون الشّعر، متفاوت اللّفظ، قليل البديع، واسع الحيلة، كثير الزَّوَق[٦]، قصير الرِّشاء[٧]، كثير الغُثاء[٨]؛ عَزَّهُ نَفاقُه[٩] ونَفَّقَهُ نِفاقُه.

---

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمي، مدح الخليفة القادر بالله؛ وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى بينه وبين المتنبي، مات سنة ٣٨٨.

(٢) عبارة الأصل: «على تشابه بينهما في الهوة وقلة السياسة والبعد من الشكوك»؛ وفي هذا الكلام تحريف لا يستقيم به المعنى في ثلاثة ألفاظ؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٣) خمر، أي أصيب بالخمار، وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر. والكلام هنا على طريق الاستعارة.

(٤) سدر: تحير. أو لم يبال ما صنع ولم يهتم. وكلا التفسيرين يستقيم به المعنى.

(٥) في الأصل: «ابن الحليات»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا. وهو أبو القاسم علي بن جلبات، ذكره صاحب اليتيمة في الجزء الثاني ص ٢٧٠ وروى شيئاً من شعره.

(٦) في الأصل: «الرزق»؛ وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا، فانه بصدد الكلام في الشعر لا في الرزق. والزوق بالتحريك: جمع زاووق، وهو ما يحسن به الشيء ويزين، والمراد هنا ما يحسّن به الشعر تحسينا ظاهريا. والزاووق في الأصل: الزئبق، وكان يدخل في التصاوير، ولذلك قالوا لكل مزين: مزوق.

(٧) الرشاء: الحبل الذي يستقى به، والمراد هنا قصر باعه في الشعر وقصوره عن الإطالة.

(٨) الغثاء في الأصل: البالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل. ويريد به هنا ما لا فائدة فيه، ولا يعتد به.

(٩) النفاق بفتح النون: الرواج. ونفّقه بتشديد الفاء: روّجه. والمراد رواج شعره وانتشاره بين الناس، وعبارة الأصل: «عزّه بفاقة وتفقه بفاقة» وفي كلتا الجملتين تصحيف. هذا إلى أنهما على هذا الوضع لا يستقيم بهما السجع الذي يريده المؤلف كما يظهر.

وأمّا الخالع (١) فأديب الشّعر ، صحيحُ النّحت ، كثيرُ البديع ، مستوى (٢) الطريقة ، متشابهُ الصّناعة ، بعيدٌ من طَفْرة المتحيّز ، قريبٌ من فرصة المتخيّر ؛ كان ذو الكفايتين يقدّمه بالرّىّ ، ويقبله على النّشر والطّىّ .

وأمّا مَسْكُويه (٣) فلطيف اللفظ ، رَطْبُ الأطراف ، رقيق الحواشى ، سهلُ المأخذ ، قليلُ السّكْب ، بطىءُ السّبْك ؛ مشهورُ المعانى ، كثير التوانى ؛ شديدُ التّوقّى ، ضعيفُ الترقّى ؛ يَرِدُ أكثرَ ممّا يَصدُر ، ويَتطاوَلُ جُهده ثم يَقصُر ؛ ويطير بعيدا ويقع قريبا ، ويَسقى من قبل أن يَغرِس ، ويَمتَحُ (٤) من قبل أن يُميه ؛ وله بعد ذلك مآخذُ كَشَدْوٍ (٥) من الفلسفة ، وتأتٍّ (٦) فى الخدمة ، وقيامٍ برسوم النّدامة (٧) ؛ وسُنّة (٨) فى البخل ، وغرائبُ من الكذب ؛ وهو حائل (٩) العقل لشَغفه بالكيمياء .

وأمّا ابن نُباتة (١٠) فشاعر الوقت ، لا يَدفَع ما أقول إلاّ حاسد أو جاهل

(١) هو أبو على الحسن بن على الخالع شاعر من شعراء الوزير أبى نصر سابور بن أزدشير وهو من شعراء اليتيمة .

(٢) فى الأصل : « مستوسق » ، وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « متشابه » الخ .

(٣) انظر التعريف به فى ص ٣٢ رقم ٥ .

(٤) متح الدلو ومتح بها : استخرجها من البئر عند الاستقاء ، وأماه الحافر إماهة : بلغ الماء واستخرجه من الأرض . والكلام كله جار على طريق الاستعارة ، يشير بهذه العبارة والتى قبلها إلى أنه يقدم ما حقّه التأخير والعكس .

(٥) شدا شدوا ، أخذ طرفا من العلم والأدب .

(٦) التأتى : التلطف .

(٧) الندامة بكسر النون : حرفة المنادمة على الشراب .

(٨) « وثيقة » .

(٩) حائل العقل ، أى متغير متحول من الاستواء إلى العوج .

(١٠) ابن نباتة السعدى ، هو عبد العزيز بن محمد بن نباتة من شعراء سيف الدولة بن حمدان ، واتصل كذلك بابن العميد ومدحه ؛ ولد سنة ٣٢٧ ومات ببغداد سنة ٤٠٥ .

أو معانِد ، قد لَحِق عصابةَ (سيف الدولة) وعَدَا معهم ووراءهم ، حَسَنُ الحَذْوِ على مثال سكّان البادية ، لطيفُ الأُنْام بهم ، خفيُّ المَغاص فى واديهم ، ظاهرُ الإطلال على ناديهم ؛ هذا مع شُعْبة من الجنون وطائفٍ من الوَسْواس .

وأمّا ابن حجّاج[1] فليس من هذه الزُّمْرة بشىء ، لأنّه سخيفُ الطريقة بعيدٌ من الجِدّ ، قَريعٌ فى الهزل ؛ ليس للعقل من شِعره مَثال[2] ، ولا له فى قَرْضِه[3] مِثال ؛ على أنّه قويم اللفظ ، سهلُ الكلام ، وشمائلُه نائيَةٌ بالوَقار عن عادته الجارية فى الخَسار ؛ وهو شريك ابن سُكَّرة فى هذه الغَرامة[4] ؛ وإذا جَدّ أفْتَى ، وإذا هَزَل حَكَى الأفعى .

وله مع ذى الكفايتين مناظَرة طيّبة . قال : ما هى ؟ قلتُ : لما ورد ذو الكفايتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أفتَكين[5] ، وكان من الحديث ما هو مشهور ، سأل عن ابن حجاج — وكان متشوقا له لِمَا كان يُقرَأ عليه مِن قَوافيه[6] ، فأحَبّ أن يلقاه ، لأنّه ليس الخبر كالمعايَنة ، والمسموع والمبصَر كالأنثى والذكر ؛ يَنزِع كلٌّ واحد منهما إلى تمامه ؛ فلمّا حضره أبو عبد الله أحتبسَه للطعام ، وسمع كلامَه ، وشاهَدَ سَمْتَه ، واستَحلَى شمائله ، فقام

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج ، شاعر ماجن فى شعره مشهور ، اتصل بالوزير المهلبي وسابور بن أزدشير وعضد الدولة وابن عباد وابن العميد ، لشعره منتخبات فى اليتيمة وفى المتحف البريطانى وفى مكتبة باريس ؛ وقد مات سنة ٣٩١ .

(٢) « مثال » .

(٣) « عرضته » .

(٤) الغرامة : الخسران .

(٥) فى الأصل : « الوركين » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن الكامل لابن الأثير وغيره .

(٦) فى الأصل : « من فيه » بسقوط القاف والواو والألف ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ به يستقيم الكلام .

من مجلسه ؛ فلمّا خلا به قال : يا أبا عبد الله ، لقد والله تهتُ[١] عجبا منك ، فأمّا عجَبي بك فقد تقدّم ؛ لقد كنت أَقْلِي ديوانَك ، فأتمنّى لقاءك ، وأقول : مَن صاحب هذا الكلام ، أطْيَشُ طائش ، وأخفُّ خفيف ، وأغرَمُ غارم ؛ وكيف يجالَس من يكون في هـذا الإهاب ؟ وكيف يقارَب من ينسلخ من ملابس الكتّاب وأصحابِ الآداب ؛ حتّى شاهدتُك الآن ، فتهالكتُ على وقارك وسكونِ أطرافِك ، وسكوت لفظِك ، وتناسُبِ حركاتِك ، وفرطِ حيائك وناضرِ ماء وجهك ، وتعادُلِ كُلِّكَ[٢] وبعضِك ؛ وإنك لمن عجائب خَلْقِ الله وطُرَفِ عباده[٣] ؛ والله ما يصدّق واحد أنّك صاحب ديوانِك ، وأنّ ذلك الديوان لك ، مع هذا التنافي الّذي بين شِعرِك وبينَك في جِدّك . فقال أبو عبد الله : أيها الأستاذ ، وكان عجبي منك دون عجبك مني ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك . قال : لأني قلت : إذا ورد الأستاذ فسألقَى منه خُلُقا جافيا وفَظّا[٤] غليظا وصاحب رواسير[٥] وآكِل كوامخ[٦] وجبليّا دَيْلميّا متكائبا متعاظما ، حتى رأيتُك الآن وأنت ألطف من الهواء ، وأرقُّ من الماء ، وأغزَلُ من جميل[٧] بن مَعمَر ، وأعذَبُ من الحياة ، وأرزَنُ من الطَّوْد ، وأغزَرُ من

(١) تهت ، أي تحيرت .
(٢) في الأصل : « نجلك » ؛ وهو تحريف .
(٣) في الأصل من هذه الكلمة العين والباء ، ورسمت اماء بعيدة عنها .
(٤) « وعفطا » .
(٥) في الأصل : « رواصير » .
(٦) الكوامخ : جمع كامخ بفتح الميم ، وهو إدام يؤتدم به يقال له : المرّيّ ، ويقال : هو الرديء منه ؛ وقيل : هو خبز بخلّ معرّب « كامه » بالفارسية ؛ وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشهّي الطعام .
(٧) جميل بن معمر ، هو المعروف بجميل بثينة العذري .

البحر ، وأبهى من القمر ، وَأَندَى من الغَيث ، وأشجعُ من اللّيْث ، وأنطقُ من سَحْبان ، وأندَى من الغَمام ، وأنفَذُ من السّهام ، وأكبَرُ من جميع الأنام .

فقال أبو الفتح وتبسّم : هذا أيضا من ودائع[١] فضلِك ، وبواعثِ تفضّلك . ووصَلَه وصرَفَه .

قالَ[٢] : لم يكن هذا الحديث عندي .

وأما بشر بن هارون فليس من هـذه الطبقة في شيء ، لـكنه يَقرُص فيحُزُّ[٣] ويَشَمُّ فيهزّ ، ويجرح فيُجهِز ؛ والمَدْهُوُّون[٤] منه كثير ؛ « وأصحابنا[٥] يستحسنون قول ابن الحجاج في الوزير حين يقول :

لله دَرُّ الحسين من قمر رُدّت إليه وزارة الشمس

فقال : إن قبلتُ هذا منهم خفتُ أن يقال : مادح نفسه يقرئك السلام ؛ وما أصنع بهذا البيت وهو مضموم إلى كلّ بيت سخيف في القصيدة » .

ثم قال : وجب أن نصف قبل هذا عصابة العلماء ، فلِمَ تركنا ذكرهم ونحن (٥)
لا نخـلو في حديثهم من غُرّة لائحة ، وفائدة نافعة ، وصوابٍ زائد في العقل وفضيلة على الأدب ، وحِلمٍ يُزدان به في وقت الحاجة ، وحكمةٍ يستعان بها في داهِمَة ؛ ورأي يكون مَقيلا للتمييز عند تهجيرنا به .

---

(١) من ودائع فضلك ، أي من فضلك الذي تودعه لدينا فنحفظه لك ونؤديه إليك جزاء وفاقا .

(٢) قال ، أي الوزير أبو عبد الله العارض .

(٣) في الأصل : « يقرض فيخز » ، وهو تصحيف في كلتا الـكلمتين . ويريد بهذه العبارة والعبارتين اللتين بعدها أن أثره بالغ غايته في الهجاء .

(٤) المدهوون ، أي المبتلون بالدواهي منه .

(٥) الظاهر أن هـذا الـكلام الذي بين هاتين العلامتين مؤخر عن موضعه وموضعه الـكلام في ابن حجاج السابق ذكره إذ لا مناسبة بينه وبين ما هنا .

قلتُ : أما أبو عبد الله الجُعَل[١] فقد شاهدتَه . قال : صدقتَ ، ولكن لم أقف على مذهبه ودُخْلتِه وسيرته فى أعتقاده .

قلتُ : كان الرجل ملتهب الخاطر ، واسعَ أطراف الكلام ، مع غثاثة اللفظ ، وكان يرجع إلى قوّة عجيبة فى التدريس ، وطول نَفَس فى الإملاء ، مع ضيق صدر عند لقاء الخصم ومُعارَكةِ القِرْن ، بعيد العهد بالمِصاع والدفاع والوِقاع ؛ وكان سببُ هذا الجبن والخَوَر قلّةَ الضَّراوة على هذه الأحوال ؛ ولقد خَزِىَ فى مَشاهد عظيمة .

وأمّا يقينه فكان ضعيفا ؛ وأما سيرته فكانت واقفةً على حبّ الرياسة وبذل المال والجاه إذا حضرا ، مع تعصّب شديد لمن قدّمه وأحبّه ، وإنحاء مفرط على من عاداه ، وكان خَوضُه فى الدوَل والولايات — ولهذا رغب عنه[٢] الواسطىّ وكان أخا ورع ودين — وقال[٣] : هذا منفِّر[٤] عن الدين والمذهب ، ودافع[٥] للناس عن القول بالحق ، وطارح للشبهة فى القلوب .

وكان يجهر بهذا وأشباهه ، ولكن كان جاه الرجل لا يُنتقَص بهذا القدر وركنُه لا يتخلخل على هذا الهَدّ ، لأسباب انعقدت له ، وأصحاب ذبّوا عنه .

وأما ابن المَلّاح فشيخ حسن المعرفة بالمذهب ، شديد التوقّى ، محمود القناعة

(١) فى الأصل « جعل » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . والجعل ، هو أبو عبد الله الحسين بن علىّ ، أصله من البصرة وبها ولد سنة ٣٠٨ وانتهت إليه الرياسة فى علم الكلام فى عصره ، وكان كذلك فقيها ، وله كتب فى الكلام وكتب فى الفقه ، من أشهر كتبه فى الكلام كتاب نقض كلام الراوندى ونقض كلام الرازى . مات ببغداد سنة ٣٩٩ .

(٢) « فيه » .

(٣) وقال ، أى الواسطى .

(٤) « منفر » .

(٥) « ونافع » .

ظاهر الرضا ؛ تَدُل[١] سيرته الجميلة على أنّه حَسَن العقيدة .

وأما ابن المعلّم[٢] فحَسَن اللّسان والجَدَل ، صبور على الخصم ، كثيرُ الحيلة ظنينُ[٣] السرّ ، جميل العلانية .

وأمّا أبو إسحق النصيبي فدقيق الكلام ، يشكّ فى النبوّات كلّها ، وقد سمعتُ منه فيها شُبَها ، ولُغَتَه[٤] معقّدة ، وله أدب واسع ؛ ولقد أضلّ بهمذان كاتبَ فخر الدولة أبنَ المرزبان . وحمله على قلّة الأكتراث بظلم الرعيّة ، وأراه أنه لا حرج عليه فى غَبْنِهم لأنهم بهائم ، وما خرج من الجبل حتى أُفتضح .

وأما ابن خيران[٥] فشيخ لا يعدو الفقه ، وفيه سلامة .

وأما الدّارَكى[٦] فقد اتخذَ الشهادة مكسبَة ، وهو يأكل الدنيا بالدين ، ويغلب عليه اللّواط ، ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ؛ ولقد تهتّك بنَيْسابورَ قديما ، وببغداد حديثا ؛ هذا مع القَدامة والوخامة ؛ ولقد نَدّ بجُعْلِ[٧] غلام ، وهو اليوم قاضى الرى . وأبن عبّاد يَكنُفه ويقرّبه ليكون داعية له ونائبا عنه ، وليس له أصل وهو من سواد همذان ، وأبوه كان فلاّحا ، ولقد رأيتُه ، إلا أنّه يأتى لابن عباد فى سَمْتِه ولزوم ناموسه حتى خفّ عليه ، وهو اليوم قارون ؛ وقد علت رتبته فى

---

(١) « يدل » .

(٢) ابن المعلّم ، هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ، انتهت إليه رياسة الشيعة الإمامية فى الفقه والكلام والآثار ولد سنة ٣٣٨ .

(٣) ظنين ، أى متهم .

(٤) « ولقبه » .

(٥) هو أبو على الحسين بن صالح بن خيران ، أحد فقهاء عصره ، ألف فى الفقه كتاب « اللطيف » وكتاب « المقدمات » .

(٦) لعله يريد أبا القاسم الدارکى ، نسبة إلى دارك ، قرية فى أصفهان ، أحد فقهاء الشافعية وهو بغدادى ، أقام بنيسابور مدة ، وانتهى التدريس إليه ببغداد ، وأخذ عنه عامة شيوخها ؛ مات سنة ٣٧٥ .

(٧) فى الأصل : « ندر » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . وند : هرب .

الكلام حتى لا مزيد عليها ، إلا أنه مع ذلك نَغِلُ(١) الباطن ، خبيث الخبء ، قليل اليقين ؛ وذلك أن الطريقة التي قد لزموها وسلكوها لا تفضي بهم إلا إلى الشك والارتياب ، لأن الدِّين لم يأت بكَمٍّ وكَيْفٍ في كلِّ باب ، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصارِ الأثر ، مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر ؛ والقلبُ الخالي من الشبهة أسلم من الصدر المحشوّ بالشكّ والريبة ، ولم يأت الجَدَل بخير قطّ . وقد قيل : من طلب الدين بالكلام ألْحَد ، ومن تتبع غرائب الحديث كُذِب ، ومن طلب المال بالكيمياء أفتقر . وما شاعت هذه الوصيّة جُزافا ، بل بعد تجربة كرّرها الزمان ، وتطاولت عليها الأيام ؛ يتكلم أحدهم في مائة مسألة ويورد مائة حجّة ثم لا ترى عنده خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى ولا دَمعة ؛ وإن كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجّون ولا يناظِرون ولا يُكرَمون(٢) ولا يفضّلون خيرٌ من هذه الطائفة وألينُ جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله عزّ وجلّ ، وأذكَرُ للمَعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوَذُ(٣) بالله من صغير الذنب ، وأرجع إلى الله بالتوبة ؛ ولم أر متكلّما في مدّة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينُه خوفا ، أو أقلَع عن كبيرة رغبة ؛ يتناظرون مستهزئين ويتحاسدون متعصّبين ، ويتلاقَون متخادعين ، ويصنّفون متحاملين ؛ جذّ الله عروقهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ؛ فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم ؛ ودَبَّ داؤهم ، وعسر دواؤهم ؛ وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضِعا ، وساكنه متجعجِعا(٤) .

---

(١) « ثعل » . والنغل : الفاسد السيء .

(٢) « يلزمون ولا يتفضلون » .

(٣) هذه الكلمة مطموسة بالأصل .

(٤) متجعجعا ، أى ضاربا بنفسه الأرض من وجع .

قال : فما تقول فى ابن الباقلانى ؟ (١) . قلتُ :

فما شَرُّ(٢) الثلاثة أمِّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبَحينا

يزعم أنه ينصر السنّة ويُفحِم المعتزلة وينشر الرواية ؛ وهو فى أضعاف ذلك على مذهب الخُرَّميّة ، وطرائق الملحِدة . قال : والله إن هذا لمن المصائب الكبار والمِحَن الغلاظ ، والأمراض التى ليس لها علاج .

ثم قال : إنّ الليل قد ولّى ، والنعاس قد طرق العين عابثا ؛ والرأى أن نستجمّ لننشَط ، ونستريح لنتعب ؛ وإذا حضرت فى الليلة القابلة أخذنا فى حديث الخلق والخُلق — إن شاء الله — وأنا أزوّدك هذا الإعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العَتاد بعد اختياره فى صدرك ، وتَحيِيلَ الحالَ به عند خوضك وفيضك ولا تجبنْ جبن الضعفاء ، ولكن قُلْ واتّسع مجاهرا بما عندك ، منفقا ممّا معك . وانصرفتُ .

الليلة التاسعة

(١) وعدتُ ليلة أخرى فقال : فاتحةُ الحديث معك ، فهاتِ ما عندك . فكان من الجواب : أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلِفةٌ فى نوع الإنسان ، وذلك أن الإنسان صفوُ الجنس الذى هو الحيوان ، والحيوان كَدَرُ النوع الذى هو الإنسان والإنسان صفو الشخص الذى هو واحد من النوع ، وما كان صفوا ومُصاصا(٣) بهذا النظر انتظم فيه من كلّ ضرب من الحيوان خُلُق وخُلقان وأكثر ،

(١) ابن الباقلانى ، هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى أحد أعلام المتكلمين ، ومن أكبر أنصار مذهب الأشعرى ، ومؤلف كتاب « إعجاز القرآن » مات سنة ٤٠٣ .
(٢) البيت لعمرو بن كلثوم ؛ وهو هنا على طريق المثل .
(٣) المصاص : العصارة .

وظهر ذلك عليه وبطن[١] أيضا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف ، كالكُمُون الذى فى طباع السبع والفأرة ، والثباتِ الّذى فى طباع الذئب ، والتحرّز الذى فى طباع الجاسوس من بنات الليل ، والحذر الذى فى طباع الخنزير ، والتقدم الذى فى طباع الفيل أمام قطيعه تمثُّلا بصاحب المقدّمة .

وكذلك ضد ذلك فى الخنزير تمثُّلا بصاحب الساقة ، وكالحراسة التى فى طباع الكلب ، وكأوْب الطير إلى أوكارها التى تراها كالمعاقل وغيرها بالدَّغَل[٢] والأشَبِ والغِياض .

ولهذا قال بعض الحكماء : خذ من الخنزير بُكورَه فى الحوائج ، ومن الكلب نُصحَه لأهله ، ومن الهرّة لطفَ تَفْسها عند المسألة .

وقالت الترك : ينبغى للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنّن الدجاجة ، ونجدةُ الأسد ، وحَملة الخنزير ورَوغانُ الثعلب ، وصبرُ الكلب ، وحراسةُ الكرْكىّ ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسِمن بعروا[٣] ، وهى دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء .

ولما وُهِب الإنسان الفطرة[٤] ، وأُعِين بالفكرة ؛ ورُفِد بالعقل ، جمع هذه الخصال وما هو أكثر منها لنفسه وفى نفسه ، و بسبب هذه المزية الظاهرة فَضَل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير[٥] والإعْمال واستخراج المنافع منها و إدراكِ الحاجات بها ؛ وهذه المزية التى له مستفادة بالعقل ، لأن العقل ينبوع العلم ، والطبيعة ينبوع الصناعات ، والفكرُ بينهما مستملٍ منهما ومؤدٍّ بعضها

(١) « ويظن » .
(٢) الدغل والأشب : الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض .
(٣) كذا ورد اسم هذه الدابة فى الأصل . ولم نجده فيما بين أيدينا من الكتب .
(٤) « الفكرة » .
(٥) « بالتنجير والاقبال » .

إلى بعض بالفيض الإمكانى والتوزيع الإنسانى ؛ فصوابُ بديهةِ الفكرة من سلامة العقل ، وصوابُ روّية الفكرة من صحّة الطباع ، وصحّةُ الطباع من موافقة المزاج ، وموافقة المزاج بالمَدَد[1] الاتفاقى والاتفاقِ النبيىّ ؛ أعنى بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق ، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزّ وجلّ غيب ؛ فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق ، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب .

فانقسمت الأحداث [بين ما هو] [2] على جَديلة[3] واحدة معروفة ، وبين نادر لا يدوم العهد به ، فدلّ ما ظهر وأستمرّ على ما جاد به ووَهَب ، ودلّ ما غاب وأستتر على ما تَفرّد به وغَلَب .

ولما كان الحيوان كلّه يَعمل صنائعَه بالإلهام على وتيرة قائمة ، وكان الإنسان يتصرّف فيها بالأختيار ، صحّ[4] له من الإلهام نصيب حتى يكون رِفدًا له فى أختياره ، وكذلك يكون النحل أيضا ، صحّ له من الأختيار قسط فى إلهامه حتى يكون ذلك مُعيناً له فى اضطراره ، إلاّ أن نصيب الإنسان من الإلهام أقلّ كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أنْزَر[5] ؛ وثمرة أختيار الإنسانِ إذا كان مُعاناً بالإلهام أشرف وأدوَمُ وأَجْدَى[6] وأنفع وأبقى وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفوداً بالأختيار ، لأن قوّة الأختيار فى الحيوان كالحُلْم كما أن قوة الإلهام فى الإنسان كالظلّ .

ومراتب الإنسان فى العلم ثلاث تظهر فى ثلاثة أنفس ، فأحدهم مُلْهَم

(١) « الندد » .
(٢) هذه التكملة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيها .
(٣) الجديلة : الشاكلة يقال : هم على جديلة واحدة ، أى على شاكلة واحدة .
(٤) « وصح » .
(٥) « أكثر » .
(٦) « وأحدّ » .

فيتعلّم[١] ويعمل ، ويصير مبدأً للمقتبِسين منه ، المقتدِين به ، الآخذين عنه ، الحاذِين على مثاله ، المارِّين على غِراره ، القافِين على آثاره ؛ وواحد يتعلّم ولا يُلهَم فهو يماثل الأوّل فى الدرجة الثانية ، أعنى التعلّم ؛ وواحد يتعلّم ويُلهَم ، فتجتمع له هاتان الخَلّتان ، فيصير بقليل ما يتعلّم مُكثِرًا للعمل والسلمِ بقوّة ما يُلهَم ويعود بكثرة ما يلهم مصفّياً لكل ما يتعلّم ويعمل .

والكلام فى هذه المواضع ربّما جَمَح فلم يمكن كفُّه ، فينبغى أن يضح العذر إذا عرض تفاوُتٌ فى الترتيب ، ودخل الخَلَلُ من ناحية التقريب .

وقال أبو سليمان لنا فى هذه الأيام : [الإنسان[٢]] بين طبيعته وهى عليه وبين نفسه وهى له ، كالمنتهَب المتوزَّع ، فإن استمد من العقل نورَه وشعاعَه قوىَ ما هو له من النفس ، وضَعُف ماهو عليه من الطبيعة [وإلا فقد قَوِىَ ماهو عليه[٣] من الطبيعة] وضَعُف ما هو له من النفس .

وحَكى لنا فقال : كان للحكماء الأوّلين مَثَلٌ يضربونه ويكتبونه فى هَيَاكِلِهم ومتعبَّداتِهم وهو : « المَلَك الموكّل بالدنيا يقول : إنّ ههنا خيراً وههنا شرا ، وههنا ما ليس بخير ولا شر ، فمن عرف هذه الثلاثة حقّ معرفتها تخلّص منّى ، ونجا سليما ، وبقى كريماً ، وملك نعيا عظيما » .

ومن لم يعرفها قتلتُه شرّ قِتلة ، وذلك أنى لا أقتله قتلا وحيًّا[٤] يستريح به منّى ، ولكن أقتله أوّلاً فأوّلاً فى زمان طويل ، بحَسَرات على فَوْتِ مأمول

(١) فى الأصل : « فيلهم » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بدليل قوله بعد فى القسم الثانى « فهو يماثل الأول فى الدرجة الثانية أعنى التعلم » .
(٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٣) « له » .
(٤) وحيّا ، أى سريعاً .

بعد مأمول ، و بلايا يكون بها كالمغلول المكبول .

قال(١) : هذا كلام شريف فى أعلى ذروة الحكمة ، لكنّك خَلَّيْتَ يَدَكَ من طُرُف الحَديث فى الخُلُق . قلتُ : إذا طاب الحديث باُسترسال السجيّة ووقوع الطُّمأنينة لهَا الإنسانُ عن مباديه ، وسال مع الخاطر الّذى يستهويه ، ولِتحفُّظ الإنسان فى قوله وعمله من الخَطَل والزَّلَلِ حَدٌّ إذا بلغه كلّ الخاطر واُختلّ .

ثم نعود فنقول : أخلاق الإنسان مقسومة على أنفُسه الثلاث : أعنى النفسَ الناطقة ، والنفسَ الغضبيّة ، والنفسَ الشهوانيّة ، وسماتُ هذه الأخلاق مختلِفة بعَرْض واسع .

ويمكن أن يقال فى نعتها على مذهب التقريب : إنها بين المحمودة و بين المذمومة ، و بين المشوبة بالحمد والذمّ ، و بين الخارجة منهما . فمن أخلاق النفس الناطقة — إذا صفت —(٢) البحث عن الإنسان ثم عن العالَم ، لأنّه إذا عَرف الإنسانَ فقد عَرف العالَم الصغير ، و إذا عَرف العالَم فقد عَرف الإنسانَ الكبير ، وإذا عَرَفَ العالَمَين عرف الإله الّذى بجُودِه وُجِد ما وُجِد ، وبقدرته ثبَت ما ثبَت ، و بحكمته ترتّب ما ترتب ؛ و بمجموع هذا كلّه دام ما دام .

بهذا البحث يتبيّن له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوّة الشهويّة فإن توابع هاتين القوّتين أكثر ، لأنّهما بالتركيب أظهر ، وفى(٣) الكثرة أدخَل وعن الوحدة أخرَج ؛ فإذا ساسَتْهما الناطقة حَذَفتْ زوائدهما ، ونَفَتْ فواضِلَهُما

(١) قال ، أى الوزير .
(٢) « صفت » .
(٣) « وعن » .

ووَفّتْ نواقصهما ، وذيّلت قَوالِصَهما[١] أعنى إذا رأت غُلْمَةً فى الشهويّة أخمدتْ نارَها ، وإذا وجدت السّرَفَ[٢] فى الغضبيّة قصّرت عِنانها[٣] ؛ فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم ، فيعود السَّفَه حِلْما أو تحالُما ، والحسد غِبْطةً أو تغابُطا والغضبُ كظْما أو تكاظُما ، والغيُّ رُشْدًا أو تَراشُدا ، والطيشُ أناةً أو تآنيا[٤] وصَرّفتْ هذه الكوامنَ فى المَكامِن — إذا سارت سَوْرَتُها ، وثارت ثَوْرَتُها — على مناهج الصواب ، تارةً بالعظة واللُّطف ، وتارةً بالزّجر والعُنف وتارةً بالأَنَفة وكِبر النفس ، وتارةً بإشعار[٥] الحذر ، وتارةً بعلوّ الهمة ؛ وهناك يصير العفو عند القادر ألذَّ من الانتقام ، والعَفافُ عند المائج ألذّ من قضاء الوطر ، والقناعةُ عند المحتاج أشرفَ من الإسفاف ، والصّداقةُ عند الموتور آثَرَ من العداوة ، والمداراة عند المُحْفَظَ[٦] أطيبَ من المماراة .

وفى الجملة ، الخُلُق الحَسَن[٧] مشتقّ من الخَلْق ، فكما لا سبيل إلى تبديل الخَلْق كذلك لا قدرة على تحويل الخُلُق ، لكنّ الحضّ[٨] على إصلاح الخُلُق وتهذيب النفس لم يقع من الحكماء بالعَبَث والتجزيف ، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة ، ومثالُه أن الحبشيّ يتدلّك بالماء والغَسُول لا ليستفيد[٩] بياضا ، ولكن

(١) ذيلت قوالصهما ، أى طولت ما قصر وتقبض منهما .
(٢) « الشرف » .
(٣) « عنلانها » .
(٤) « ثانيا » .
(٥) « باشعا والحذر » .
(٦) « التحفظ » .
(٧) الظاهر أن قوله « الحسن » زيادة من الناسخ . فسياق الجملة يقتضى أنه يريد الخلق الحسن وغيره .
(٨) « لكرا نحص » .
(٩) « يستعيد » .

ليستفيد نقاء شبيها[1] بالبياض ؛ ويقال للمِهْذار : « اُكْفُفْ » لا ليكفَّ[2] عن النطق ، ولكن ليؤثِرَ الصمت .

ويقال للموتور : « لا تحقد » لا ليزول عنه ما حَنِق[3] عليه ، ولكن ليتكلّف الصبر ويتناسى الجزاء على هذا أبدا .

وقد تقرّر بالحكمة الباحثة عن الإنسان وطرائق ما به وفيه أن أحواله مختلفة ، أعنى أن كل ما يدور عليه ويحور إليه[4] مقابل بالضدّ[5] أو شبيه بالضدّ كالحياة والموت ، والنوم واليَقظة ، والحَسَن والقبيح ، والصواب والخطأ ، والخير والشر ، والرجاء والخوف ، والعدل والجور ، والشجاعة والجُبْن ، والسخاء والبخل ، والحلم والسَّفَه ، والطَّيْش والوَقار ، والعلم والجهل ، والمعرفة والنَّكِرة والعقل والحُمْق ، والصحة والمرض ، والاُعتدال والانحراف ، والعفّة والفجور والتنبّه والغفلة ، والذّكر والنسيان ، والذكاء والبلادة ، والغبطة والحسادة والدماثة والكزَازَة[6] ، والحق والباطل ، والغيّ والرُّشد ، والبيان والحَصَر والثقة والاُرتياب ، والطمأنينة والتُّهَمة ، والحركة والسكون ، والشكّ واليقين والخَلاعة والوَقار ، والتوقّي والتهوُّر ، والإلف والمَلَل ، والصدق والكذب والإخلاص والنفاق ، والإحسان والإساءة ، والنصح والغش ، والمدح والذم وعلى هذا الجرّ والسّحْب[7] ؛ ولعل هذه الصفات بلا آخر ولا انقطاع .

---

(١) « تشبيها » .
(٢) « لتكتفي عنه » .
(٣) « طبق » .
(٤) « ويجوز عليه » .
(٥) « بالصدأ » .
(٦) « الكرارة » بالمهملتين .
(٧) « الجراء والسجب » .

فمما ينبغى أن يُعنى الإنسانُ المحبُّ للتبصرة ، المؤثِرُ للتذكرة ، الجامع للنافع له ، النافى(١) للضارّ به فى هذه الأحوال التى وصفناها بأسمائها معرّفةً — ما استطاع — باجتلاب(٢) محمودها واجتناب مذمومها ، وتمييزه مما يكمن(٣) فيه أو تقليله ، أو إطفاء جمرته ، أو اجتناء ثمرته ، والطريق إلى هذا التمييز واضح قريب ، كأن(٤) تنظر إلى الحياة والموت فتعلم أنّ هذين ليسا من الأخلاق ولا ممّا يعالَج بالاجتهاد ، وإلى النّوم واليَقَظة فتعلم أنّهما ضروريّان للبدن من وجه ، وغيرُ ضروريّين من وجه ، فتَنْفِي(٥) منهما ما خرج عن حدّ الضرورة وتُسلِم البدن ما دخل فى حدّ الضرورة ؛ ولا يكثرنّ(٦) الإنسانُ نومَه ولا سهرَه ، ولكن يطلب العدل بينهما بقدر جهده .

فأمّا الحسَن والقبيح فلا بدّ له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور(٧) فيرى القبيحَ حَسَنا والحسنَ قبيحا ، فيأتى القبيحَ على أنه حَسَن ، ويَرفُض الحسَنَ على أنّه قبيح ؛ ومَناشئ الحسَن والقبيح كثيرة : منها طبيعىّ ، ومنها بالعادة ، ومنها بالشرع ، ومنها بالعقل ، ومنها بالشهوة ، فإذا أُعتبر هذه المناشئ صدِّق الصادق منها وكُذِّب الكاذب ، وكان أُستحسانُه على قَدْر ذلك ومثال ذلك الكِبْر فإنه مَعيب بالنظر الأوّل ، لكنّه حَسَنٌ فى موضعه بالعلّة(٨) الداعية إليه ، والحال الموجبة له .

(١) « النافى » .
(٢) « باجتلاب » متعلق بـ « يعنى » .
(٣) « يمكن » .
(٤) « كأنك » .
(٥) « فيستعمل » .
(٦) « يكون » .
(٧) « يجوز » .
(٨) « بالغلبة » .

وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء ، وليسا بخُلُقين مَحْضين ، ولـكنّهما موكولان إلى نور العقل ، فما أشرَقَ[1] عليه العقل بنوره فهو صواب ، وما أفَلَ[2] عنه العقل بنوره فهو خطأ .

وأما الخير والشرّ فهما فى العموم والشُّمول ليسا بدون الصواب والخطأ لهما مناط بكلّ شىء ، ويغلِبان على الأفعال ، وإن كان أحدُهما عدَما للآخَر .

وأمّا الرجاء والخوف فهما عرَضان للقلب بأسباب بادية وخافية ، ولايدخلان فى باب الخُلُق من كل وجه [ولا يخرجان أيضا بكل وجه] وهما كالعِمادَين للإنسان قد أُستُصلِح لهما ، ورُبِط قِوامُه بغلبتهما وضَعْفِهما .

وأما العدل والجَوْر فقد يكونان خُلُقَين بالفِطْرة ، ويكونان فِعْلين بالفِكرة وجانباهما بالفِعْل[3] ألصق ، وإلى الاكتساب أقرب .

وأما الشجاعة والجبن فهما خُلُقان متصلان بالخَلْق ، ولهذا يعزّ على الشجاع أن يتحوّل جبانا ، ويتعذرُ على الجبان أن يصير شجاعا ، وكذلك طرفاهما داخلان فى الخُلُق أعنى التهوّرَ والتوقّى[4] .

وأمّا السخاء والبخل فهما خُلُقان محضان أو قريبان من المَحْض ، ولهذا تعلّقَ الحمد والذم بهما و بأصحابهما ، والمدح والهجو سريا[5] إليهما وأتصلا بهما ؛

(١) « أشرف » .
(٢) « أقل » .
(٣) « بالعقل » .
(٤) فى الأصل : « والجبن » ؛ وما أثبتناه هو المناسب لقوله : « وكذلك طرفاهما إذ الجبن لا يكون طرفا للجبن ، ويدل على صحة ما أثبتنا ذكره التوقى بجانب التهور فيما سبق فى ص ١٤٩ س ١٤ .
(٥) « ريا » .

وقد يندم السخىّ على بذله كثيرا خوفا من الإملاق ، فلا يستطيع ذلك إذا أخذته الأريحيّة ، وحرّكته اللّوذعيّة ؛ وقد يلوم البخيل نفسه كثيرا إذا سلقته الألسنة الحداد ، وجُبه[1] بالتوبيخ ، وشمخ[2] عند رؤيته الأنفُ ، وغُضّن[3] الجبين وأولم[4] بالعذل وقوبل ؛ ومع ذلك فلا يَرْشَح إلا على بطء وكُلْفة وتضجُّر ؛ والكلام فى هذين الخُلُقين طويل ، لأنهما أدخل فى تلاقى الناس وتعاطيهم فى عِشرتهم ومعاملتهم .

وأما الحِلم والسَّفه فهما أيضا خُلُقان ، والأخلاق تابعة للمزاج فى الأصل ، ولذلك قلنا : إن الخُلُق ابنُ الخَلْق ، والولد شبيهٌ بوالده ؛ وفى الجملة ، كل ما يمكن أن يقال فيه للإنسان « لا تفعل هذا » ، « وأقلل من هذا وكف عنه » فإنه فى باب الأفعال أدخَل ، وكل ما لم يَجُزْ أن يقال ذلك فيه فهو فى باب الأخلاق أدخَل ، ثم لبعض هذا نسبة إلى الخُلُق أو الخَلْق ، إما ظاهرة غالبة وإما خفية ضعيفة .

وأما الطَّيْش والوَقار فهما يختلطان بالحلم والسَّفه ويجريان معهما ؛ فليس ينبغى أن يُنشَر الكلامُ ويطولَ الشرح .

وأما الجهل والعلم فليسا[5] من الأخلاق ولا من الخَلْق وإنما[6] يُبرِزان من صاحب الأخلاق والخَلْق للمزاج أثرين قويّين[7] واحدها عَدَم

(١) « وجبه » .
(٢) « وسبح » .
(٣) « وعض » .
(٤) فى الأصل « واكيل بالعذل وقوتل » .
(٥) « فليا » .
(٦) فى الأصل : « وإنما كانا يبرزان » .
(٧) « أثر قوىّ » .

والآخر وجدان ، والعدم[1] لا يكون أعدمَ من عدم ، والوِجدان يكون أبينَ من وجدان .

وأما المعرفة والنكرة فهما فى جوار العلم وضدّه ، ولكنهما أعلق بالحِسّ وألصق بالنفسَيْن، أى الشَّهْوِيّة والغضبيّة .

وأمّا العقل والحُمق فليسا من الخُلُق ، والكلام فى تفسير العقل مشهور[2] ، وعدمه الحمق .

وأما الصحة والمرض فليسا أيضا من الأخلاق ، ولكنهما يوجدان فى الإنسان بواسطة النفس ، إما فى البدن ، وإما فى العقل ، ولذلك يقال : أمراض البدن ، وأمراض النفس ، [وصحة البدن] [3] وصحة النفس .

وأما الاعتدال والانحراف فهما يدخلان فى الخُلُق بوجه ، ويخلصان منه بوجه ، ويعمّان أعراض البدن وأعراضَ النفس ، ويوصَف بهما الإنسان ، على أن الانحراف المطلَق لا يوجد ، والاعتدال المطلق لا يوجد ، ولكنْ كلاهما بالإضافة . وأما العفة والفجور فخُلُقان لهما جَمْرة[4] وخُمود ، والحاجة تمسّ إلى العدل فى استعمال العفة ونَفْى[5] الفجور ، وإذا قويت العفّة حالت عصمة ، وإذا غلب الفجور صار عدوانا .

وأما التنبّه والغفلة فقريبان من الخُلُق ويغلبان على الإنسان ، إلا أن فرط التنبّه موصولٌ بالوَحْى ، وفرطَ الغفلة موصول بالبهيمية .

---

(١) « والعدو » .
(٢) « يستمر به » .
(٣) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .
(٤) « حمرة » بالمهملة .
(٥) « وتنى » .

وأما الذكر والنسيان فليسا بخُلُقين محضَين، ومنشؤهما بالمزاج، وأحدهما من علائق النفس العالمة، والآخر من علائق النفس البهيمية.

[وأما الذكاء والبلادة(١)] فهما خُلُقان، ونعتهما كنعت الذكر والنسيان، إلا أن هذين(٢) يَعرِضان فى الحين(٣) بعد الحين، والأخريان(٤) كالراسخَين فى الطينة.

وأما الغِبطة والحسد فخلقان رُسِم الأوّل منهما بأن تتمنى لنفسك ما أُوتيَه صاحبُك [ورُسِم الثانى بأن تتمنى زوال ما أُوتِيَه صاحبُك](٥) وإن لم يصل إليك. ورسوم هذه الأخلاق أسهل من تحديدها، لكنّا تركنا ذلك، لأنّ الكلام الذى كان يجرى، هو على مذهب الخدمة.

على أن مراتب هذه الأخلاق مختلفة، فيبعد أن يعمّها حد واحد، وإنما اختلفت منازلها لأنها(٦) تارة تصفو بقوة النفس الناطقة، وتارة تكدر بالقوّتين الأُخْرَيَيْن؛ ولبعضها حِدّة بالزيادة، ولبعضها كَلّة بالنقص، فلم يكن التحديد يُفَصّل(٧) كلّ ذلك، فلم نعرج(٨) على شىء عجزْنا عنه قبل أخذنا فيه. ونُتمّ بقيّة ما عَلِق بهذه الجملة، فنقول:

وأما الدماثة والكَزَازة فخلُقان محضان تابعان للمزاج، ثم المِران يزيدهما قوّة وضَعفا؛ وهما للنعت أقرب، كالسهولة والعسر؛ ولذلك يقال: «ما أدْمَثَ

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل.
(٢) هذين، أى الذكر والنسيان.
(٣) «الجبن بعد الجبن».
(٤) الأخريان، أى الذكاء والبلادة. وفى الأصل «والأوليان».
(٥) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها.
(٦) «لأن».
(٧) «بنقص».
(٨) «يمرح».

هذه الأرض » ، أى ما أرخاها وألينَها ؛ وفى المَثَل : « دَمِّثْ لجَنْبِك قبل النوم[1] مضطجَعا » .

وأما الحق والباطل فليسا من الخُلُق ولا الخَلْق فى شىء ، وهما من نتائج المعرفة والنكرة ، لأنّك تعرف الحق وتنكر الباطل ، وذلك لأغراض تتبعهما ، ولواحقَ تلتبس بهما .

وأما الغَىّ والرُّشْد فليسا من الخُلُق ، لكنهما من علائق الأفعال الحيدة والنميمة ؛ وللرأى والعقل[2] فيهما مدخل قوىّ وحظّ تامّ .

وأما البيان والحَصَر فليس بينهما و بين الخُلُق عَلاقة ، وإنما يتبعان المِزاج ويزيد فيهما وينقصُ الجهدُ والتوانى والطلب والقُصور .

وأمّا الثقة والارتياب فخلقان يغلبان ينفعان ويضرّان ويُحمدان ويُذمّان ألا ترى[3] أنه يقال : لا تثق بكلّ أحد ، « ولا تَرْتَبْ بكلّ إنسان » وهكذا الطُّمأنينة والتُّهَمَةُ ، لأنهما فى طيهما .

وأما الحركة والسكون فليسا[4] من حديث الخُلُق فى شىء لأنّهما عامّان[5] لجميع الأحوال سواء كان العَمل مباشرا أم كان معتقَداً ؛ وفى الحركة والسكون كلامٌ واسع ، وذلك أن هٰهنا حركةً إلهيّةً ، وحركةً عقليّة ، وحركةً نفسيّة ، وحركةً طبيعيّة ، وحركةً بدنية ، وحركةً فلكيّة ، وحركةً كوكبيّة ، وحركةً

---

(١) فى الأصل « الترب » . وهذا صدر بيت ، وعجزه :
* لا تسلكن طريقاً غير مأمون *

(٢) « والنقد » .

(٣) « إلا أن ترى » .

(٤) « فليا » .

(٥) « علمان » .

كأنها سكون. فأما السكون فهو ضرب واحد ، لأنه فى مقابلة كلّ حركة ذكرناها. فإذا اعتُبرتْ هذه المقابلةُ فى كلّ مقابَل لُحِظ الأنقسام فى السكون ، كما وُجد الأنقسام فى الحركة .

والحركة أوضح برهان على كلّ موجود حِسّىّ ، والسكونُ أقوى دليل على كلّ موجودٍ عقلىّ ؛ وهذا القَدر كافٍ فى هذا الموضع .

وأما الشّكّ واليقين ، فمن علائق النفس الناطقة ، ولهذا لا يقال فى الحيوان الذى لا ينطق : له يقين وشك .

وأما الخلاعة والوقار ، فقد تقدّم البحث عنهما [١] .

وأمّا التوقّى والتهوّر ، فهما خُلُقان فى جميع الحيوان ، ويَغلبان على نوع الإنسان ، لأنّ العقل يُبطل [٢] أحدهما [٣] ، والحسّ [٤] يَغلب الآخَر [٥] .

وأما الإلف والمَلَل فخُلُقان محضان ، يُذَمّان ويُحمَدان على قدر المألوف والمملول ، وإن كان جَرَيان العادة قد وَفَّر الحمد على الإلف ، والذم على المَلَل .

وقد مُدِح زيد فقيل : هو ألوف . وذُمّ عَمرٌو فقيل : هو مَلُول .

وأما الصّدق والكذب ، فمن علائق النفس الناقصة والكاملة ؛ وقد يكونان [٦] [راسخَين [٧]] فيُلحَقان بالخُلُق ، إلا أن الصدق ممدوح ، والكذبَ

(١) يلاحظ أنه لم يرد فيما سبق ذكر الخلاعة والوقار ، ولا ما يفيد معناها .
(٢) « تظل » .
(٣) يريد بقوله « أحدهما » : التهور .
(٤) « والحسن » .
(٥) يريد بقوله : « الآخر » التوقى .
(٦) « يكرّان » .
(٧) هذه الكلمة التى بين مربعين أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضى إثباتها كما يرشد إليه ما يأتى بعد فى صفحة ١٥٧ فى الكلام على الإحسان والإساءة : « فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين » .

مذموم ، هذا فى النظر الأول ، وقد يَعرِض ما يوجب المصير إلى الكذب لِيُنجى به ؛ فهما إذن بعد الحقيقة الأُولى وقفٌ على الإضافة ؛ وقد وجدنا مَن كَذَب لينتفِع ، ولم نجد مَن صَدَق ليكتسب الضرر .

وأمّا الإخلاص والنفاق ، فهما يُلحقان بالخُلُق ، ولكنّهما يَصدُران عن عقيدة القلب وضميرِ النفس .

وأما الإحسان والإساءة ، فهما يعمّان الأفعال والأقوال ، فإذا رَسَخ أعتيادُهما أستحالا خُلُقين .

وأما النُّصح والغِشُّ ، فهما خُلُقان ، وطَرَفاهما يتعلّقان بالخَلق .

وكذلك الطَّمع واليأس ، والحبّ والبغض ، واللَّهَج والسُّلُوّ ، وما شاكل هذا الباب .

ولم يَجرِ هذا كلُّه فى المذاكَرة بالحضرة ، ولكن رأيتُ من تمام الرسالة أن أضمّ هذا كلّه إلى حَوْمَتِه[1] ، وأبلُغَ الممكنَ من مقتضاه فى تتمّته .

وقال[2] لى : هاتِ الوَداع ، فإنّ الليل قد همّ بالإقلاع .

قلتُ : قال أبو سعيد الذهبىُّ الطبيب : لو علم الّذى يَحمِل الباذنجان أنّ على ظهره باذِنجانًا لَصَالَ على الثِّيران[3] .

فضحِك — أضحَكَ اللهُ سِنَّه ، وحقَّق فى كلّ خير ظنّه — وقال : إن كنتَ تحفظ فى غرائب أخلاق الحيوان شيئا فأذكره إذا حضرتَ ، فقد مرّ فى أخلاق الإنسان ما يَكفى مجلسَ الإمتاع والمؤانسة ، فإذا ضُمّ هذا إلى ذاك كان للانسان فيه تبصّر كافٍ ، وتذكُّرٌ شافٍ . وصَدَق — صدّق الله قولَه —

---

(١) « حرمته » .
(٢) وقال ، أى الوزير .
(٣) « النيران » .

لأن الإنسان أشرفُ الحيوان ، و إنما كان هكذا لأنه حاز جميعَ قوى الحيوان ثم زاد عليه بما ليس لشيء منه ، فصار ربًّا له سائسا ، ومصرّفا له حارسا ، ونظر إلى ما سُخِّر له منه فاعتبر ، وقاد[1] نفسَه إلى حَسَن ما رأى ، وعزَفها عن[2] قبيح ما وَجَد ، ولم يَجُزْ فى الحكمة أن يُحرَم الإنسانُ هذا مع ما فيه من المواهب السنيّة؛ والمنائح المنية ، فإن قال قائل : فالملائكة إذن قد حُرِمتْ هذه الفضيلة ، فليعلم هذا القائلُ أن المَلَك لما خُلِق كاملا لم يكلَّف أن يَكمُل و يتكامَل ويَستكمل، فصار كل شىء يطلبه ويتوقّاه سببا إلى كماله المُعَدّ له وغايته المقصودة . فإن زاد فقال : فهلا خُلق[3] كاملا ؟ فليعلم أن كلامه على طريق الجَدَل ، لا على طريق البحث عن العِلَل ، لأنّه قد جهل أنّه بالحكمة وجَب أن يكون الأمر مقسوما بين ما يحوز الكمال بالجِبلّة[4] ، و بين ما يَكسِب الكمالَ بالقصد .

ولمّا وَجَب هذا بالحكمة سَرَتْ إليه القدرة ، وساح به الجود ، وأشتملت عليه المشيئة ، وأحاطت به الحكمة ، وشاعت فيه الربوبيّة .

وههنا زيادةٌ فى شرح الخُلُق يتم بها الكلام ؛ فليس من الرأى أن يقع الإخلال بذكرها ، لأنّها مكشوفة ظاهرة ، وهى أنّ الإنسان إذا غلبت الحرارةُ عليه فى مزاج القلب يكون شجاعا بذّالا[5] ملتهبا ، سريعَ الحركة والغضب قليلَ الحقد ، زكىّ الخاطر ، حسن الإدراك .

وإذا غلبت عليه البُرودة يكون بليدا ، غليظَ الطباع ، ثقيلَ الرُّوح .

(١) « وعاد » .
(٢) « من » .
(٣) خلق ، أى الإنسان .
(٤) « بالحيلة » .
(٥) « دالا » .

وإذا غلبت عليه الرطوبة يكون ليّن الجانب ، سمحَ النفس ، سهلَ التقبّل كثيرَ النسيان .

وإذا غلبتْ عليه اليُبوسة يكون صابرا ، ثابتَ الرأى ، صعبَ القبول يضبط ويحتدّ[1] ، ويُمسك ويبخل ؛ وهذا النعت على هذا التنزيل — وإن كان مفهوما — فأسرار الإنسان فى أخلاقه كثيرة وخفيّة[2] ، وفيها بدائع لا تكاد تنتهى ، وعجائبُ لا تنقضى ؛ وقد قال الأوّل :

كلُّ امرىءٍ راجعٌ يوما لشيمتِه ... وإن تخلّقَ أخلاقا إلى حينِ

وقال آخر :

ارْجعْ إلى خِيمِكَ المعروفِ دَيْدَنُهُ ... إنّ التخلّق يأتى دُونَه الخُلُقُ

ولولا أن النزوع عن الخلُق شاقٌّ لما قالوا : تخلّق فلان .

وقد قيل أيضا : « وخالقِ الناسَ بخلُقٍ حسَن » ، وعلى هذا يجرى أمرُ الضريبة والطبيعة والنّحيتَة والغريزَة والنّحِيزَة والسّجيّة والشّيمة ، وربما قيل : الطبيعة أيضا ، ثم العادة تاليةٌ لهذه كلّها ، أو زائدة فيما نقص فيها ، ومُوقِدَة لما خَمَد منها .

الليلة العاشرة

ولما عُدتُ فى الليلة الأخرى ونَمِمتُ بهذه الفضيلة ، تفضّل وقال : ما فى العلم شىءٌ إلاّ إذا بُدِىءَ بالكلام فيه اتّصل وتسلسل حتّى لا يوجد له مَقطَع ولا منفذ ثم قرأتُ عليه نوادرَ الحيوان ، وغرائبَ ما كنتُ سمعتهُ ووجدتُه ، فزاد عجبا

(١) « ويحقد » .
(٢) « وحقيقة » .

وأنا أرويه فى هذا المكان حتى يكون تذكرةً وفائدة — إن شاء الله تعالى .

يقال : إن أسنان الرجل أثنتان وثلاثون سنا .

وأسنان المرأة ثلاثون سنا .

وأسنان الخَصىّ ثمانٌ وعشرون سِنًا .

وأسنان البقر أربعٌ وعشرون سنا .

وأسنان الشاة إحدى وعشرون سنا .

وأسنان التَّيْس ثلاث وعشرون .

وأسنان العنز تسع عشرة سنا .

الذى ذكر من أصناف الحيوان أنه يكتسب معاشه ليلا : البُومة والوَطواط .

ومن الحيوان الوحشىّ ما يستأنس سريعا : الفيل

ويحكى أن الحيوان الذى أسنانُه قليلة عمره قصير ، والذى أسنانه كثيرة عمره طويل .

الفيلُ إذا وُلد نبتتْ أسنانُه فى الحال ، فأمّا أسنانه الكبار وأنيابه الكبار فتظهر إذا شَبّ وكبِر .

قلب جميع الحيوان موضوعٌ فى الوسط من الصدر ما خلا الإنسان ، فإن قلبه مائل إلى الجانب الأيسر .

الأفعَى تبيض فى رحمها ، ثم يصير هناك حيوانا .

الشعر المولود مع الإنسان شعرُ الرأس والأشفار والحاجبين .

وأول ما ينبت بعد ذلك شعر العانة وشعر الإبطين وشعرُ اللحية :

(إن خُصى الإنسانُ قبل أحتلامه لم ينبت فى جسده الشعر الذى يتأخّر نباته ، وإن خُصى بعد أحتلامه فإن ذلك الشعر يزول ، ما خلا شعر العانة فإنّه يَبقى .

شعر الحاجبين ربما طال عند الكِبَر .

وشعر الأشفار لا يطول .

للأرانب فى داخل أشداقها شعر ، وكذلك تحت أرجلها .

القنفذ فى فيه خمس أسنان فى عمقه .

والبرّيّة منها تَسْفَد قائمة وظهر الأنثى لاصق بظهر الذكر .

الرجال يشتاقون إلى الجماع فى الشتاء ، والنساء فى الصيف .

الخنزير إذا تمت له من ولادته ثمانية أشهر ينزو على الأنثى .

الكلبة تحمل وتبقى ستين يوما ويوما ، وهذا أطول ما يكون ، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستين يوما ، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربِّى ولا يبقى لها ولد .

الفيل الذكر ينزو إذا تمت له خمس سنين ، وزمان هياجه ونزوه أيام الربيع والأنثى تحمل سنتين ، ولا تضع إلا واحدا .

إذا باض الطائر وما كان من أصنافه يخرج من البيضة الطرف العريض ثم يرق بعد ذلك .

كل ما كان من البيض مستطيلا محدّد الطرف فهو يفرخ الإناث وما كان مستديرا عريض الأطراف يفرخ الذكور .

وجُرِّب من إناث الطير أنها إذا لم تجلس على البيض(١) تمرض .

القَبْج(٢) إذا هاج ووقفت الأنثى قبالة الذكر ، وهبت الريح من ناحية الذكر مقبلة إلى ناحيتها حملت من ساعتها .

(١) « الطير » .

(٢) القبج : الكِرْوان .

الحمامة إذا نُتِفَت ريشة من ريشها احتبس بيضها أكثر مما لها بالطبع .

مبدأ خَلق الفَرخ من بياض البيضة ، وغِذاؤه من الصُّفرة ، فإذا خرج فَرخان كان أحدهما أكبرَ جثّةً من الآخَر ، والذكر منهما من البيضة الأولى ومن الثانية الأنثى .

الفاختة[1] تعيش أربعين عاما .

والحَجَل[2] يعيش عشرين عاما .

الرَخَمَة تُفرخ على صخور مشرفة عالية لا ينالها أحد ، ولا توجد رَخَمة وفراخها إلا فى القَرْط[3] .

العُقاب يجلس على البيض ثلاثين يوما ، وكذلك كلُّ طائر عظيم الجثّة مِثل الإوزّ وما أشبهه ، والمتوسط الجثّة يجلس على البيض عشرين يوما ، كالحِدَأة والبُزاة وما أشبه ذلك .

إناث الغِرْبان تجلس على البيض جلوسا دائما ، والذكر يأتيها بالطعم حينئذ .

الحَجَل تَسَل عُشَّين يجلس الذَّكر على واحد ، والأنثى على واحد .

الطاوس يعيش خمسا وعشرين سنة ، وفى هذه المدة تنتهى ألوانُ ريشِه . ويحضُن بيضَه ثلاثين يوما . قيل : وربّما أكثرَ قليلا ، ويبيض فى كلّ سنة مرّة واحدة ، وعدد بيضه أثنتى عشرة بيضة ، ويُلقى ريشَه فى زمن الخريف وبعدَه قليلا ، وذلك حين يُلقِى الشجرُ ورقَه ، فإذا بدا أوّلُ الشجر وظهرتْ فروعه ، ونبت ورقُه بدأ ريشُه يَنبُت .

---

(١) الفاختة : ضرب من الحمام المطوّق .

(٢) الحجل : طائر على قدر الحمام كالقطا أحمر المنقار والرجلين ، ويسمى دجاج البر ؛ وهو صنفان : نجدى وتهامى ؛ فالنجدى أخضر اللون أحمر الرجلين ؛ والتهامى فيه بياض وخضرة .

(٣) القرط : الجبل الصغير أو رأس الأكمة .

الدُّلْفِين [١] له لبن ، ويُرضِع ، ويَحمِل عشرة أشهر ، وتلد فى الصَّيفِ ولا تلد فى زمانٍ آخر ألبتّة ، وربّما غاب تحت الموج فى الماء ثلاثين يوما لايظهر؛ وهو محبّ لخُرْئِه يأكله .

الجَمَل الذَّكَرُ يكره قُربَ الفَرَس ويقاتلُه إذا تمكّن منه .

الشاة إن مُطِرتْ بعد نَزْوِها أنتقَض حَملُها .

الغَنَم إذا أُنْزِيتْ والريحُ جَنوبٌ تضع أولادَها إناثا ؛ وإن كانت العُروق الّتى تحت ألسُن الكِباش الفُحُول بيضا فإنّ إناث الغَنَم تضع حُمْلانا بِيضا ، وإن كانت العروق سُودا فإنّها تضع حُمْلانا سُودا . وإن كانت لونين تكون مختلفة ؛ وإن كانت شُقْرا خرجتْ شُقْرا .

الغَنَم إذا هاجت المُسِنّة منها أوّلا فالسنة ذاتُ خِصْب ، وإن هاجت الفتيّةُ أوّلا فالسنة رديئةٌ على الغَنَم .

الكلْبُ السَّلوقىُّ [ينزو [٢]] إذا تم له ثمانية أشهر ، والأنثى منها تحمل ستين يوما ، وربما زادت يوما أو يومين ، وجراؤها عُمْىٌ [٣] اثنين وعشرين يوما . ومنها ما تحمل ثلاثة أشهر وتكون جراؤها عميا سبعة عشر يوما .

إناث الكلاب تَطمَث فى كلّ سبعة أيام وتبول جالسة ، ومنها ما ترفع رِجلَها عند البول .

ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر وبعضها فى ستة أشهر .

---

(١) الدلفين من دواب البحر ، اشتهر بأنه ينجى الغريق ؛ وصفته كالزق للنفوخ وله رأس صغير جدا ، ولا يؤذى أحدا ، وهو كثير بأواخر نيل مصر .

(٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيها .

(٣) « على » .

ذكور الكلاب السّلوقيّة تعيش عشر سنين، وإناثها اثنتى عشرة سنة، ومن أجناسها ما تعيش عشرين سنة، وإناثها كلّها أطول أعمارًا من الذكور.

قال أوميروس الشاعر: إن كلب إديوس هلك وهو ابن عشرين سنة.

وليس تُلقى الكلابُ شيئا من أسنانها سوى النابين، فإذا تمّ للكلب أربعة أشهر أبقاها.

البقر تُلقى أسنانها لسنتين، وإذا كثر نزْوُ الذكور منها وحملُ الإناث يكون ذلك علامةَ شتاء وجُودِ أمطار وخصب، وإناثُها تَطمَث.

إناث الخيل تضع أولادها فى أحد عشر شهرا، أو فى الثانى عشر.

الحيّات رَغِبَةٌ نَهِمة، قليلة شرب الماء، لأنها لا تضبط أنفسها، وإذا شمت الشراب فإنها تشتاق إليه جدًّا.

الأسد إذا بال رفع رجله كما يرفع الكلب.

البقر تشتهى شرب الماء الصافى النقى، والخيل على الضد فإنها تشرب مثل الجمال الماء الكَدِر الغليظ.

الغنم فى الخريف تشرب الماء الذى تصيبه ريح الشمال، وذلك الوقت أوفق لها.

الدُّرّاج إذا هبّت الريح شمالًا تتزاوج (١) وتَخصِب، وإن كانت جنوبا ساءت حالها ومرضت.

السمك الذى يأوى إلى الشطوط من ناحية البرّ ألذّ من الذى يأوى اللُّجَج وما كان منها مستطيلَ الجثة فهو يُخصب فى الصّيف وهبوب الشمال؛ والعريض

(١) «تتراوح».

الجثة على ضد ذلك ، وأكثر ما يصاد السمك قبل طلوع الشمس لكلَبه على الرعى ، وطلب الطُعْم .

والسمك الجاسى الجلد يخصب فى السنة المطيرة ، لأن ماء البحر يحلو فيها .

الكلب له ثلاثة أمراض : الكَلَب ، والذُّبَحَة[1] — وهو القاتل لها — والنِّقرس .

والداء الذى يقال له الكَلَب يعرض للجمال أيضا ، فإذا كَلِب الجمل بَخِرَ ولم يؤكل لحمه .

الخيل إذا ألقت حوافرها وقت تَنَصُّل[2] نبت لها حافر آخرُ عاجلا ، لأن نباته يطلع مع نصول الحافر .

وعلامة ذلك اختلاج الخصية اليمنى .

ويعرض للخيل داء شبيه بالكَلَب ، وعلامته استرخاء آذانها إلى ناحية أعرافها ، وامتناعها من العَلَف ، وليس لهذا الداء علاج إلا التسكين .

لا يكون فى بلد الهند خنزير . لا أنيسٌ[3] ولا برىّ ، وفى أرض تُعرف بكذا يجزّ البقر كما يجز الغنمَ ، وفى أرض النُّوبة تولَد الكباش نابتة[4] القرون .

وإناث الكلاب السَّلوقيّة أسرع إلى الأدب من الذكور .

جميع أجناس الحيوان إناثها أقل جرأة وأجزع ، ما خلا الذئبة ، فإنها أصعب خُلُقا وأجرأ من الذكور .

العُقاب والتِّنّين يتقاتلان ، والعقاب تأكل الحيّات حيثما وجدتها .

---

(١) « والدبلة » .

(٢) نصول الحوافر : خروجها من مواضعها .

(٣) « إلا أنس ولا برى » .

(٤) « ناتئة » .

الغُداف(١) يخطف بيض البُومة نصف النهار فيأكله ، لأنّ البومة لا تبصر بصرًا حادًّا فى ذلك الوقت . فإذا كان الليل شدّت البُومة على بيض الغُداف فأكلته.

بين العنكبوت و بين الحِرْذَوْن(٢) شرّ ، لأن الحرذون يأكل العنكبوت .

عصفور الشّوك يقاتل الحمار ، لأن الحمار إذا مرّ بالشوك أفسد عشه ، فإذا نهق بالقرب منه وقع بيضه ، وإن كان فيه فراخ خرجت منه ، فلهذه العلة يطير هذا العصفور حول الحمار و ينقره .

الغراب يعادى الثور والحمار و ينقرهما .

والحيّة تعادى الخنزير وابن عرس ، لأنهما يأكلان الحيّة حيث وجداها .

الغُداف مصادق للثعلب ، والثعلب مصادق للحيّة ، « والسبب(٣) فى عداوة العصفور للحمار أن معاش العصفور من بزر الشوك وفيه يبيض ، وهو وكره ، والحمار يرعى ذلك الشوك إذا كان رَطْبا » .

البقر يكون فى الجبال إذا ضلّت بقرة تبعتْها الأخرى ، ولذلك الرعاة إذا لم يجدوا بقرة واحدة وعدموها طلبوا سائر البقر وفقدوها من ساعتهم .

الخيل إذا ضلت الأنثى منها أو هلكت ولها ولد فإن إناث الخيل ترضعه وتربّيه ، وذلك أن جنس الخيل فى طباعها حُبّ أولادها .

الأيايل تُلقِى قرونها فى أماكن عَسِرَة صعبة ، لا تُرْتَقَى لئلا تؤخذ ؛ ولذلك قيل فى المثل : حيث تلقى الأيايل قرونها ، فإذا ألقتها توقّت أن تظهر إلى أن تنبت ، كأنها قد ألقت سلاحها . وقيل : إنه لم يعاين أحد القرن الأيسر من قرنيها ، لأن فيه منفعة عظيمة .

(١) الغداف : غراب كبير يكون ضخم الجناحين .

(٢) الحرذون : دويبة شبيهة بالضب ؛ وقيل : ذكر الضب .

(٣) يلاحظ أنه قد سبق ما يفيد معنى هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين .

وإذا وضعت أولادها أكلتْ مشائمها من ساعتها ، ولا يمكن أخذها لأنها تأكلها من قبل أن تقع على الأرض .

والأُيَّلةُ تصاد بالصَّفير والغِناء ، ويفعل ذلك رجلان أحدهما يغنّى ويصفّر ، والآخر يرشقها بالسهام ، فلإصغائها [1] إلى الصفير والغناء لا تحذر السهام .

ويقال إن الأُيَّلَ إذا كانت أذناه قائمتين فهو يسمع كل شيء ولا يخفى عليه ما يراد به ، وإن كانتا مسترخيتين خفى ذلك [عليه] .

الفهد إذا أكل العشبة التى تسمى خانقة [2] الفهود يطلب زبل الإنسان فيأكله ويتعالج به .

ابن عرس إذا قاتل الحيّة أكل السَّذاب مخالفة للحيّة .

القالق إذا خرجت من قتال بعضها بعضا تضع على الجرح صعترًا بريا .

يقال إن ذكور العصافير تبقى سنة فقط ، والدليل على ذلك — أنها من قبل أطواقها التى فى أعناقها — لا تظهر فى الربيع ، بل بعد ذلك بأيام ، لأنها لا تُبقى شيئا من الذكور التى كانت من العام الماضى ، فأما إناثها فهى أطول أعمارا .

إذا دنا الصيّاد من عش القَبْج تخرج الأنثى من بين يديه وتطمعه فى صيدها حتى تهرب فراخها ، ثم تطير وتدعو فراخها إليها .

وإناث القبج تبيض خمس عشرة بيضة ، والذكر منها يطلب موضع بيض أنثاه فيدحرجه — مخافة أن تقعد عليه وتشتغل عنه — فيفسده ، وهى تحتال أبدا فى الهرب منه وتُخفى موضع عُشها ، فتبيض فى أماكن خفيّة ، ومتى [3] قصدها

(١) « ملاصقا لها » .
(٢) « خانقة » .
(٣) « ومن » .

قامت عنه وأطمعت فى نفسها حتى تبعد عن أماكن بيضها ، فإذا بعد طارت ثم احتالت فى الرجوع إليه .

الهدهد يعمل عشه من زبل الإنسان ، فلذلك رائحته كريهة .

العقاب تصيد منذ حين الغداة إلى وقت الرواح ، فأما من أوان الرّواح[١] إلى أن يترحل النهار فهى قاعدة فى مكانها لا تتحرك .

ومنقار العقاب الأعلى ينشأ ويعظم ويتعقّف حتى يكون ذلك سببَ هلاكها لأنّها لا تنال به الطُّعم ، فإذا فضلتْ للعُقاب فضلةٌ من طُعمه وضعها فى عُشّه لحاجة فراخه إليها .

أصناف الطير الدقّقة المخالب لا تجلس على الصخر إلا فى القرْط ، لأنّ خشونة الصخر مخالفةٌ لتعقّف مخالبها .

النحل تعمل عُشّها فى زمانين : فى الربيع والخريف . والعسل الذى تعمله فى الربيع أشدُّ بياضا وأجوَدُ من الذى تعمله فى الخريف

وأضعف العسل يكون أبدا فى أعلى الإناء ، والنقىّ الطيّب فى أسفله .

الأسد عظامه جاسية جدا ، وإن دُلكتْ بعضُ عظامه ببعض خرجت منها نار كما تخرج من الحجارة .

الحيوان الذى له شعر [فى أشفار[٢] عينيه] ليس فى أشفار عينيه شعر إلا الشعر الأعلى .

والنعامة لها أشفار فى الجفنين الأعلى والأسفل .

---

(١) « الصبح » وهو تبديل وقع من الناسخ يناقض ما قبله .

(٢) هذه التكملة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

القنفذ تبيض خمس بيضات، وليس هو بيضا بالحقيقة، بل هو على صورة البَيض، يُشبه الشحم.

قلبُ كلّ حيوان طرَفه حادّ، وهو أصلب من سائر جسده، وهو موضوع فى وسط الصدر سوى الإنسان، فإنه مائل فيه إلى الناحية اليسرى، لأنه يكون بإزاء[1] الجانب[2] الأيسر فيعادل الناحية اليمنى، فإن اليسرى من الإنسان أكثر بردا.

وليس فى قلوب جميع الحيوان عظم إلّا فى الخيل، وفى جنس من البقر، فإن فى قلب هذين عظما دون غيرهما من الحيوان.

وكل حيوان له قلبٌ كبيرٌ يكون جزوعا.

الكلاب الهنديّة تتولّد من كلب وسبع شبيه بالكلب.

والحمار حيوان بارد، ولذلك لا يكون الوحشىّ منها [إلّا[3]] فى المكان البارد.

ذكور البغال لا تشمّ أبوال إناثها كسائر ذوات الحافر.

بَيض الطير فيه لونان: بياض وصُفرة.

وبيض السمك فيه لون واحد.

إذا كانت الريح جنوبا كان المولود أنثى، لأن الجنوب إذا هبّت رَطّبت وإذا أشملتْ كان المولود ذكرا.

عيون جميع الصبيان ساعة ولادتهم شُهْل[4]، ثم تنتقل إلى الطباع الغالبة عليها.

---

(١) «بإناء».
(٢) «الخبائث».
(٣) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها.
(٤) شهل: من الشهلة بضم الشين، وهو أن يشوب سواد العين زرقة؛ وقيل أن تشوب الحدقة حمرة وليست خطوطا.

وعيون جميع الحيوان لون واحد ، كالبقر فإن عيونها سود . وعيون البشر(١) ألوان كثيرة .

صاحب العين الناتئة(٢) لا يُبصِر ما بعد عنه بصرا جيّدا ، والغائرة تُبصِر ما بَعُد عنها ، لأنّ حركتها لا تتفرّق ولا تتبدّد .

الفهد ربما نكح الذّبّ فيتولّد بينهما سَبُع مختلِف المنظر ، لا يتناول الناس ويصيد الكلاب ويأكلها ويَستخفى فى البحر ، فإذا مرّ به أُيَّلٌ مفاجأةً وثب عليه وأنشب(٣) مخالبه فى أكتافه ومصّ دمه حتى يضعف الأيّل(٤) ويسقط فيجتمع عليه هذا الصنف من السباع فيأكله ، فإن اُجتاز بها أسد نهضت عنه وتركت الفريسة له تقرّبا إليه .

بأرض يونان مِعزَى جعدة الصوف ، يقال لها : المعزَى البريّة ، فإذا أصابت قرونُها شيئا من قُضبان الكرم لم يَنبت ورقُه ولا ثمره ، بل يجفّ مكانه ويسقط ما عليه من الورق والثمر .

السُّلَحْفاة تخرج من البحر إلى الرمل فتَبيض فيه ، حتى إذا بلغ أوانه وخرج أولادها ، فما كان ناظرًا إلى ناحية البحر كان بحريا ، وما كان وجهه إلى ناحية البرّ كان برّيًا .

والسّلاحف تمتنع من الذُّكران ، فيأتيها بعود يحمله فى فمه ، ويدنو منها ، فإذا رأت ذلك العود سكنت له .

وما كان من السلاحف بحريّا فخرَج إلى البر وأصابه حرّ الشمس لم يستطع

(١) « السر » .
(٢) « الثانية » .
(٣) « وأنبت » .
(٤) الإبل .

الرجوع إلى البحر وبقي حتى هلك . وما كان برّيا فوقع إلى ناحية البحر تَلِف ولم يستطع الرجوع إلى البرّ وهلك .

الثعلب يهيئ عُشّه ووَكْرَه ذا سبعة أجحرة ، فإذا[1] طرقته الكلاب وغيرُها مما يتخوّف [في جحر[2]] خرج من غيره .

وإذا قارب الزرع أن يُسنبِل[3] دخل الثعلب فيه وتمعّك فرحا به ، فيفسد ذلك الزرع ، ولذلك سمّي أُحتراقُ[4] الشعر : داء الثعلب ، لأنه[5] يُسقِطه كما يُذهب ورق السنبلة والشوكة .

القنفذ يعمِد إلى الكرمة فيحرّكها فيقع منها العنب ، فيتمرّغ فيه حتى يملأ شوكه ويعود إلى عُشه ، فإذا بصرت به جراؤه أطافت به تلتقط ذلك الحب من شوكه وتأكله .

الذئب إذا هُيّئَ من معاهُ وَتَرٌ وهيّئ من مِعَى الشاة وَتَر ، ثم عُلّقا بآلات الملاهي ، ثم ضرب بهما ، صوّت المعمول من الذئب ، وخَرِس الوتر المعمولُ من الشاة .

وكلّ شاة يتناول الذئب من لحمها يكون لحمها حلوا لذيذا ، وكل جزّة صوف تُهيّأ من الشاة التي قد تناول الذئب منها قَمِل الثوب المعمول منها مِنْ قِبَل سُمّ[6] أسنانه .

الكلب إذا مَرِض أكلَ حَلْفاء رَطْبةً .

---

(١) « كما إذا » .
(٢) هذه التكملة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٣) « يسيل » .
(٤) « اختراق » .
(٥) « لأنه » أي داء الثعلب ؛ « يسقطه » ، أي يسقط الشعر .
(٦) « شم » .

والأُيَّلُ إذا مرض أكل حيّة .

والضّبع إذا مرض أكل كلبا .

الأسد إذا أكل كلبا فإنه يكون قد ضرس فيزول ذلك .

الرخمة إذا ضعف بصرها بقرت مرارة إنسان

الأعنز البرّية [تألف(١)] حيتانا بحرية ، وتدع الجبال وتسلك طريقا بعيدا حتى تأتى البحر لمكان تلك الحيتان ، فلما عرف ذلك الملاّحون سلخوا جلود تلك الأعنز ، ودنوا(٢) بها من شاطئ البحر على ظهورهم ، فإذا نظرت(٣) تلك الحيتان إليها خرجتْ مسرعة إليها فيصيدها الملاّحون .

ليس من السباع شيء صُلْبه عَظْم واحد بلا خَرَز إلا الأسدَ والضبع .

من ربط على بدنه سِنًّا(٤) من أسنان الذئب ولبسه لم يَخف الذئاب .

والفَرس الذى يُعلّق عليه شيء من أسنان الذئب يكون سريعَ الجرى .

المعزى البرّية تكون صُلبة القرون ، تأوى أطراف الجبال وما كان مُشرِفا من الصخور على أودية ، فإن بصرت بالصياد ألقت أنفسها من تلك الصخور لتقيها بقرونها ، فإن سقطت على غيرها هلكت ، وفى قرونها خرزات مستديرات على قدر ما يكون عددُ سنيها(٥) .

والعجب أنها تحفظ إناثها عند الكِبَر وتتعهّدها بالمطعم والمشرب تحمله على أفواهها .

---

(١) فى الأصل : « الأعنز البرية حيتانا » بسقوط كلمة « تألف » أو ما يفيد معناها .
(٢) « وذيوا » .
(٣) [ظهرت] .
(٤) « شيئا » .
(٥) « سنوها » .

المعزى البرّيّة إذا صيد شيء من سِخالها تبعته ورضيت بالعبودية مع ولدها وفي أطراف قرونها جِحَرة تتنفّس منها ، فإن سُدّتْ هلكتْ مكانها .

الوَرَشان[1] يتحرّز بأن يضع ورق الغار في عُشّه .

والحِدَأة تضع في عُشها ورق العُلّيق تتحرّز به .

الخطّاف يضع في عشه قضيبَ كَرَفْس .

التُّدْرُج[2] يضع في عُشه سرَطانا نهريّا .

جميع السباع والدوابّ عند المشي تقدّم اليد اليمنى والرجلَ اليسرى .

لا تكون الزرافة إلا في أرض قليلة الماء .

إذا همّ أصحاب الخيل أن يُنْزُو[3] حمارا على فرس جزُّوا عُرفها فتقرّ[4] حينئذ وتذلّ لكَدْم[5] الحمار لها .

بيونانَ ثيران لها أربعة قرون لا ترضى بمجامعة البقر ، بل تجامع إناثَ الخيل ، ويتولد بينهما خيول عجيبة المنظر .

الجاموس لا ينام أصلا وإن أرخى عينيه إرخاء يسيرًا ، لكنّه ساهرٌ الليل والنهار .

الجمل إذا وَقَع على الناقة وَقْعَ الضراب سُتِرَ عن الرجال ، فإن نظر إليه رجل غَضِب .

قالت الروم : إن السِّنَّوْر يتولّد من مجامَعة الفهد لبعض السباع .

(١) الورشان : طائر شبه الحمام ، وهو نوبي وحجازي ، والنوبيّ أشجاها صوتا .
(٢) التدرج : طائر كالدراج حسن الصوت يغرد في البساتين .
(٣) « يشتروا » .
(٤) « فيفرّ » وهو تحريف .
(٥) « لكرم » . والكدم : العض .

[لا ينام(١)] البوم إلا إغفاءة(٢) .

ومن العجب أن السِّنَّوْرَ يكون صافى العين كثيرَ البَريق عند امتلاء الهلال وينقص ذلك الصفاء(٣) والبريق عند نقصان الهلال .

الأفعى إذا جامعها الذكر واسمه الأُفْعُوان تحوّلت إليه ، فإن ظفرتْ به أكلتْ رأسَه من شدّة عِشقها له .

ذَكر العقرب اسمه عُقرُبان ، أسوَد صغير ، سريع المشى ، جادّ(٤) الذهاب الجِرْذَوْن(٥) تفسيره بالعربية الذى يخرج من الزعفران .

التمساح لا يكون إلا فى النيل ونهرٍ بأرض الهند يقال له : الرّسِيس ويبيض كبيض الإوزّ ، وربما يُولَد منه حَرَاذِينُ صغار ، ثم يكبر حتى يبلغ طوله عشر أذرع ، ويزداد طولًا كلما ازدادت سِنُو حياته .

وسِنّه اليسرى نافعة لحمّى النافض .

وذُكر أنّه يجامع ستّين مرّة فى حركة واحدة ومحلّ واحد .

الحمار الوحشىّ يتولد بين الفرس والفيل ، وله قرن يَنبت من أنفه كأنّه سيف ، وإن ضرب شجرةً قطعها وبه يقاتل الفيل ويبعج(٦) بطنه بقرنه ، ولم يُعايَن من هذا الجنس أنثى قط .

فى البحر حوت يقال له : البوس ، يتولّد من الصاعقة إذا كانت فى البحر

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٢) « أغطاء » .
(٣) « السفا » .
(٤) « حادّ » .
(٥) لم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا ما يفيد أن لفظ الحرذون غير عربى ولا أن تفسيره بالعربية ما ذكره المؤلف ، كما أننا لم نجد ذلك فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوان .
(٦) « وينفخ » .

وإن وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا منه تحابّا ولا يحقد أحد على صاحبه ، ويتآخيان أحسن الإخاء .

كلب الماء أبدا ذنبه على ظهره واقع مع انطباق والتواء ، يرعى نبات الأرض ، وهو شديد الجزع من النار ، فإذا كان الليل خرج الصيادون بأيديهم شعل النار ، فيأتون بجثّمها ، وتلك لا تتحرّك لجزعها من النار حتى تؤخذ ، وإن كان منها ذكر لم يجامع أنثى قطّ ، وإذا أرادت المجامعة فإنها تجتمع وتَجلِد(١) فتفرِخ .

وإن أخذ منها صياد بشبكة واحدا وثبت كلُّها حتى تدخل الشبكة آبية فراقَ بعضها بعضا .

ومن لبس جوربا من جلودها وبه نِقْرس انتفع به جدا .

وإذا ابتُلي إنسان برُعاف ثم أخذ قطعة من جلدها ، ثم أنعقد فى ابن وأشتمّه أنقطع ذلك الرُّعاف .

اليرابيع إذا اجتمعت فى موضع ارتفع رئيس لها حتى يكون فى موضع مشرف أو على صخرة أو تلّ ينظر منه إلى الطريق من كل ناحية ، فإن رأى أحدا مقبلا أو سَبُعا صَرّ(٢) بأسنانه وصوّت ، فإذا سمعته انصرفت عن الموضع إلى جِحَرتها فإذا أغفل ذلك وعاينت البقية سبعا أو راجلا قبل أن يراه ذلك الرئيس انصرفت إليه وقتلته لتضييعه أو غفلته .

وإذا كان حسنَ الرَّصْد مضت اليرابيع فقطعت أطرأ ما يكون من الخضرة وأطيب العشب لحملته بأفواهها حتى تأتيه تحية وتكرمة .

---

(١) فى الأصل « وتغلد وتفرح » والمراد بالجلد هنا جلد عميرة .
(٢) « سر » .

وإذا كانت فى جحَرتها خرج الرئيس أوّلا فيبصر الطريق ، فإن لم ير أحدا صرّ بأسنانه وصوت لها لتخرج فترعى .

فى البحر حوت يقال له : موفى ، ضعيف الجسد ، قليل القوة ، إذا جاع خرج إلى الشاطئ فاستلقى على الرمل فأقام شوكة فى رأسه ، فإذا نظر إليه حوت آخر جاء مسرعا ليأكله يظن[1] أنه ميت ، فيُدخل بطنَه تلك الشوكةَ فيقتله بها ويأكله .

وإذا ألقى الملاّح صِنَارته ولقيت ذلك الحوت رَمَى مكانَه بتلك الشوكة الحادّة يدَ الملاّح فتَخدَر ويَطرَح أداة صيده .

فإذا رأى الحوت أن الصّنارة داخلت أضلاعه غلبت الظلمة على بصره ومات من ساعته .

وفى جلد هذا الحوت عجب ، وهو أن الصاعقة لا تدنو من جلده ، والملاّحون يغطّون سُفُنَهم به عندما يتبيّنون[2] الصواعق ووقوع المطر ، ويدنو هذا الحوت إلى طرف مقدّم السفينة فيمسك بطرفه[3] اللطيف ، فلو اجتمعت الرياح كلها بأشد هبوبها لم تستطع تحريك تلك السفينة ، فمن أخذ من جلدها وسمّر به شراع السفينة لم يخف على سفينته[4] غرقا .

السريع الحُضْر أربعة : النَّمِر والحَرِيش[5] وعنز الجبل وكباشها .

عدوّ الحيات أربعة : القنفذ والفيل والأُيّل والعَقْعَق .

(١) « فظن » .
(٢) وردت هذه الكلمة فى الأصل هكذا : « سون » .
(٣) بطرفه ، أى طرف مقدّم السفينة . واللطيف : الدقيق .
(٤) « لسفينتها » .
(٥) الحريش : دابة صغيرة فى جرم الجدى ساكنة جدا ، غير أن لها من قوة الجسم وسرعة الحركة ما يعجز القناص ؛ ولها فى وسط رأسها قرن واحد مصمت مستقيم تناطح به .

الجبان اثنان : الأرنب والأُيَّلُ .

ذو الزهو ثلاثة : الفرس والديك والطاوس .

ذو حدّة السمع ثلاثة : الذئب والحمار والخُلْد (١) .

القادر فى التزاوج ثلاثة : العصفور والحمام والعَقعَق (٢) .

ذو الشهوة ثلاثة : العصفور والثور والباشَقُ (٣) .

المتحارس بالليل اثنان : الكركىّ والبط .

نافى فراخه ثلاثة : النعام والغُداف والعُقاب .

محب الظلمة ثلاثة : البوم والخفّاش والخُلْد .

ذو حدّة البصر ثلاثة : العقاب والظبى والباشق .

من أخذ لسان ضبع ومر به بين الكلاب لم تكلب عليه .

من مر بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلا من أصول عنب الحيّة هربت منه . وعِنَب الحيّة هو الحنظل .

وذكر الحُبارَى يقال له : الخَرَب .

إذا أراد إنسان أن يتزوّج أمرأة فلينظر إلى أبيها وأخيها فإنها بعيانه (٤) وبين يديه أحدهما .

---

(١) الخلد : دويبة تحت الأرض ؛ وهى ضرب من الجرذان .

(٢) العقعق : طائر على قدر الحمامة وعلى شكل الغراب ، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، ذو لونين : أبيض وأسود ، طويل الذنب .

(٣) الباشق : ضرب من بزاة الصيد ، وهو طائر خفيف الحمل شديد الملع ، يأنس حيناً ويستوحش حيناً .

(٤) الواو فى قوله « وبين يديه » واو الحال ، أى كأنه يعاينها حال كون أحدهما ماثلا بين يديه يعاينه . وفى الأصل « بعيانه وبين يديه بأحدهما » .

من الحيوان ما لا يشبه الولدُ الوالدَ كالدببة والنحل والدَّبْر[١] .

أما الدببة فتضع أولادَها توائمَ لا صور لها حين تولد ، غير أن أمّها تهيِّء ، وتسوّيها بلحسها إيّاها بألسنتها ...[٢]

وأما الدَّبْر فإنها تلد دودا يتصوّر بعد ذلك .

الضفادع والغيالم[٤] والسرطانات لا ضرر عليها فى ماء ولا يبس ، لكنهما عندها سيّان لا تهلك فى برّ ولا تُخنَق فى بحر .

كلُّ ما أكل اللحمَ فهو ذو أسنان قواطعَ صِلاب ، وأعناقٍ قصارٍ شداد ، ومخالبَ وأظفارٍ حداد ، ومناقيرَ معقّفةٍ جذّابة .

للأسد ثلاث طبائع : الأولى منها أنه إذا مَشىَ فشمّ ريح الصّيادين عَفّى على آثاره بذَنَبه لكيلا يتبعَه الصيّادون ويقفوا عليه فى عَرينه فيتصيّدوه .

والثانية أن اللبؤة تلد شِبْلها ميّتا ، فلا تزال تحرسه حتى يأتىَ أبوه فى اليوم الثالث فينفخ فى مَنْخِره فيبعثه .

والثالثة أنه يفتح عينيه إذا نام وهما يقِظتان .

ومن تمسّح بشحم كُلَى الأسد ومشى بين السباع لم يخَفْها ولم تَقْرَبه ؛ وإن افترس[٥] الأسدُ الفريسةَ ولم يأكلها مَيزَّ أن ريحها منتِنة جدا .

وأصناف الحيوان التى تلَغ الدمَ بألسنتها : الكلابُ والسنانير .

---

(١) « الدبن » . والدبر : الزنابير .

(٢) « سورها » .

(٣) الظاهر أن هنا كلاما سقط من الناسخ ، إذ كان مقتضى السياق أن يتحدث عن النحل بعد الدببة .

(٤) الغيالم : ذكور السلاحف ، الواحد غيلم بفتح أوله .

(٥) « وإن لم يفترس » .

الأُسْد : تضع أولادها غيرَ منفتِحة العيون ، وإنمـا تنفتح بعد ذلك .

وأما الأسَدُ[١] خاصّة فليس له من جنسه قرين ، ولا يَرَى شيئا من السّباع كفؤا له فيصحبَه ، ولا يَقرب شيئا من بقايا فريسته بالأمس ولو جهده الجوع ويُهِرُّ[٢] زئيرُه كثيرا من الحيوان الذى هو أعظم منه جسما وقوّة .

وإنمـا تلد اللَّبُؤة واحدا ويخرق[٣] بطن أمّه بأظفاره ويخرج منه .

الثعلب إذا جاع فلم يَقدِر على صَـيدٍ عَمَد إلى أرض شديدة الحرّ وإلى موضع الطير[٤] إذا حَمِيَ ، فاستلقى على ظهره ونظر إلى فوق ، ثم اختلس نَفَسه وأخذَ به داخلا حتى ينتفخ انتفاخا شديدا فيحسَبُه الطير قد مات ، فيقع عليه ليأ كلَ منه كما يأ كل الجيفة ، فإذا اجتمع الطير انتفض سريعا وقبض على ما وَجَد فأ كله ، لأنه ذو خِبّ[٥] ومكر ، كذلك طبيعته إن أصابه ضرر فأثّر فيه آثارا وكلَمَ فيه كلُومًا أخذ من صمغ شجرة تدعى قَنْطُوريا[٦] فأبرأها به .

القرد أهيأ الحيوان لقبول التعليم ، وهو لعوب غضوب سريع الحِسّ ، لا يكون فى بلد كثير السباع ، عـدوّ لجميع الحيوان ، مليح الإهاب ، نَهُوشٌ خطوف ، إلا أنه إذا شبِع نام فى غاره ثلاثةَ أيّام ، فإذا خرج صاح بصوت

---

(١) يفيد قوله : « وأما الأسد خاصة » الخ أن هنا كلاما قبل ذلك فى أصناف الحيوان الذى له قرين من جنسه ، وسقط هذا الـكلام من الناسخ .

(٢) يهرّ ، أى يجعلها تصوت من الفزع والخوف .

(٣) « ويخرو » .

(٤) « البير » .

(٥) الخب بكسر الخاء وتشديد الباء : الخداع والمـكر .

(٦) كذا فى الأصل . والذى فى ابن البيطار : قنطوريون ؛ وهو صنفان : كبير وصغير ، فالـكبير له ورق شبيه بورق الجوز أخضر مثل ورق الـكرنب ؛ وله ساق شبيهة بساق الحمّاض طولها ذراعان أو ثلاث . وله شعب كثيرة من أصل واحد ، عليها رءوس شبيهة بالخشخاش الخ وهذا هو المراد هنا .

عالٍ تخرج منه رائحة طيّبة ، فيجتمع إليه الحيوان لحسن صوته .

ومن أراد ختْله[(١)] فليتمسّح بشحم الضبع ويدخل عليه فى غارِه ، فإنه لا يمتنع ؛ خفيفُ الجِرم ، حديدُ الشدّ[(٢)] يَقْظان .

دابة يقال لها بالفارسية (درباست) إذا طلبه القانص[(٣)] أُستلقى لظهره وأراه أنه لا خُصية له ، كأنه قد علم ما يُطلَب منه .

خُلِق الجبانُ من الحيوان الخائفِ سريعَ الحُضْر سريعَ الحركة ، وجُعل الصِّنف الجرىء العادى بطىء الحُضْر[(٤)] مبلّدا .

الضبع مخالفة[(٥)] لجميع أجناس الحيوان ، وذلك أنها تصير مرّة ضبعا ذكرا ومرّة أنثى ، تُلْقِح أحيانا كالذكر ، وتقبل اللِّقاح أحيانا كالأنثى .

وطبيعتها أنّها إذا رأت الكلب فى ليلة مقمرة مشت على الآثار ووطئتْ ظلّه[(٦)] فوقع .

« ومن قتل ضبعا وأخذ لسانها ومرّ بين الكلاب لم تَكَلَب[(٧)] عليه ، ولم تَعرِض له .

ومن مرّ بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلا من حنظل ، أسكتَها عنه وهربتْ منه » .

---

(١) « قتله » .

(٢) « السير » .

(٣) « القابض » .

(٤) « الحذر » .

(٥) مخالف .

(٦) عبارة حياة الحيوان : الضبع إذا وطئت ظل الكلب فى القمر وهو على سطح وقع الكلب فأكلته .

(٧) يلاحظ أنه قد سبق ما يفيد معنى هذا الكلام الذى بين هاتين العلامتين فى ص ١٧٧ س ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

القنفذ عدوّ الحيّات ، إذا قبض على حيّة تركها تضطرب على شَوْكه حتى تموت ، فإذا ماتت قطّعها قِطَعا .

الدبّ يقتل[١] الثور ، والغالب عليه الانجحار فى مغارته[٢]

الفيل ليس له شهوة السِّفاد[٣] ، فإذا أراد الولدَ أتى رياضا وجِنانا[٤] فيها اللُّفّاح[٥] هو وإناثه فهيّج له اللفّاح برائحته وقوّة حرارته شهوته فتسافدت ، فإذا ولدتْ ولدت قائمة ، لأنّ أوصالها ليست مواتيةً كأوصال الّتى تلد باركة ورابضة غير أنّها تلد فى الماء حذَراً على دَغْفَلِها أن يموت إذا وقع على الأرض ، فلذلك تدخل ساحل البحر حتى يبلغ الماء بطنَها فتضع ولدها على الماء كالفِراش الوثير والذّكر فى ذلك يحرسها وولدَها من الحيّة .

ما أشدّ عداوةَ الفيل للحيّة ؛ حيثما أصاب الفيلُ الحيّة وطئها وقتلَها .

وإن هو سقط على جَنْبه لم يستطع القيامَ ، إنما نومُه إذا اتّكأ على شجرة .

ومن هناك — لمّا عرَف أهلُ تلك البلاد[٦] كيف نومُه — يأتون الشجرةَ فينشرونها بالمِنشار ، فإذا أتاها الفيل واتّكأ عليها وقَعَا على الأرض معا ، وحينئذ يشتدّ صياحُه بصوت رفيع ، ويجتمع إليه لذلك فِيَلةٌ كثيرة تحاول معاونته على النهوض والانبعاث ، فلا تقدر على ذلك ، فتصيح جماعتُها بصوت واحد جزَعا من ضَعف حيلتها وعجزها حتى يأتى الفيلُ الذى هو فى الجسم أصغر ، وفى

(١) فى الأصل : « يصل » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه ما يأتى فى ص ١٨٥ سطر ١٢ و ١٣ .

(٢) « مغادرته » .

(٣) « الفساد » .

(٤) « وحصانا » .

(٥) « اللقاح » بالقاف .

(٦) تلك البلاد ، أى التى تكون فيها الفيلة .

الحيلة أكبر منها ، فيُدخل مِشْفَرَه(١) تحت الفيل الساقط ، وتفعلُ كفعله جميعا في إدخال مشافيرها(٢) تحتــه حتى تَدْعَمه فينبعث ، و إنما كُوّن رأسُ الفيل في عنق قصير ، وكوّن له بدلَ العنق الطويل المشفرُ الطويل ليَكتفى به من الضيق ؛ و به يتناول طعامَه وشرابَه .

وخُلقتْ قوائمُهُ غيرُ منفصلة ، لـكنّها كالأساطين المصمَتة والسّوارِي الوثيقة لتحمِلَ الـكثيرَ الثقيل ؛ ورُبطتْ بمراقيبَ صغارٍ غيرِ منحنية ولا منثنيــة على الأوصال ، لـكنّ عظامَه مفرّغة إفراغا .

تطول أعمارُها إلى ثلاثمائة سنة ؛ غيرأنّ الجُرْذان والبقّ تَعلَق بالفيَلة فتؤذيها .

السَّمَنْدَل(٣) : دابّة لا تخاف النار ، لأنّها لا تحرقها ، و إن دخلت أخْدُوداً متأجّجاً مضطرما بالنار لم تَحفِل بذلك ، وصارت النار الّتى تُبيد الأجسامَ مَبعَثا لهذه الدابّة المَهينة الحقيرة ، تستلذّ التقلّب فيها استلذاذ القلب بالهواء البسيط وهبوب أرواحه(٤) الطيّبة ؛ ونضارة جلدها وتنقيته بالنار ، فيزداد بالنار حسنَ لون .

الأرْنَبُ من طباعها الجُبن والخوف ، وهى كثيرة الولادة .

الـكلب ذو فحص واقتفاء للأثر ، وبشَمّه يَسترشد(٥) ويهتــدى ويَستدلّ إذا شمّ المَوْلَى عرَفَه إن كان له أو لغيره .

ومن طباعه الترضّى والبصبصة والمشاشة(٦) لمن عرفه .

---

(١) « منقره » .
(٢) « مناقيرها » .
(٣) الســمندل : دابة دون الثعلب خلنجية اللون ، حمراء العين ، ذات ذنب طويل . وقيل : طائر .
(٤) « وأرواح هبوبه » .
(٥) « يستزيد » .
(٦) « والحشاشة » .

ليس فى الحيوان أشدّ حبا لصاحبه منــه ، فإن أشار له[1] على صيد وثب ناصبا رأســه رافعا ذنَبه مستعدًّا كالفارس البطل والشجاع النّجد ، مع نشاطه فى الطلب وهو يعلم أن الصيد ليس بحاضر ، لـكنّ ذلك منه حسن طاعة .

فأما حب بعض جراء الكلاب لبعض إذا كان أخاه لأمّ ولأب فما قد عُهد وشوهِد ، وذلك أنه حيث كان يُطرح لها الطعامُ فى الوسط، فلا يختطف واحد منها ذلك ، لـكنها تتعاطاه بينها بسكون وتمكين بعضها لبعض ، غيرَ مستأثرة به ولا محاربة عليه .

الفَرَس من طباعه الزّهو والحرارة وشهوة الإناث للسّفاد . وإن وَطِئ الفرس أثرَ وطء الذئب ارتعد وخرج الدخان من جسده كلّه .

الذئب إذا رأى الإنسان مبطئا خَطوَه وهو ساكنٌ سكت عنّه ، فإن رآه خاف وجبُن اجترأ[2] وحمل عليه وكَبَسه .

وليس كلُّ ذئب يعدو ، ولـكن هو الذى يكون ضاريا ؛ وفيــه خَلّتان : إحــداهما أن يكون منفرداً يمشى وحده ، والأخرى حدّةُ شَمّه ، إن خفىَ عليه مكانُ الغنم أتى مكانا وعوى صوتين[3] أو ثلاثة ، ثم سكت منصِتا لأصوات الكلاب الّتى مع الغنم ونباحِها حين سمعتْ عُواءه[4] ، فإذا سمع نباحَ الكلاب شــدّ[5] مسرِعا نحوها ، قاصدا إليها ؛ فإذا قرب من الغنم مالَ إلى ناحية أخرى خالية من تحرّس[6] الكلاب فاختطف ما أمكنه خطفُهُ من الغنم .

---

(١) عبارة الأصل : « وضع أشلاءه » والـكلمة الأولى زيادة من الناسخ ، وفى الثانية تحريف .

(٢) « واجترأ » .

(٣) « توتين » .

(٤) « عداه » .

(٥) « مدّ » .

(٦) « محرمن » .

حمار الوحش إذا ولدتْ الأنثى الأولادَ الذكور جاء الفحلُ فانتزع خُصَى تلك الذكور وقطعها بأسنانه لكيلا(١) تُصَادَ أو تُشارِكه فى طَروقَةٍ(٢) ، إلاَّ أنّ الأنثى ربّما وَضعتْ ولدها فى مكان غامضٍ حتى يشتدّ جسمُه وتَصلُب حوافره ، ويَقوَى بالشدّ على النّجاة من الفحل ، ولهذا السبب يَقِلُّ منها الفحول .

الحَرِيش(٣) دابّة صغيرة فى جرم الجَدى ساكنةٌ جدا ، غير أن لها من قوّة الجسم وسرعة الحُضْر ما يُعجِز القَنّاصَ(٤) عنها ، ثم لها فى وسط رأسها قرن واحد منتصِب مستقيم ، به تُناطح جميعَ الحيوان فلا يغلبها شىء .

اِحتَل لصيدها بأن تعرِض لها فتاةً عذْراء وضيئةً ، فإذا رأتها وَثبتْ إلى حِجْرها كأنّها تريد الرضاع ، وهذه محبّة فيها طبيعية ثابتة ، فإذا هى صارت فى حِجر الفتاة أرضعتْها من ثديها على غير حضور اللّبن فيها حتى تصير كالنّشوان من الخمر والوَسْنان من النوم ، فيأتيها القَنّاص(٥) على تلك الحال فيشدّ من وَثاقها على سكون منها بهذه الحيلة .

الإيّلُ عدوّ الحيّات إن قربتْ منه حيّة فانجحرتْ فى صَدْع صَفا مَلأَ الإيّلُ فاه من الغَدير أو من حيثُ وَجد فدفَعه فى ذلك الصّدْع ، ثم اجتذب الحيّة إليه بالقوّة حتى يقتلها ، وإن كانت فوق أنزَلَها ، وكذلك إن كانت أسفلَ ، فإن كان جائعا أكل ما أصاب منها ، وإن لم يكن به جوع قَتَلها وتركها فصارت الحيّات ذوات السّم الزُّعاف المُميت لكل من أصابه أو خالط بدنه

---

(١) يريد بقوله « لكيلا تصاد » أنها إذا خصيت قويت على الجرى فلا يقوى الصيادون على اصطيادها .

(٢) يريد بالطروقة : الأتان التى يطرقها الفحل .

(٣) « الحرس » .

(٤) « القياس » .

(٥) « الناس » .

غذاء هذه الأيايل ، ويكون ملائما لها لذيذا عندها .

وإن دخّن البيت الّذى فيــه الحيّات بدخان حريق قرن الأُيّـل فرّت منه كلّها خوفا .

على أن الأُيّـل نفسه جبان شديد الرعب ، إذا أكل الحية بدأ بذَنَبها حتى ينتهىَ إلى رأسِهـا ، ثم يقطعه بأسنانه ، وأكبرُ[١] من ذلك [أنه] يتعلّق برءوسها وتبقى فى الهواء . وتَـكثُر فيه المِرّة[٢] ويَعطَش عطشا شديدا فيَعوج إلى غدير الماء .

الغزال ، يقال : ليس فى الحيوان أبصر من الظّباء ؛ ويقال لها باليونانيــة النّظّارة والمُبصِرة .

الثور دابّة عَمولٌ كدُودٌ مقدّرٌ جسمُه بقدر قوّته . من طبيعته كثرةُ المنىّ وتوقّدُ شهوة السِّـفاد ، إن لم يُخْص لم يذلَّل للعمل ولم يَسكُن ولم يصحّ جسمُه لأنّ الغُلْمَـةَ تحلّ[٣] جسمَه تنحِله ، والخِصَاء يَقْطَع ذلك كلَّه . وبينه وبين الدّب[٤] عداوةٌ شديدة .

أعنُزُ[٥] الجبل وكباشُه وهى الأرْواء والتّياتِل هذا جنس متمرّد فى الجبال سريع الحُضْر فى الشواهق والتوقُّل[٦] فيها[٧] وطبيعتُهـا أنْ تَلِد تَوائمَ .

---

(١) أى وأكبر مما مرّ من دلائل جبنه أنه لا يقطع رءوسها بأسنانه كما سبق ، بل يتعلق بها فلا يأكلها خوفا ولا يلقيها من فيه فتبقى رءوسها معلقة فى الهواء . هذا ما يلوح لنا من معنى هذه العبارة .

(٢) المرة : خلط من أخلاط البدن ، وهى الصفراء .

(٣) « تدخل » .

(٤) « الذئب » .

(٥) « أنسج » . ولم نجد هذا الجمع فى كتب اللغة .

(٦) التوقل : الصعود .

(٧) « فى الما » .

قد يوجد من البهائم ما لا يَحيل، فأما أنثى الخيل إذا كانت حاملا فوَطِئتْ أثرَ الذئب بحافرها أجهضتْ حملَها .

الحمارُ فى طبيعته معرفة صوت الإنسان الذى أعتاد استماعَه وإيناسه، لا يضلّ عن طريق سَلَكه مرّة ولا يخطئه، إذا ضلّ راكبُه الطريقَ هداه وحمله على المَحَجَّة .

وأمّا حِدّة السمع، فليس فى البهائم فيما يُذكَر أحدٌ سمعا منه .

اليامُورة[1] دابّة وحشيــة نافرة، لها قرنان طويلان، كأنهما منْشاران تَنشُر بهما الشجر ؛ إذا عَطِشتْ وردت الفرات وعليه غَياطِل[2] وغِياضٌ ملتفّةٌ أشجارُها تفرّعت من أغصانها غصونٌ طوال دقاق مشبّكة، فإذا شربت رِيّها وأرادت الصَّدَر أشتهت الاستتار[3] والعَدْوَ بين تلك الأشجار «ولجّت[4] هناك» فعلق قرْناها بتلك الغصون اللَّدْنة المتينة، وكلّما عالجتْها لتُفلِت أزدادت أرتباطا فإذا ضَجِرتْ مما وقعت فيه عجّت جزعا، وسَمِع القُنّاص صوتَها فأتَوْها فقتلوها .

الجَمَل : حقود، يرتصد مِن ضارِبِه الفرصة والخَلْوة لينتقمَ منه ؛ فإذا أصاب ذلك لم يستبقِ صاحبَــه، فأما ظهرُه فذو سَنام مقبّب يكون لــكثرة الحَمل وأحتمال الثِّقْل، وأوصالُ ركبتِه وعراقيبُــه كبارٌ صلاب، وأوتارها وعروقُها متينة شديدة، وعَصَبه وثيق لم يشــتد[5] بضغط أُلتحام مفاصله وأتصالها ولم يسترخ مطويّا[6]، لــكنها هُيِّئتْ على الاعتدال[7] ليهون عليــه بذلك البُروكُ

(١) « التامورة » .
(٢) الغياطل : الــكثير الملتف من الشجر والنبات .
(٣) « الانثيار » .
(٤) وردت هذه العبارة فى الأصل مؤخرة عن هذا الوضع ؛ والسياق يقتضى وضعها هنا .
(٥) « لم يستبد » .
(٦) « مطريا » .
(٧) فى الأصل « الاقتدار » ؛ وهو تحريف ؛ والمراد بالاعتدال هنا أن أعصابه ليست شديدة ولا مسترخية، بل هى بين ذلك .

والنهوضُ بِحمله ، مع تسهيل الأرتقاء عليه فى ذلك .

البغال : نوعٌ هَجِين قد أُنبِئنا أنه لا يَلِد ، إلاَّ أنَّه أهدَى للطريق[(١)] للناس وأثبت حفظا .

الثيران وكلُّ ذى قرن لا يأخذه الفُوَاق .

وأما سباع الطير وآكلات اللحم منها فصِلاب الأظفار ، حُجْنُ[(٢)] المَناقير ذات حدَّة وقوَّة ، قويَّةُ الأجنحة .

والنواهض[(٣)] التى فيها القوادم أكثر طيرا .

الديكُ صَلِف فى طبيعته ، غير أنَّ له مع ذلك إيقاظا للنائم بصياحه فى آناء الليل ، والتبشيرَ بإقبال الصبح وطلوعِ الشمس ، يؤنس السيارات فى السَّفَر[(٤)] بصياحه فى اللّيل ، ويحرّضهم على السير ، مع إيقاظه الفلاّحين لعملهم ، والصّنّاعَ لصناعتهم ، وإذا سمع المرضى صوتَه داخَلَهم من[(٥)] ذلك رَوْحٌ وخفّة من مرضهم .

الطاوس يحبّ الزينة ، غيرُ عفيف الطبيعة ، يدعوه زهوه وحرصُه على التزيّن إلى نشْر ذنبه وعَقدِه كالطاق لتراه الأنثى بحسن زينته .

الكراكىّ تتحارس[(٦)] باللّيل ؛ ويجعل الحارس منها يتردد فى المحلة ويهتف بصوت يسمع محذّرا[(٧)] ، فإذا قضى نوبتَه أستراح وأعقبه الذى كان مستريحا نائبا عنه حتى تقضى كلُّها ما يلزمها من الحراسة ، فإذا طارت لم تَطِر

(١) أهدى للطريق للناس ، أى أكثر هداية — لراكبه من الناس — إلى طريقه .

(٢) حجن المناقير ، أى معوجتها ، الواحد أحجن ، والأنثى حجناء .

(٣) النواهض : فراخ العقبان التى وفرت أجنحتها وقويت على الطيران ، الواحد ناهض . وفى الأصل : « والمناهض » ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة .

(٤) « يؤنس فى السفر والسيارات لصياحه » .

(٥) « مع » .

(٦) « تتحاربن » .

(٧) « محددا » .

متقطعةً ، لكنّها تطير نَسَقا غير مشتّتة ، يَقدُمها واحد منها كالرأس والهادى لها حتى تتلوه كلّها لازمةً صفّها ، ثم يعقبه بعده آخَر متقدّم حتى يصير المتقدم الأوّل متأخرا فى آخرها ، وتقتسم كرامة المتقدم كلُّها بالسويّة ؛ وفيها ما يبعد سفرُه وينتقل عن مصيفه إذا هجم الشتاء .

البط له يقظة حارسة تدل على حِدة حسّه .

الجراد معروف الحال .

العقاب تطلب عين[1] الماء ، فإذا أصابتها تحلّق طائرةً إلى حر الشمس وهو موضع دورانها فيحترق ريشها وما كان من جناح ، ثم تغوص فى تلك العين فإذا هى قد عادت شابة[2] « وتذهب ظلمة عينيها »[3] .

وأما الطريح[4] فيقيّض الله له طائرا يقال له : قاس[5] فيضمّه إليه ولا يدعه يهلك ، ولكنّه يقوّيا ويربّيه مع أفراخه .

وأجنحة العِقْبان مفصَّلة شِبْه رِيشها .

وبصرها قوىٌّ بعيد تحت الشّعاع المستنير .

ويقال : إنها أبصر الطير .

الحَجَل يأتى أعشاش نظرائه فيسرق بيضها ثم يحضُنها ، فإذا تحرّكتْ الفراخُ وطارت لحقتْ بأمّهاتها .

البُوم مأواه ومحلّه الخراب ، يوافقه اللّيل ، لأنّه بالليل بصير وبالنهار كَلِيل ، مع حبّه التوحّد والخلوةَ بنفسه ، وبينه وبين الغِربان عداوة ما تنقضى .

---

(١) « من » .

(٢) « مثابة » .

(٣) وردت هذه العبارة فى الأصل قبل هذا الموضع .

(٤) يريد بالطريح : الملق الذى لا يقدر على الطيران لضعفه من المرض ونحوه .

(٥) لم نجد اسم هذا الطائر فيما راجعناه من الكتب .

النَّسر يتّخذ وَكْرَه فى المكان العالى المرتفع ، وعليه يقع وفيه ينام كالراصد ، إما فى ذِروة الجبل أو فى وسطِه من شظاياه(١) وثناياه وموضِع المَنَعة .

وإذا حَملتْ زوجتُـه مضى إلى الهند فأخذ من هناك حجرا كهيئة الجَوزة إذا حُرِّكَ سُمِع به صوتُ حَجرٍ آخَرَ — يتحرّك فى وسطه(٢) — كصوت الجَرس ، فإن عسرتْ على زوجته الولادةُ جَملتْ ذلك الحجر تحتها وعَلتْ عليه فيذهب عنها العُسْر .

قال : ورأيت مرّة أنثى من جنس الطير مات زوجها فامتنعت من الطعام والنوم ليالى(٣) كثيرة صارت فيها كالنائحة الباكية على زوجها بتنفُّسِ الصعداء وزَفَراتِ الحُزن لا تَلقُط أيّاما متتابعةً شيئا .

البُزاة من طبيعتها أن تداوىَ أنفسها وفراخَها فلا تموت ، لأنّها تَستعمل فى بعض المرض والداء(٤) نِبْتَةً تعرفها وتعرف طبّها ... « ومنه ماينقص ويزيد(٥) » .

النعام : لا يَعُول أفراخه إلا أيّاما يسيرة ، ثم يُدحِضُها(٦) ويطردها من عنده إنكارا لها .

النُداف لايبيض ولا يُفرخ من سفاد ، فإذا أفرخت أُنثاه فراخا لم يزُقّها(٧) ولم يُطعمْها ، إلا [أنّ(٨)] البقّ والبعوض يقع عليها لزهومتها ونتن لحمها ، فتفتح

(١) شظايا الجبل : قطع ضخام تنقلع من عرضه ولم تنفصل انفصالا تاما ، تشبيها لها بالشظايا المعروفة . وثناياه : العقبات فيه .
(٢) « صوته » .
(٣) « ليال » .
(٤) « والدائبتة » .
(٥) لم يتضح لنا وجه الاتصال بين هذه العبارة وما قبلها ؛ فلعل هنا كلاما سقط من الناسخ .
(٦) يدحضها : يدفعها .
(٧) « يدقها » .
(٨) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

أفواهَها وتَبلع ما دخل فيها من ذلك البقّ ، فهو يمسكها و يقوّيها .

أنحاء طَيَران الطير مختلفة كاختلاف الطير ، بعضها يطير قريبا من الأرض كالبط وما أشبهه ، و بعضها يرتفع ، غير أنّه لا يُبعد ، كالحمام والغِرْبان ، و بعضها يحلّق تحليقا ، كالعُقاب والصُّقور(١) والأجادِل والبُزاة .

وما كان من الطير بدنه أعظم من جناحه فهو قريب الطيران من الأرض ، لسرعة إخْناء أجنحته واضطراره إلى الوقوع على الأرض .

البيضانيّ(٢) والأَبْغَث(٣) : هـذا طائر يحِبُّ ولده ، فإذا تحرّكت فراخه ودَرَجتْ ضَربتْ وجهه بأجنحتها فيدعوه المَحْكُ والغضب المطبوعان فيه إلى قتلها ، فإذا ماتت اكتأب عليها الأبوان وأقاما عليها شِبهَ المأتم ثلاثة أيّام ، ثم إن الأمّ فى اليوم الثالث تشقّ جَنْبَها حتّى يَقطُر دمُها على تلك الفراخ ، فيصير ذلك نشوراً لها بعد موتها .

مالك الحزين(٤) يَنشُل الحيتانَ من المـاء فيأكلها وهى طعامه ؛ لا يُحسِن السباحة ، فإن أخطأه أنتشالٌ لجاع طرحَ نفسه على شاطئ النهر فى بعض ضحضاحه ، فإذا اجتمعت إليـه السمك الصغار لتأكله أسرع [لأكل(٥)] ما يؤكل منه .

من الطير ما يَلقَح من هبوب الريح ، لا يحتاج إلى تزاوُج ولا إلى سِفاد .

(١) « والسنور » .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل ؛ ولم نجده فيا راجعناه من كتب اللغة والكتب المؤلفة فى الحيوان .

(٣) وردت هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط ؛ والصواب إثباتها على هذا الوجه . والأبغث : طائر من طير المـاء كلون الرماد ، طُويل العنق ؛ وسمى أبغث لبغثته ، وهى بياض إلى الخضرة ، وهو من شرار الطير .

(٤) مالك الحزين : من طير المـاء ، وهو البلشون ، طويل العنق والرجلين .

(٥) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد فى الأصل .

والخفّاش له خصيتان كَخُصَى الحيوان ، وله أربع قوائم وأسنان حداد كأسنان ذوات الأربع ، يُرضِع ولدَه من اللبن إرضاعا ، وجلدُه أملس .

العَقعق لا يأوى تحتَ سقف ولا يستظِلّ به ، ولكنه يهىّء وَكْرَه فى المواضع المشرِفة العاليــة والعَرَاء الــكاشِف وجهَ الهواء الفسيح ؛ وطبيعته الزّنا وخيانة الزوج ، فإذا باضت الأنثى بيضها حضّنته بوَرَق الدُّلْب وغطّتْه كيــلا يقربَه الخفّاش ، فإن مسّه مَرِق[1] البيضُ من ساعتِه وفَسَد .

النحل يلد من غير لِقاح الذكور .

الحية إذا هَرِمتْ وكلّ بصرها واسترخى جلدها دخلت فى صَدع صفاة ضيّق أو جُحْر ضاغط يعسر عليها النفوذ فيه حتى ينسلخ عنها جلدها فتأتى عين المــاء فتنغمس فيها حتى يقوى لحمها وينعصب ، فإذا هى فعلت ذلك عادت شابّة كما كانت . فإذا أرادت أن تفىء[2] عينها أكلت الرازِيانج الرطب فاشتفت عيناها واحتد بصرها ، وإن ضُرِبتْ ضربة بقصبة استرخت فلم تستطع الفِرارَ ، فإن ثنيتَها وَثَبتْ وسعتْ هاربة .

إن أُنقِــع الحَسَكُ[3] فى الماء ثم نُضح ذلك الماء بين يدى جُحر الحيّة فرت من هناك .

وإن وُضِــع فى جُحْرها أصل حِمَّصٍ رَطْب فرّت أيضا .

وإن رأت الحيّة إنسانا عُريانا استحيتْ منه ولم تقرَبْه .

وإن رأته كاسيا[4] حَملتْ عليه بجرأة شديدة ؛ وما أشدّ طلبها لثأرها ؛ وإن شُدِخ رأسُها ماتت من ساعتها .

---

(١) مرق البيض : صار ماء وفسد . وفى الأصل : مرت .

(٢) « تفنى » .

(٣) الحسك محركا : نبات له ثمرة شائكة مدحرجة تعلق بأصواف الغنم .

(٤) « كابسا » .

السَّمْسِمَة ، وهى حيّة حمراء برّاقة ، إذا كبرتْ وأصابها وجعُ العين وكَمِدتْ(١) التمست حائطا مُقابل المَشرق ، فإذا تبدَّت الشمس أحدّت إليها بصرها قدرَ ساعة فإذا دخل شُعاع الشمس عينَها كشط عنها العَمَى والإظلام ، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيّام حتّى يتجدّد بصرُها تامّا .

الأفعَى تُزاوج دابّةً بحريّة ، تأتى الأفعى شفيرَ البحر فتصوّت ، وصوتها مُهيّجٌ لتلك الدابّة البحريّة .

من أحرق عَقربا طَرَدَ برائحة حريقِها عقاربَ ذلك البيت .

فأما حُمة العقرب فهى جوفاء كهيئة المِزمار معقّفة الرأس مكوّنة للّدغ ، فإذا ضَربتْ شيئاً تحرّكتْ لخروج سمها وجرى فى حُمتِها وسَرَى فى المَلْدُوغ .

الإناث من بنات عِرسٍ إنما تَلقَح من أفواهها وتلد من آذانها .

من عادة هذا الجنس أن يسرق ما وَجد من حليّ الذهب والفضة ، ويَخبَؤه فى جِحَرته ، فإن وَجد أيضا فى البيت حُبوبا(٢) خلط بعضها ببعض ، كأنّ عمله عملُ الطباخين فى خلط التوابل .

الفار الفارسيّ أطيَبُ رِيحا من كلّ طِيب .

وإن أخذ إنسان جرذا فربطه فى بيت فرّت منه الجُرْذان كلُّها .

وإن وُضع فى جُحر الجرذ البريّ ورقُ الدِّفْلَى(٣) ماتت الجرذان .

---

(١) كمدت عينها ، أى ذهب صفاؤها ، من الكمدة ، وهى تغير اللون وذهاب صفائه .

(٢) « جنوبا » .

(٣) الدفلى ، نبت مر الطعم جدا ، وهو برى ونهرى ، فورق البرى كورق الحقاء بل أرق ، وقضبانه طوال منبسطة على الأرض ، وعند الورق شوك ، والنهرى ينبت فى شطوط الأنهار ، وشوكه خفى ، وورقه كورق الخلاف وورق اللوز ، عريض ، وزهره كله كالورد الأحمر ، وحمله يشبه الخرنوب .

الدودة الهندية هى دودة القز ، لهـا فى رأسها قرنان ، ثم تتحوّل بيضة ثم تتصوّر فى هيئة أخرى ، ذات جناحَين عريضَين منتصِبَين ، وصناعتُها دِمَقْس الحرير .

النمل حَمول مواظب ، فإذا جَمعَ الحبَّ قطّعه كيلا يَنبت إذا أصابه النّدَى والبِلّة ، ويخرِجُه ويبسطُه عند فم الجُحر ، فإذا يَبِس أدخله .

ومن جرّب طبائع النمل أدرَك عِلمَ أزمان المطر والصَّحْو .

من أراد أن يقتل النمل فليدقَّ الـكِبريت والحَبَق[1] ويذرّها فى جُحرته ولا يولَد مِن تَزاوُج[2] ، ولـكنه يخرج منه شىء قليل صغير فيقع فى الأرض فيصير بيضا ، ثم يتصوّر من البيض بالهيئة التى تُرى ، وإذا شمّت الورد مُوِّتت وأجنحتها مُدمَجة لاصقة بها .

البقّ والبعوض لا نِتاج لهما ، وإنما تُنْجَل[3] من عَفَن الماء ووسخِه ونَتْنِه .

ومن وضع غُصنَ العنب فى موضع تحت سريره لم يقربْهُ بقّ ولا بعوض .

ومن أراد ألاّ يتأذّى بالبراغيث فليَحفِر فى وسط البيت حُفرة ويملأها دم تيس فإن البراغيث تجتمع هناك .

وإن وَضع فى الحفرة ورقَ دِفْلَى ماتت البراغيث .

الخُلْد غيرُ ذى عينَين ، دائم الحَفْر فى غير نفع ؛ وطعامُه من أصول النبت وعروقِه الذاهبةِ فى الأرض ، فهو يصيب ذلك فى خلال حَفْرِه .

يقال : إنّ فى بلد كذا نهرا ماؤه فى البحر منحدرا إليه على حال طبيعتــه

(١) الحبق محركة : نبات طيب الرائحة ، حديد الطعم ، ورقه كورق الخلاف ، منه سهلى ومنه جبلى ، وهو الذى يقال له : الفوتنج . وقال أبو حنيفة : إنه يشــبه الريحانة التى تسمى النمّـام ، ويكثر نباته على المـاء ، وهو أنواع كثيرة .

(٢) « يراوح » .

(٣) تنجل ، أى تولد .

ولذلك يصحب السفن متلذذا بأصوات الناس ، فإذا رأى الحوت الأعظم يريد الاحتكاكَ بها وكسرَها ، وثَب الزامور ودخل أذنَه ، فلا يزال زامرا فيها حتى يفرّ الحوت إلى الساحل يطلب خَزَفا أو صخرة ، فإذا أصاب ذلك لا يزال يَضرب به رأسَه حتى يموت .

وركّاب السفينة يحبّونه ويُطعمونه ويتفقّدونه ، ليدوم إلْفه لهم وصحبتُــه لسفينتهم ، ويَسلَوا به من ضرر السّمك العادى .

وإذا ألقَوا شبكةً ليصطادوا السمك فوقع فيها الزامور خلّوه حيًّا وأخذوه[1] وأعتقوا لـكرامته أصناف السمك الواقع فى الشبكة أحياء .

* * *

وإنى [قرأت[2]] هذا الفصل على الوزير — كبت الله كلّ شانىء له — فى ليلتين ، فتعجّب وقال : ما أوسع رحمةَ الله ؛ وما أكثر جُندَ الله ؛ وما أغرَبَ صُنعَ الله . قلتُ : نعم ؛ وما أغفَل الإنسانَ عن حقّ الله الّذى له هـذا المُلك المبسوط[3] ، وهذا الفَلَك المربوط ؛ وهذه العجائب التى تصعد[4] فوق العقول التامّة بالاعتبار والاختبارِ بعد الاختبار ؛ وإنما بثّ اللهُ تعالى هذا الخَلْق فى عالَمه على هـذه الأخلاق المختلفة والخِلَق المتباينة ، ليكون للإنسان المشرَّف[5] بالعقل طريقٌ إلى تعرُّفِ خالقِها ، وبيانٌ لصحّة توحيده له بما يشهد من أعاجيبها ،

(١) عبارة الأصل « وأخذوا أصناف السمك » ، وقوله : « وأخذوا » واقعة فى غير موقعها ، وقد أثبتناها فى الوضع اللائق بها لاستقامة الـكلام بذلك .

(٢) عبارة الأصل « وأن هذا الفصل على الوزير كتب الله » ، وفيها نقص وتحريف كما هو ظاهر .

(٣) المبسوط .

(٤) « تصعد » .

(٥) المشرف .

ستّ ساعات ، وفى الستّ الثانية يَحتبس ماؤه فى يَنْبوعه ويُرَى جوفُه ناضبا[١] قد يَبِس .

ونهرا آخرَ يجرى فى كلّ سبع سنين نهر كبريت ، ولا يكون فيه سمك ، لأنْ ماءه يتغيّر فى كلّ يوم ثلاثَ مرّات ، ويَنبعث[٢] منه شِبه ثور ليس له رأس .

وأهل الشأم إذا أرادوا أخذَه ألقوه فى سفينة ، ولا يستطيعون قطعَه بفأس ولا كسرَه بحجر ، إنما يؤتَى بالماء المُنتِن ودمِ الحيض فيُخلَطان جميعا ثم يُنضَحان عليه ، فإذا وقعا عليه تحلّل وتكتّل كُتَلا[٣] صِغارا ، وتُستعمَل فى أشياء يُنتفَع بها .

عين النار تنبع منها نارٌ تضىء بالليل للسيّارات فلا تَطْفَأ[٤] ولا تَحتاج إلى شىء يمسكها ، لكنّها محفوظة بالحجارة ؛ إن حَمَل إنسانٌ منها شُعلةَ قَبَسٍ إلى موضع لم تُوقد .

البحر الميّت يقال له ذلك لأنه يموت فيه كلّ حىّ .

السَّرَطان ينسلخ جلده فى السنة سبعَ مرّات ، ويتّخذ بجُحْرِه بابين : أحدهما شارعٌ إلى الماء ، والآخَر إلى اليُبْس ؛ وإذا سُلِخ جلده سَدّ عليه الشارعَ إلى الماء لكيلا يَدخلِ السمكُ فيأكلَه ؛ إلا أنّه يدع الّذى إلى اليبس مفتوحا فتصيبه الريح وما يَنْفَعُ لَحْمَه ويَمصِمه ، فإذا اشتدّ لحمه وعادَ إلى حاله فَتَحَ ذلك المسدود وسَلَك فى الماء وطلب طعمَه وما يقيم حياته .

الزامور حوت صغير الجسم إلفٌ لأصوات الناس ، مستأنِسٌ باستماعها

(١) « ناصبا » .
(٢) « ينبع » .
(٣) « وتكيل كيلا » .
(٤) « يطفئها » .

ونَيلٌ لرضوانه بما يتزوّد من عِبَره الّتي يجد فيها ، وليكون له موقظٌ منها ، وداعٍ حادٍ(١) إلى طاعةِ مَن أبداها وأبرزها ، وخلطها وأفرَدَها .

فقال : قد كنتَ قلتَ : إنّه يجرى كلامٌ فى النّفس منذ ليالٍ ، فهل لك فى ذلك ؟ .

قلتُ : أشدّ الميل(٢) وأوحاه ، لكن بشرط أن أحكِىَ ما عندى ، وأروىَ ما حصّلتُ من هذه العصابة بسماعى وسؤالى . فقال : نستأنف(٣) الخوض فى ذلك — إن شاء الله — فإن النّعْسة(٤) قد حَدّثت العين ، فأنا كما قال :

قد جَعل النُّعاسُ يَغرَنْدِينى(٥) أدفعُـــه عنّى ويَسْرَنْدِينى

أنشِدْنى أبياتا ودِّعنى بها ، ولتكن من سَراةِ(٦) نَجْد ، لِيُشتمّ منها رِيحُ الشِّيحِ والقَيْصُوم .

فأنشدتُه لأعرابىّ قديم :

مُطِرْنا فلمّا أن رَوِينا تهادرت شَقاشِقُ منها رائبٌ وحليبُ(٧)

ورامت(٨) رجالٌ من رجالٍ ظُلامةً وعادت ذُحولٌ بيننا وذُنوبُ(٩)

---

(١) « صام » .

(٢) « الثل » .

(٣) « نستأذن » .

(٤) « النقس » .

(٥) يغرنديني ويسرنديني ، يريد أن النعاس يغلبه ويعلوه . وفى الأصل : « يعرنديني » بالعين المهملة . ولم يرد فى اللسان قائل هذا الشعر .

(٦) « سرارة » .

(٧) تهادرت ، أى تساقطت . والشقاشق : جمع شقشقة ، وهى جرة البعير معروفة ، وكنى بتهادر الشقاشق عن الخصومة بين القوم وتنمر بعضهم لبعض . يقول : لما أخصبت أرضنا تنمر بعضنا لبعض وتهيأ كل فريق منا لمحاربة فريق ، كما يدل على ذلك البيت الذى يليه .

(٨) « رابت » .

(٩) الذحول : جمع ذحل بفتح الذال ، وهو الثأر .

ونَصَّتْ رِكابٌ للصَّبا فتروَّحت لمنْ بما هاج الحبيبَ حبيبُ[(١)]
وطِئْن[(٢)] فِناء الحيّ حتّى كأنّه رَجًا[(٣)] مَنْهلٍ من كرّهِنّ نَخِيب
بَنِى عمِّنا لا تعجلوا ينضب الثّرى غَليلا ويَشْفِى المُسْرِفِينَ طبيبُ[(٤)]
فلو قد تولّى النبت وامْتِيرت القُرى وحُثّت رِكابُ الحيّ حين تؤوب[(٥)]
وصار[(٦)] عَيُوفَ الخُودِ وهى كريمةٌ على أهلها — ذو جِدَّتَين قَشيبُ[(٧)]
وصار الذى فى أنفِه خُنْزُوانةٌ[(٨)] يُنادَى إلى داعِى الرَّدَى فيجيب
أولئــك أيّامٌ تُبيِّنُ ما الفتى أكابٍ[(٩)] سُكَيْتٌ[(١٠)] أم أشَمُّ نجيبُ

فعجب وقال : هذا جَنَى غَرْسٍ قد جُذّ أصلُه ، ونزِيحِ قَليبٍ قد غار مَدُّهُ وجَزْرُه ، وانصرفت .

---

(١) ونصّت ركاب للصبا ، أى رفعت أعناقها لريح الصبا تستروحها . وفى الأصل : « وفضت » ؛ وهو تحريف .
(٢) « وطبن » .
(٣) رجا البئر : ناحيته . وفى الأصل : « وحا » ، وهو تحريف . والنخيب : المنخوب ، أى المنزوع الجوف . وفى الأصل : « يجيب » . شبه فناء الحى وقد وطئته هذه الركائب بجانب منهل منخوب الجوف مهدم من كثرة ما تطؤه أقدام الورّاد .
(٤) نضوب الثرى : كناية عن التقاطع بين القوم ، قال جرير :
فلا توبسوا بينى وبينكم الثرى فإن الذى بينى وبينكمُ مثرى
(٥) امتيرت القرى : انتجعت وطلبت منها الميرة .
(٦) صاره يصوره ، أى ضمّه إليه وأماله نحوه . يشير إلى حلول الجدب وإرخاص الفقر أقدار العلية ، فيستطيع من له ثوبين أن يضم إليه أكرم العقائل الكريمة على قومها بما له من يسير غنى وإن اتضع نسبه .
(٧) « مشيب » .
(٨) الخنزوانة : الكبر .
(٩) « أكان » .
(١٠) السكيت : الذى يجىء آخر خيل الحلبة .

الليلة الثالثة عشرة[1]

(١) فلما حضرتُ ليلةً أخرى قال : هاتِ . قلتُ : إن الكلام فى النفس صعب ، والباحثون عن غيبها وشهادتهـا وأثرها وتأثرها فى أطراف متناوحة[2] وللنظر فيهم مَجال ، وللوهم عليهم سلطان ، وكلٌّ قد قال ما عنده بقدر قوّته وحظِه ، وأنا آتى بما أحفظه وأرويه[3] ، والرأى بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح .

قال بعض الفلاسفة : إذا تصفّحنا أمرَ النفس لحظناها[4] تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن ، لأن الإنسان إذا تصوّر بالعقل شيئا فإنّه لا يتصوّره بآلة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف ، فإن الجزء الذى فيه النَّفْس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة [إلى[5]] أخرى عند تصوّره بالعقل ، فيظنّ الظانّ منّا أنّ النفس لا[6] تفعل بالبدن ، لأنّ هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسميّة .

وقد تعرف النفس أيضا الآنَ من الزمان والوحْدةَ واليقظةَ ، وليس لأحد أن يقول : إن النفس تعرف هذه الأشياء بحسٍّ من الإحساس ، ففِعل النفس

---

(١) يلاحظ أننا ذكرنا فى الليلة السابقة أنها الليلة الحادية عشرة ، والصواب أنهما ليلتان الحادية عشرة والثانية عشرة ، كما يتبين ذلك من قوله : « فى ص ١٩٥ س ١٠ : « وإنى قرأت هـذا الفصل على الوزير كبت الله كل شانئ له فى ليلتين » ولهذا جعلنا هذه الليلة الثالثة عشرة .

(٢) متناوحة ، أى متقابلة .

(٣) « وأرومه » .

(٤) « لحقناها» .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٦) فى الأصل : « إنما » والتعليل الآتى بعد يقتضى أداة النفى كما أثبتنا .

إذن يفارق البدن ، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال : للنفس أفعال تخصّها خلوٌ من البدن ، مِثل التصور بالعقل ، وكلُّ ما له فعل يخصّه دون البدن فإنه لا يَفسد بفساد البدن عند المفارقة .

وقال أيضا : وجدنا الناس متّفقين على أن النفس لا تموت ، وذلك أنّهم يتصدّقون عن موتاهم ، فلولا أنّهم يتصورون أن النفس لا تموت ، ولكنّها تنتقل من حال إلى أخرى إما إلى خير و إما إلى شر ؛ ما كانوا يستغفرون لهم ، وما كانوا يتصدقون على موتاهم ويزورون قبورهم .

وقال أيضا : النفس لا تموت ، لأنها أشبه بالأمر الإلٰهي من البدن ، إذ كان يدبّر البدن ويرأسه .

والله جلّ وعزّ المدبّر لجميع الأشياء ، والرئيسُ لها . والبدن أشبهُ شيء بالشيء الميّت من النفس إذ كان البدن إنما يحيا بالنفس .

وقال أيضا : النفس قابلة للأضداد ، فهى جوهر ، فالفائدة أن النفس جوهر .

وقال : النفس ليست بهَيُولَى ، فلو كانت هَيُولى لكانت قابلةً للعِظَم ، فليست النفس إذًا بهَيُولَى .

وقال : ليست النفس بجسم ، لأن النفس نافذة فى جميع أجزاء الجسم الذى له نفْس ، والجسم لا ينفذ فى جميع أجزاء الجسم[1] ؛ ولا هَيُولى ، لأن النفس لو كانت هيولى لكانت قابلة للمقادير والعِظَم[2] ، وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة .

(١) « النفس » .

(٢) يلاحظ أن هذا الكلام مكرر مع ماسبق من قوله : النفس ليست بهيولى الخ .

وقال آخر : حركةُ كلّ متحرّك تنقسم قسمين : أحدهما من داخل ، وهو قسمان : قسم كالطبيعة التى لا تسكن البتّة ، كحركة النار مادامت نارا ، وقسمٌ هو كحركة(١) النفس تهيج أحيانا وتسكن أحيانا ، وكحركة جسد الإنسان التى تسكن إذا خرجتْ نفسه وصار جيفة .

والقسم الآخَر من خارج ، وهو قسمان : أحدهما يُدفع دفعا كما يُدفع السهم ويُطلَق عن القوس ، والآخَر يُجَرُّ جرًّا كما تُجَرّ العَجَلة والجيفة .

وقال : فنقول : ليس يَخفى أنّ جسدنا ليس مدفوعا دَفْعا ولا مجرورا جرًّا و[لمّا](٢) كان كلّ مدفوع أو مجرور متحرّك من خارج متحرّكا لا محالة من داخل ، فالجسد إذَنْ متحرّك من داخل اضطرارا .

وقال : إن كان جسدنا متحرّكا من داخل ، وكان كلّ متحرّك من داخل إمّا متحرّكا حركةً طبيعيّة لا تسكن ، وإما نفسيّة تَسْكن .

فليس(٣) يَخفَى أنّ حركة جسد الإنسان ليست بدائمة لا تسكن ، بل ساكنةً [لا(٤)] تدوم ، وكانت حركةُ كلّ ما سكنتْ حركتُه فلم تدم ليست حركةً طبيعيّة لا تسكن ، بل نفسيّةً من قِبَل نفس تحرّكه وتحسّسه .

وقال : إن كانت النفس هى التى تُحيي الإنسان وتحرّكه ، وكان كلّ محرّك يحرّك غيره حيًّا قائما موجودا ، فالنفس إذًا حيّةٌ قائمة موجودة .

وقال أيضا : النفس جوهر لا عَرَض ، وحَدّ الجوهر أنّه قابل للأضداد من غير تغيّر ، وهـذا لازم للنّفس ، لأنّها تَقْبَل العلم والجهل ، والبِرّ والفُجور

(١) « حركة » .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل .
(٣) فى الأصل : « وقال ليس » ؛ والظاهر أن قوله : « وقال » زيادة من الناسخ .
(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل .

والشجاعة والجبن ، والعفّة وضدّها ، وهذه أشياء أضدادٌ ، من غير أن تتغيّر في ذاتها ، فإذا كانت النفس قابلةً لحدّ الجوهر ، وكان كلٌّ قابل لحدّ الجوهر جوهرا فالنفس إذًا جوهر .

وقال : قد استبان أن النفس هي المحيية المحرّكة للجسد الّذي هو الجوهر و[لما] كان كلٌّ مُحْيٍ محرّكٍ للجوهر جوهرا فالنّفس إذاً جوهر .

وقال : لا سبيل أن يكون المُحْيِل المحرّكُ جوهرا ويكون المحيي المحرّكُ غيرَ جوهر ، فإذا كانت هي المحيية المحركة للجسد ، وكان لا يمكن أن يكون المحيي المحرّك للموجود غيرَ موجود ، فالنفس إذاً لا يمكن [أن تكون[1]] غير موجودة .

وقال : إن كانت النفس بها قُوَى وحياةُ الجسد ، فيمتنع أن يكون قوامها بالجسد ، بل بذاتها التي قامت بها حياة الجسد .

وقال : إن كانت النفس قائمة بذاتها التي قامت بها حياة الجسد ، فما كان قائما بذاته فهو جوهر ، فالنفس إذا جوهر .

وقد أملى علينا أبو سليمان كلاما في حديث النفس هذا موضعه ، ولا عذر في الإمساك عن ذكره ليكون مضموما إلى غيره ، وإن كان كلٌّ هذا لم يجْرِ على وجهه بحضرة الوزير — أبقاه الله ومد في عمره — لكن الخوض في الشيء بالقلم مخالفٌ للإفاضة باللسان ، لأن القلم أطولُ عِنانا من اللسان ، وإفضاء[2] اللّسان أحرَجُ من إفضاء القلم ، والغرض كلّه الإفادة ، فليس يكثر الطويل .

قال : ينبغي أن نعرف باليقظة التامّة أن فينا شيئا ليس بجسم له مَدّات ثلاث : أعني الطول والعرض والسّمْك ، ولا بجزْأ من جسم ولا عَرَض من

(١) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل . والسياق يقتضي إثباتها .

(٢) « وقضا » .

الأعراض ، ولا حاجة به إلى قوّة جسميّة ، لكنّه جوهر مبسوط غيرُ مُدرَك بحِس[١] من الإحساس . ولمّا وجدنا فينا شيئا غيرَ الجسم وضدَّ أجزائه بحدّته وخاصّته ، ورأينا له أحوالا تُباين أحوال الجسم حتّى لا تُشارِكَ فى شىء منها وكذلك وجدنا مباينته للأعراض ، ثم رأينا منه هذه المباينةَ للأجسام والأعراض إنّما هى من حيث كانت الأجسام أجساما والأعراض أعراضا ؛ قضينا أنّ ها هنا شيئا ليس بجسم ولا جزء من الجسم ، ولا هو عَرَض ، ولذلك لا يَقبل التغيّر ولا الحيلولة ، ووجدنا هذا الشىء أيضا[٢] يطّلع على جميع الأشياء بالسواء ولا يناله فتور ولا ملال ، ويتضحُ هذا بشىء أقوله : كلّ جسم له صورة فإنّه لا يَقْبَل صورةً أخرى من جنس صورته الأولى البتة إلاّ بعد مفارقتـه الصورةَ الأولى ، مثال ذلك أنّ الجسم إذا قبل صورةً أو شكلا كالتثليث ، فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير إلاّ بعد مفارقة الشكل الأول . وكذلك إذا قبل نقشا أو مثالا فهذا حاله ، وإن بقىَ فيه من رسم الصُّورة الاولى شىء لا يَقبل الصورة الأخرى[٣] على النظم الصحيح ، بل تُنقَش فيه الصورتان ، ولا تتمّ واحدة منهما ، وهذا يطّرد فى الشَّمَع[٤] وفى الفضة وغيرها إذا قبل صورة نَقْش فى الخاتَم ؛ ونحن نجد النفس تقبل الصوَرَ كلَّها على التمام والنظام من غير نقص ولا عجز ، وهذه الخاصّة ضدٌّ لخاصّة الجسم ، ولهذا[٥] يزداد الإنسان بصيرةً كلّما نظر وبحث وارتأى وكَشَف .

(١) « يحسن » .

(٢) هذه الكلمة وردت فى الأصل فى غير موضعها اللائق بها من العبارة ؛ والسياق يقتضى وضعها فى هذا الموضع .

(٣) « الأولى » .

(٤) « السمع » .

(٥) « ولماما » .

ويتضح أيضا عن كَثَب[1] أن النفس ليست بعَرَض ، لأنّ العَرَض لا يوجد إلاّ فى غيره ، فهو محمول لا حامل وليس هو قِوَاما ، وهذا الجوهر الموصوف بهذه الصفات هو الحامل لما لها أن تَحْمِلَ ، وليس له شبه من الجِسم ولا من العَرَض .

وكان يقول : إذا صدق النظر ، وكان الناظر عاريا من الهوى ، وصحّ طلبُه للحق بالعشق الغالب ، فإنه لا يخفى عليه الفرق بين النفس المحرّكة للبدن ، و بين البدن المتحرّك بالنفس .

قال : ولمّا عرضت الشبهة لقوم قصر نظرهم ، ولم يكن لهم حظ ولا اطّلاع فظنّوا أنّ الرباط الّذى بين النفس والبدن إذا انحلّ فقد بَطَلاَ جميعا .

وهذا ظنٌّ فيه عَسْف ، لأنّهما لم يكونا فى حالِ الارتباط على شكل واحد وصورةٍ واحدة ، أعنى أنّهما تبايَنا[2] فى تصاحُبِهما وتَصاحَبَا فى تبايُنِهما[3] .

ألا تَرَى أنّ البدن كان قِوامُه ونظامُه وتمامُه بالنفس ؟ هذا ظاهر .

وليس هذا حُكْمَ النّفْس فى شأنها مع البدن ، لأنّها واصلَتْه فى الأوّل عند مسقط النطفة ، فما زالت تربّيــه وتغذّيه وتُحْييه وتُسَوّيه حتّى بلغ البدنُ إلى ما تَرَى ، ووُجِد الإنسانُ بها ، لأنّ النفس وحدها ليست بإنسان ، والبدن وحدَه ليس بإنسان ، بل الإنسان بهما إنسان ، فإذًا الإنسانُ نصيبُه من النفس أكثرُ من نصيبه من البدن .

وهذه الـكثرة توجَد فى الأوّل من ناحيةِ شرفِ النفس فى جوهرها ، وتوجَد فى الثانى من جهة صاحب النفس الذى هو الإنسان بمـا يستفيده من المعارف

(١) « ونصبح أيضا عن كسب » .
(٢) « تثابتا » .
(٣) « تثابتهما » .

الصحيحة ، ويضمّه إلى الأفعال الواجبة الصالحة ، فأمر المعارف الصحيحة معرفةُ الله الواحدِ الحقّ باليقينِ الخالص ، وأمرُ الأفعال الواجبةِ الصالحةِ العبادةُ له والرضوانُ عنه .

وغايةُ المعرفة الأتّصالُ بالمعروف ، وغايةُ الأفعال الواجبة الفوزُ بالنعيم والخلودُ في جِوار الله ، وهذا هو الصِّراطُ المستقيم الذى دعا إلى الجَواز عليه كلٌّ من رجع إلى بصيرة وآوَى إلى حُسْن سيرة .

فأمّا مَن هو عن هذا كلّه عَمٍ[1] وعمّا يجب عليه ساهٍ ، فهو فى قَطيع النَّعَم ، وإن كان متقلّبًا فى أصناف النِّعَم .

(٢) وكان يقول كثيرا : الناس أصناف فى عقولهم : فصِنفٌ عقولُهم مغمورة بشهواتهم ، فهم لايُبصِرون بها إلّا حظوظَهم المعجَّلة ، فلذلك يكدّون[2] فى طلبها ونَيْلها ، ويستعينون بكلّ وُسْع وطاقة على الظَّفَر .

وصِنف عقولُهم منتبهة[3] ، لكنّها مخلوطة بسُبات[4] الجهل ، فهم يحرِصون على الخير واكتسابه ، ويخطئون كثيرا ، وذلك أنّهم لم يَكمُلوا فى جِبِلّتهم الأولى وهذا نَعتٌ موجود فى العبّاد الجَهَلة والعلماء الفَجَرة ، كما أنّ النّعتَ الأوّل موجودٌ فى طالبي الدُّنيا بكل حِيلة ومَحالة .

وصِنفٌ عقولُهم ذكيّةٌ ملتهبة ، لكنّها عَمِيَة عن الآجلة ، فهى تدأب فى نَيْل الحُظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللّطيفة والسُّمعة الرّبّانيّة ، وهذا نعت موجود فى العلماء الّذين لم تثلج صدورهم بالعلم ، ولا حَقٌّ عندهم الحقّ اليقين ؛ وقصّروا

(١) « عميم » .
(٢) « يكسبون » .
(٣) « متبه » .
(٤) « بسيئات » .

بن حال أبناء الدنيا الذين يَشهَرون فى طلبها السيوف الحداد ، و يطيلون إلى نَيلها سواعدَ الشّداد(١) فهم بالكيد والحيلة يسعَون فى طلب اللذة وفى طلب الراحة(٢) .

وصنف عقولهم مضيئة بما فاء عليها من عند الله تعالى باللطف الخفيّ ، بالأصطفاء السنيّ ، والأجتباء الزكى ، فهم يحلمون بالدنيا ويستيقظون بالآخرة ؛ نتراهم حضورا وهم غَيَب ، وأشياعا وهم متباينون .

وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة ، و إن كان الوصف قد جمعهم باللفظ .

وهذا كما تقولُ : « الملوك ساسةٌ ، ولكل واحد منهم خاصّة » ؛ وكما يقولون : « هؤلاء شعراء ولكلّ واحد منهم بحر » ؛ « وهؤلاء بلغاء ولكل واحد منهم أسلوب » وكما تقول : « علماء ، ولكلّ واحد منهم مذهب » .

وعلى هذا أبو سليمان — حفظه الله — إذا أخذ فى هذا الطريق أطرَب ، لسعة صدره بالحكمة ، وفيض صو به من المعرفة ، وصحة طبيعته بالفطرة .

وقال : إنّا بعدَ هذا المجلس تركنا صنفًا لم نرسُمه بالذكر ، ولم نعرض له(٣) بالاستيفاء ، وهم الهمج الرّعاع الذين إن قلت : « لا عقول لهم » كنت صادقا ، وإن قلت : « لهم أشياء شبيهة بالعقول » كنت صادقا ؛ إلا أنهم فى العدد ، من جهة النسبة العنصريّة والجبلّة الطينيّة والفِطرة الإنسيّة ، وفى كونهم فى هذه الدار عمارة لها ومصالح لأهلها ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : « لا تسبوا الغوغاء فإنهم يُخرجون الغريق ويُطفئون الحريق ويُؤنسون الطريق ويَشهدون السُّوق » .

فضحك — أضحك الله ثغره ، وأطال عمره ، وأصلح شأنه وأمره — فقال :

(١) « السداء » .
(٢) « البرحة » .
(٣) « عليه » .

وكالإشارة فى الحُلْم ، وليست حلما ولا أتنباها فى الحقيقة ، لأن هٰذين نعتان محمودان فى عالم السيلان والتبدّل ، جاريان على التخيل والتجوّز بزوائد لا ثبات لها ونواقص لا مبالاة بها ، رُوحانيّة فى رُوحانيّة ، كما يقال : « هذا صفوُ هذا » ؛ و « هذا صفوُ الصّفو » ومن لحظ هذه السكيفية[١] وبُوشِر صدرُه بهذه الحقيقة أستغنى عن رسوم محدودة بألِف ولام ، وحقائقَ مكنونة فى عرض الكلام ؛ وإذا جهلنا أشياء هى لأهل الأُنْسِ[٢] بلُغات قد فُطروا عليها ، وعبارات أُنِسوا بها ، كيف نجد السّبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها .

فهذا باب واضح ، والطمع فى نيله نازح ؛ وإذا كان المَنال صعبا[٣] فى الموضع الذى عمدنا إليه ، فكيف يكون حالنا فى البحث عما فى حيّز الالوهيّة وبحبوحة الرُّبوبيّة ، ولا كون هناك ولا ما نِسبتُه للكون ؛ وأقوى ما فى أيدينا أن نتعلّل بالوجود ، فالموجودِ والوِجدان والجود ، وهذه كلُّها غليظة بالإضافة إلينا وفوق الدقيقة بالإضافة إلى أعيانها .

فعَلَى هذا ، الصمتُ أوجَدُ للمراد من النُّطق ، والتسليمُ أظفَرُ بالبِغية من البحث .

قال البخارىّ[٤] : فشىء كهذا[٥] بدقيقه وإشكاله ، وغموضه وخفائه ، كيف يَظهر على جِبِلّة بَشَريّة وبنية طينيّة وكَمّيّة مادّيّة وكيفيّة عنصريّة ؟ .

فقال : ياهذا ، إنما يشعّ من هذه السكينة على قدر ما أُستودع صاحبُها من

---

(١) « السكفة » .

(٢) يريد الأنس بمعرفة الله . وفى الأصل « أندلس » .

(٣) « صدقا » .

(٤) البخارى ، هو أبو العباس البخارى تلميذ أبى سليمان المنطق وصديقه ، كثير السؤال والمجادلة له ، كما يتبين مما حكاه أبو حيان عنه فى المقابسات .

(٥) « فشا هذا » .

قد جرى فى حديث النفس أكثر مما كان فى النفس ، وفيه بلاغ إلى وقت ، وأظن الليل قد تمطّى[1] بصلبه ، وناء بكلكله ؛ وانصرفت .

الليلة الرابعة عشرة

ومرّ بعد ذلك فى عرض السَّمَر : ما تقلّد أمرؤ قلادةً أفضلَ من سكينة . (١)
فقال : ذكّرتنى شيئا كنتُ مهتمّاً به قديما ، والآن قرعتَ إلىّ بابه ؛ ما السكينة ؟ فإنى أرى أصحابنا يردّدون هذا الأسم ولا يبسطون القول فيه . فكان من الجواب :

سألت أباسليمان عن السكينة ماهى ؟ فقال : السكائن كثيرة : طبيعيّة ، ونفسيّة وعقليّة ، وإلهيّة . ومجموعة من هذه بأنصباء مختلفة ، ومقادير متفاوتة ومتباعدة .

والسكينة الطبيعيّة اعتدال المزاج بتصالح الأُسْطُقُسّات ، تحدث به لصاحبه شارةٌ تسمّى الوقار ، ويكون للعقل فيها أثر باد ، وهو زينة الرُّواء المقبول .

والسكينة النفسية مماثلة الرّويّة للبديهة ، ومواطأة البديهة للرويّة ، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة ، يحدث بها لصاحبها سَمْتٌ ظاهر ورُنُوٌّ دائم وإطراقٌ لا وُجومَ[2] معه ، وغَيبة لا غفلة معها ، وشهامة[3] لا طيش فيها .

والسكينة العقليّة حُسن قبول الأستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة ؛ ومعنى هذا أن القابل مستغرَق بقوّة المقبول منه ، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفِكر فى طلب الحقّ مع سكون الأطراف فى أنواع الحركات .

والسكينة الإلهيّة لا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحُلْم فى الأنتباه

(١) يشير إلى قول امرئ القيس يخاطب الليل :
فقلت له لمّا تمطّى بصلبه   وأردف أعجازاً وناء بكلكل
كنى بذلك عن طول الليل .
(٢) « وجوه » .
(٣) « وشهادة » .

نور العقل ، وقبسِ النفس ، وهبــة الطبيعة ، وصحّة المزاج ، وحسن الأختيار وأعتدال الأفعال ، وصلاح العادة ، وصحة الفكرة ، وصواب القول ، وطهارة السرّ ومساواته للعلانية ، وغلبتِه بالتوحّد ، وأنتظام كلّ صادر منه ووارد عليه .

وهاهنا تمّحى الجِبِلّة البَشَريّة ، وتتبدّد الجِبِلّة الطِّينيّة ، وتَبيد الـكَمّيّة المادّيّة وتعفو الـكيفيّة[1] المنصريّة ، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلُّها لتلك السكينة التى قدّمْنا وصفنا لها ، واشتدّ وجدُنا بها ، وطال شوقنا إليها ودام تحديقنا نحوها ، وأتصل رُنُوّنا إليها ، وتناهت نَجْوانا بذِكْرها .

وهذا هو الخَلع الّذى سمعتَ بذكره ، واللّباس الذى سألتَ عنه ، أعنى خَلع ما أنت منه إنسان ، ولِبسَ ما أنت به مَلَك . [ألله] المستَغاثُ منكم ، ما أشدّ بلواى بكم ، لِمَ تتحرّكون إلا إلى ما لا سكون لـكم فيه ؟ ولِم تسألون عمّا لا أطلاع لـكم عليه ؟ سلوا ربّكم أعيناً بصيرة ، وآذاناً واعية ، وصدوراً طاهرة ، وقوّة متتابعة ، فإنكم إذا مُنِحتموها هُديتم لها ، وإذا حُرِمتموها قُطِعتم دونها ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله .

قال البخارى : وقد تركنا يا سيّدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصباء مختلفة .

فقال : لا عجب أن يُنشأ العالَمُ بكلّ ما فيه فى هذه الحومة[2] التى لُذْنا بها وحاوَلْنا الوصولَ إليها ؛ وأىّ شىء أعجَبَ[3] فى هذا المقام ، رسم أو قوام ، أو ثبات أو دوام ، إلّا[4] له نصيب من عناية الله تعالى الـكريم .

---

(١) « الـكمية » .

(٢) « الحرمة » .

(٣) عبارة الأصل : « أعجب له » ، ويلوح أن قوله « له » زيادة من الناسخ .

(٤) عبارة الأصل : « إلا ما له » وقوله : « ما » زيادة من الناسخ .

نعم ، والسكينة المجموعةُ من كلّ ما سلف القول فيه تَقاسَمَها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان ، والغُموض والبيان ، والقلّة والكثرة ، والضّعف والقوّة ، وهذا يتبيّن بأن تَقسِم الطيشَ والحدّة والعجلة والخفّة على أصحابها ، فتجدُ التفاوتَ ظاهراً .

وكذلك إذا قسمت الهدوء والقَرار والسكون والوَقار على أهلها ، فإنك تجد التباينَ مكشوفاً والاُختلافَ ظاهراً .

ثم قال : أما السكينة الّتى هى فى أعلى المراتب فهى لأشخاص هم فوق البَشَر ، وليس لهم نسبة من الخلق إلا الُخلقة الحسّيّة والعِشرة البَشَريّة ، وإلّا فهم فى ذِرْوة عالية ، ومحلّة إلٰهيّة .

قال : وأمّا السكينة التى تلى هذه فهى للأنبياء على اُختلاف حظوظهم منها لأنّها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعَرض الحامل للصّدق وللشبيه بالصدق ، وللحقّ وللقُرْب من الحق ، وللصحيح والتالى للصحيح ، ثم يختلف بيانهم عن[1] ذلك بالتعريض والإيضاح ، والكناية والإفصاح ، والتشبيه والاُستعارة .

قال : فأمّا السكينة التى تتلو هذه فهى التى تظهر على طائفة تَخلُف الأنبياء ، وذلك أنّ بقايا قُوامِهم يرثها الّذين صحِبوهم ، واستضاءوا بنورهم ، وفهموا عنهم ، ولُقِّنوا منهم ، ودخلوا فى زُمْرتهم ، وحاكوهم فى الشّمائل والأخلاق ، وسلكوا منهاجهم فى القياد والسياق ، وصَلحُوا سفراء بين الأبعدين ، كما كانوا سُجَراء[2] للأقربين ، وهم الّذين يفسّرون الغامض ، ويوضِحون المشكل ، ويَبسُطون المطويّ ، ويشرحون المكنيّ ، ويُبرزون المراد والمعنى ، ويوطّدون الأساس ،

(١) « مابهم على » .
(٢) « سحراً » . والسجراء : الأصدقاء الأصفياء .

ويرفعون الالتباس ، وينفون الوَحشة ويحدثون الإيناس .

وأما السكينة الباقية فهى مفضوضة على أتباع هؤلاء بالسِّهام العُلويّة ، والمقادير العَدليّة ، والمناسيب العقليّة ، من غير جَوْر ولا حَيْف ، ولا انحراف ولا ميل .

فقال البخاريّ : أهى — أعنى السكينة — فى معنى فاعلة أو مفعولة ؟ فقال : الفضاء أعرض [(١)] مما تظن ، وإن كان فى غاية العَرض ؛ والذِّروة أعلى من أن ترام وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض .

هى بوجه فى معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها ، وبوجه آخَر فى معنى مفعولة إذا شعرت بتأثرها .

وبوجه آخر ، ليست من هذين القبيلين فى شىء إذا لحظتها فى معانيها قبل تأثيرها وتأثرها ، وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب ، بشائع العادة وقائم العُرف ، والسكينة وراء هذا كلِّه بالحق والواجب والصحة والتّمام فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه ، فإذا شهدتَ المخصوصَ بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكِلةً لعبارتك عن أخلاق رضيّة وأحوال مرضيّة ، وإذا شهدتَ ذلك المعنى من معانى الحق كانت عبارتك متلجلجةً لا نظام لها ولا تَعادُل ولا اتساق على العادة الجارية والحال الطارئة ؛ فأحَقُّ ما ينبغى لطالب الحكمة واللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر ، ويكشف وينقِّر ، ويستقصى وَيسْبُرُ [(٢)] ويسأل ويستبصر ؛ حتى إذا بلغ هذه الآفاق ، وشهِد هذه الأعلام ، ووَجد الصَّواب الذى لا شَوْبَ فيه ، وصادف اليقين الذى لا ريب معه ، وعرف الاستبانة التى تغنى عن البيان ، وذاق المعنى الذى هو فوق العِيان ، أمسك وانتهى ، ووقف واستغنى

(١) « الفضا أغض » .

(٢) « ويصبر » .

لا لِعَرَضِ ظلام غَشِيَه ، ولـكن لسلطانِ شُعاعٍ مَلَكه ؛ لأن ذلك النور محيط بكل شيء دونه ، ومستَوْلٍ على كلّ شيء تحته .

وكان يقول فى هذا الفنّ إذا جدّ به الـكلام وبدا منه المـكتوم وشرد عنه الخاطر ما لا يُوعَى بحفظ ، ولا يُروى بلفظ .

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثورَه بهذه الحروف لفظا لينظموا منه شذرا وعقدا ، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا فى تقويم ذلك كلّه ، وتعاونوا على تحبيره ، وتصادقوا [على] مفهومهم منه ، وتجنّبوا المنازَعة والشغَب عليه ، وأخذوا بالعفو والممكن منه ، لئلاّ يفوتهم المعنى ، ولا يتحيّرون فى المنتهى .

وسأله الأندلسى فى هذا المجلس عن الأمم وأحوالها ، ونقصها[1] وكمالها ؛ فقال : (٢)
اشتركت الأمم فى جميع الخيرات والشرور ، وفى جميع المعانى والأمور : اشتراكا أتى على أول التفاوت ووسطِه وآخره ، ثم استبدّت كلُّ أمة بقوالب ليست لأختها ، واشتراكهم فيها كالأصول واستبدادهم كالفروع ، وفيما اشتركوا فيـه المحمود والمذموم .

ولم يَجُزْ فى الحـكمة الإلهيّة غيرُ هذه القسمة ، لأن الاشتراك لو سبق بلا تفاوت لم يكن اشتراكا ، والتقاسمَ لو عَرِى من الاتفاق لم يكن تقاسُما ، فصار ما من أجْلِه يفترقون ، به يجتمعون ، وما من أجله ينتظمون ، به ينتثرون .

فعلى هذا اشتركوا فى الأخلاق واللّغات ، والعقائد والصناعات ، وجرّ المنافع ودفع المَضارّ ، مع اختلافِهم فيها بنوع ونوع .

ألا ترى أنّ لغة الهند غيرُ لغة الروم ، وكذلك الصناعةُ والعقيدةُ وما يجرى مجراها ، إلا أنّهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسَموا أشياء بين الفطرة والتّنبيه ،

(١) « ونقصها » .

وبين الأختيار والتقدمة ، فصار الأستنباط والغوص والتنقير والبحث والأستكشاف والأستقصاء والفِكْر [ليونان[١]] والوهم والحَدْس والظن والحيلة والتحيّل والشعبذة [للهند[١]] والحصافة[٢] واللفظ والأستعارة والإيجاز والأتساع والتصريف والسّحر باللسان للعَرَب ؛ والرويّة والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسوم والعبوديّة والرُّبوبيّة للفُرس .

فأمّا التُّرك فلها الشجاعة . والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة ؛ وليس للترك بعد هذا حظٌّ ولا دراية إلاّ بقسط من الظلّ من الشخص .

والعرب مع منطقها البارع لها المزيّة المعروفة على الترك بَعْدُ [في[٣]] السياسة وإن كانت قاصرةً ؛ وأمّا الزِّنج والسودان فغلبت عليها الفُسولة وشاكلت البهائمَ الضعيفة ، كما شاكلت التركُ السِّباعَ القويّة .

قيل له : إن أبا زيد قد عمل كتابا فى أخلاق الأمم . قال : قد رأيته وقرأتُه وقد أفاد ، وكلّ من تكلم على[٤] طريقة الحكماء الّذين يتوخّون من الأمور لُبابَها ، ويصرفون عنها قشورها ، فله السابقة والتقدُّم على من يخبط كفلان وفلان .

ومن جَحَد بلاغة العرب فى الخطابة وجَوَلانَها كلّ مجال وتَمَيُّزها باللسان فقد كابَرَ ، ومن أنكر تقدُّم يونان فى إثارة المعانى من أماكنها وإقامة الصناعات بأسرها ، وبحثِها عن العالم الأعلى والأوسط والأسفل فقد بَهَت .

ومن دفع مزيّة الفُرس فى سياستها وتدبيراتها وترتيب الخاصّة والعامّة بحقّ مالَها وعليها فقد عاند .

---

(١) يلوح لنا أن هاتين الكلمتين اللتين بين مربعين ساقطتان من الأصل كما يدل على ذلك ما يأتى بعد من قوله : « ومن أنكر تقدم يونان فى إثارة المعانى » الخ كما يدل عليه أيضاً كلام سبق فى المفاضلة بين العرب وغيرهم من الأمم فى أوائل هذا الجزء .

(٢) « والحصملة » .

(٣) كلمة « فى » زيادة منا يدل عليها المعنى .

(٤) فى الأصل «غير طريقة» .

وهكذا مَنْ دفع ما للهند ، فليس من شخص و إن كان زريًّا قميئا إلاّ وفيه سِرٌّ كامِنٌ لايَشْرَكه فيه أحد ، و إذا كان هذا فى شخص على ما قلنا ، فكيف إذا نظرتَ إلى ما يحويه النوع . وهكذا إذا ارتقيتَ إلى الجنس ، وهذا لأن عَرْض الجنس أوسعُ من عَرْض النوع ، كما أن عَرْض النوع أوسعُ من عَرْض الشخص ، وليس دون الشخص تحت ، كما أنه ليس فوق الجنس فوق[1] . وأما (٣)
انقسام هذه الثلاثة على هذا فليكون فضاء العالم غاصًّا بالطَّرَف والوسطِ والأفق وليكون سَحًّا بالغا من المَصدر إلى المَورد .

وعلى هذا لولا الجنس لم يُوجد نوعٌ ، ولولا النوع لم يوجَد شخص .

وكذلك العكس .

قال أبو سعيد الطبيب : ألِلعالم العُلْوىّ أجناس وأنواع وأشخاص ؟ قال : كيف يخلو العالَم العُلْوىُّ من هذا التقسيم ، و إنما هذا الذى لحقنا فى العالَم السُّفلى حكايةُ ذلك العالَم العلوىّ حَذوَ النعل بالنعل والقُذّة بالقُذّة . فقال له مستزيدا : فهل فى البسائط الإلهية أجناس وأنواع وأشخاص ؟ فقال : لا ، إلا أنّ يَتخِذ شىء من هنالك قرارَه فى معارض العالَم السُّفلىّ بقوّة العالم العُلْوىّ ، وذلك كالبرق إذا خَطَف ، والنسيم إذا لطف .

قال : فهل ينال البسائط نقصٌ بالإخبار بالأجزاء المركبة عنها كما ينال المركَّباتِ كالٌّ بالأجزاء البسيطة عنها ؟

فقال ، لا ، لأنّ ماعلا يؤثّر ولا يَقبل التأثير ؛ وما سَفُل يتأثّر . ألا ترَى أنّ ماعلا من الكواكب لايتّصل بشىء دونه ، وما سفل منها يتصل بما علا عنه .

وقال له أيضا : إذا قلنا : الرُّوحانيّات ، فماذا ينبغى أن يُلحظ منها؟ فقال : (٤)

---

(١) « تحت » .

الروحانيات على أقسام ؛ فقسم منها متبدِّد فى المركّبات من الحيوان والجماد ، وقسم منها مكتنِفٌ للحيوان والجماد ، و بحسَب هذا الاكتناف هو أبسَط وألطف من القسم الأوّل المتبدِّد ؛ وقسمٌ منها فوق القسم المكتنِف ، وهو الّذى منه مادّة المحيط ؛ وقسم آخَرُ فوق هذا الممتدّ ، ثم فوق هذا ما لايملكه وَهم ، ولا يُدركه فهم ؛ وذلك أنه فى جناب القدس وحيثُ لا مَرَامَ لشىء من قُوَى الجنّ والإنس .

(٥) وسألتُ أبا سليمان فقلت : إنّ علىّ بن عيسى الرمّانىّ ذكر أن التمكين من القبيح قبيح ، لأن التمكين من الحَسَن حَسَن . فلو كان التمكين من القبيح قبيحا مع كونه من الحَسَن حَسَنا كان حَسَنا قبيحا ؛ وهذا تناقض ؛ كيف صحّة هذا الّذى أومأ إليه ؟

فقال : أخطأت[١] ، لأن التمكين وحدَه اسمٌ مجرَّد لشىء محدَّد ، والأسماء المحدَّدة دلالتُها على الأعيان لا على صفات الأعيان أو ما يكون من الأعيان أو ما يكون فى الأعيان .

والتمكين معتبَرٌ بما يضاف إليه و يناط به ، فإن كان من القبيح فهو قبيح لأنّه علّة القبيح ، و إن كان من الحَسَن فهو حَسَن لأنه سببُ الحَسَن .

وهذا كما تقول : هذا الدرهم نافع أو ضارّ ؟ فيقال : إن صرفتَه فيما ينبغى فهو نافع ، وإن أنفقتَه فيما لا ينبغى فهو ضارّ ، وكذلك السّيف فى الآلات ، وكذلك اللفظ فى الكلمات ، والإضافة قوّة إلٰهيّة سرت فى الأشياء سريانا غريزيا قاهرا متملكا قاسرا ، فلا جرم لا ترى حسيّا أو عقليّا أو وهميّا أو ظنيّا أو علميّا أو عرفيّا أو عمليّا أو حُلْميّا أو يَقَظيا إلا والتصاريف سارية فيها ، والإضافة حاكمة عليها .

وهذا لأن الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحقّ ، لأنّ مصدرها من الله

(١) « أخطأ » .

الحقّ ، فالإضافة لازمة ، والنسبة قائمة ، والمشابَهة موجودة . ولولا إضافة بعضنا إلى بعض ما اجتمعنا ولا افترقنا ، ولولا الإضافة بيننا الغالبة علينا ما تفاهمنا ولا تعاونّا .

قال : إذا كنّا بالتضايُف نتوالَى ، فبأىّ شىء بعده نتعادَى[1] ؟ قال : هذا أيضا بالإضافة ، لأن الإضافة ظلّ ، والشخص بالظلّ يأتلف ، وبالظلّ يختلف .

وقالَ : ويزيدك بيانا أنّ العَدَم والوجود شاملان لنا ، سائران فينا فبالوجود نتصادق ، وبالعَدَم نتفارق .

وسأل[2] مرّة عن الطَّرَب على الغناء والضرب وما أشبههما . (٦)

فكان من الجواب : قيل لسُقْراط فيما ترجمه أبو عثمان الدمشقىّ . لِمَ طَرِب الإنسان على الغناء والضرب ؟ فقال : لأنّ نفسه مشغولةٌ بتدبير الزمان من داخل ومن خارج ، وبهذا الشغل هى محجوبة عن خاصّ مالَها

فإذا سمعت الغِناء انكشف عنها بعضُ ذلك الحجاب ، فحَنَّت إلى خاصّ مالَها من المِثالات الشريفة والسعادات الرُّوحانيّة من بعد ذلك العالَم ، لأن ذلك وطنُها بالحقّ .

فأمّا هذا العالَم فإنّها غريبة فيه ، والإنسان تابع لنفسه ، وليست النفس تابعة للإنسان ، لأنّ الإنسان بالنفس إنسان ، وليست النفس نفسا بالإنسان ، فإذا طربت النفس — أعنى حنّت ولَحَظت الرُّوحَ الّذى لَها — تحرّكت وخفّت فارتاحت واهتزّت .

ولهذا يطرح الإنسان ثوبه عنه ، وربّما مزّقه كأنّه يريد أن ينسلّ من إهابه

(١) « تنقاد » .
(٢) سأل ، أى الوزير .

أنّه لا بدن له ، فيكون له عَرَض ، والعرَض كلُّه للممكن بالنعت الذى سلف من الكثرة والقلّة والمساواة .

ولهذا تعلّقت التكاليف به فى ظاهر الحال وبادئ الأمر وعارض الشان ، وأستولى الوجودُ عليه بباطن الحال وخفىّ الأمر وراتب(١) الشان . لكنّ هذا الفصل الّذى اشتمل على الظاهر والباطن ليس ينكشف للحسّ كما ينكشف للعقل .

ولمّا كنّا بالحسّ أكثر — وإن كنّا لا نخلو فى هذه الكثرة من آثار العقل — لزِمَنا الأعترافُ بعوائد الممكِن وعلائقِه ، والعمل عليه ، والرجوع إليه إذا أُمِرْنا أو نُهِينا أو ائتمَرْنا [أو انتهينا(٢)] .

ولمّا ظهر لنا بإزاء هذا الّذى كنّا به أكثر أنّ لنا شبحا آخر نحن به أقلّ وهو العقل يشهد لنا بأنّ صورة الوجوب أستولت من مبدإ الأمر إلى منقطعه الّذى هو فى عَرَض الواجب إلى آخر الممتنِع .

وكما لزمنا الاعتراف الأوّل لنكون به عاملين ومستعملين ، ورافعين وواضعين ، ولائمين ومَلومين ، ونادمين ومُندِمين ؛ كذلك لزِمَنا الاعترافُ بسلطان الواجب الّذى لا سبيل إلى عزله ، ولا محيصَ عن الإقرار به ، ولا فكاك من أُطّرادِه بغير دافع أو مانع .

واتّصل كلامُ أبن يعيش على تقطُّعٍ فى عبارته الّتى ما كانت أداتُه تُواتيه فيها ، مع تدفُّق خواطره عليها ؛ فقال : الرؤيا ظِلّ اليَقَظة ، وهى واسطة بين (٢

(١) « ورأيت » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

الذى لَصِق به ، أو يُفْلِت من حِصاره الّذى حُبِس فيه ، ويهروِلَ إلى حبيبه الّذى قد تجلّى له و برز إليه .

إلاّ أنّ هذا المعنى على هذا التنضيد إنّما هو للفلاسفة الّذين لهم عناية بالنفس والإنسان وأحوالهما .

وأمّا غيرهم فطَرَبُهم شبيهٌ بما يعترى الطيرَ وغيرَها ، وأنصرفتُ .

الليلة الخامسة عشرة

(١) وجرى مرّة كلامٌ فى الممكن ، فحكيتُ عن ابن يعيش الرَّقّىّ فصلا سمعته يقوله ، لا بأس برسمه فى هذا الموضع ، فإنّ التشاور فى هذا الحرف دائم متّصل وينبغى لَنا أن نَبحث عنه بكلّ زَحْف وحَبْو[1] ، و بكلّ كَدٍّ وعَفْو .

قال : الممكن شبيهٌ بالرؤيا لابدنَ له يستقلّ به ، ولا طبيعة يتحيّز فيها .

ألا تَرى أنّ الرؤيا تنقسم على الأكثر والأقلّ والتساوى ، وكما أنّ الرؤيا ظِلٌ من ظلال اليَقَظة ، والظلّ يَنقُص و يزيد إذا قِيسَ إلى الشّخص ؛ كذلك الممكن ظِلٌ من ظِلال الواجب ، فطَوْرا يزيد تشابها للواجب ، وطورا ينقص تَشاكُها للممتنِع ، وطورا يتساوى بالوسط .

قال : والواجب لاعَرَض له ، لأنّه حدّ واحد ، وله نصيب من الوَحدة بدليل أنّه لا تغيُّر له ولا حيلولة لا بالزّمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل ، بل العقل ينقاد له ، والطبيعة تُسلِم إليه ، والوهم يَفرَق منه وصورة الواجب لا يَحْدُسها الظنّ ، ولا يتحكّم فيها تجويز ، ولا يتسلط عليها دامغ ولا ناسخ ، وهذا الحُكم يطّرد على الممتنِع ، لأنّه فى مقابلته على الضّدّ ، أعنى

(١) « حبو وزحف » .

اليَقَظة والنوم ، أعنى بين ظهور الحِسّ[١] بالحركة ، وبين خفائه بالسكون .

قال : والنوم واسطة بين الحياة والموت ، والموتُ واسطةٌ بين البقاء الّذى يتّصل بالشهود[٢] وبين البقاء الّذى يتصل بالخلود .

قال : وهذا نعتٌ على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصوّر ؛ والثقةُ شوكُ القَتاد ، وأزدرادُ العَلْقَم والصاب ، للحواجز القائمة والموانع المعترِضة من الإلف والمَنشأ وغير ذلك ممّا يطول تعديده ويشقّ أستقصاؤه .

فقال[٣] : هذا كلامٌ ظريف ، وما خلتُ أنّ ابنَ يعيش مع فدامته[٤] ، ووَخامَتِه يسحب ذَيلَه فى هذا المكان ، ويُجرى جوادَه بهذا العِنان .

قلتُ له : إنّ له مع هذه الحالِ مَرامىَ بعيدة ، ومَقاصدَ عالية ، وأطرافا من المعانى إذا اعتلقها دَلّ عليها ، إما بالبيان الشافى ، وإمّا بما يكون طريقا إلى الوَهم الصافى .

(٣) وقلتُ : لقد مرّ له اليومَ شىءٌ جرى بينه وبين أبى الخير اليهودىّ أستُفيد[٥] منه .

قال : وما ذاك ؟ أُنثرْ علينا دُرَرَ هذه الطائفة التى نميل إليها بالأعتقاد وإنْ كنّا نقع دونها بالأجتهاد ؛ ونسأل اللهَ أن يَرحم ضَعفَنا الذى منه بُدِئْنا[٦] ويبدّلَنا قوةً بها نجد قُربَنا فى آخرنا .

(١) « والحركة » .
(٢) « بالبنود » .
(٣) فقال ، أى الوزير .
(٤) « قدامته » بالقاف .
(٥) فى الأصل « ما استفيد » و « ما » زيادة من الناسخ .
(٦) « ورينا » . وبدئنا ، أى خلقنا .

قلت : ذكر أنّ العقل لا غَناء⁽¹⁾ له فى الأشياء التى تغلب عليها الحيلولة والسّيلان والتطوّل ، كما أنّ الحِسّ لا ينفذُ فى الأمور التى لا تطوّر لها بالحيلولة والتطوّل ، ولذلك عُرفت الحِكمةُ فى الكائنات الفاشيات⁽²⁾ ، وخفيت العِللُ والأسباب فى بُدُوّها وخُفْيتها وتبدُّدها وتآلفها ، لكنّ هذا الفرق والخفاء مسلَّمان للقُدْرة المستعلِية والمشيئة النافذة .

قال : ولهذا الترتيب سرٌّ⁽³⁾ به حَسُن هذا النعت ، وإليه أُنتهى هذا البحث وذلك أنّ خَفاء ماخَفِىَ بحقّ الأوّل ألْحق ، وبدوّ ما بدا من نصيب أُطْلِق لِلّذى⁽⁴⁾ لا يحتمل غير هذا الثقل ، ولو خُفِّف عنه هذا لَحِق الإنسانُ البهائمَ ، ولو ثقُل عليه هذا لَحِق الملائكة ، فكان حينئذ لا يكون إنسانا ، وقد وجب فى الأصل أن يكون إنسانا كاملا بالنَّصَب والدَّأب ، ويَمتعِض من أن تكون صورةَ الإنسان عنده مُعارة ، لأنه فى الحقيقه حيوان غيرُ ناطق ، بل يجتهد بسعيه وكدحه أن يصير إنسانا فاضلاً ، ويكون فى فضله وكماله ملَكا ، أعنى بالمشاكهة الإراديّة لا بالمشاكهة النوعيّة .

قال : وغاية الحكمة منها للمباشرين لها أنّ المعرفة تَقِفُ على حَيْلولتها ولسيلانها فقط ، لا على تصفّح أجزائها ، لأنّ الترتيب فيها يستحيل مع الزمان .

ألا ترى أنّ الرقم على الماء لاصورة له ، لأن صفحة الماء لاثبات لها ، وكذلك الخطّ فى الهواء ، وكذلك الكائنات البائدات⁽⁵⁾ لا صورة لها ، لأنّها لا ثبات

(١) « عناه » .
(٢) « الفاسدات » .
(٣) « شربه » .
(٤) « الذى » .
(٥) « البارات » .

لها ، وأنت إذا وجدتَ شيئا لا ثبات له لم تضمّ إليه شيئا آخر لا ثبات له طمعا في وقوع الثبات بينهما ، هـذا ما لا يدين به وهم ، ولا ينقاد له ظنّ ؛ ولو ساغ هذا لساغ أن يُجمع بين ما له ثبات ، وبين ما له أيضاً ثبات ، فيَحدثَ هناك سَيَلانٌ واُستحالة .

(٤) وقال : وَصْفُ العقل بشهادة الحسّ ، كما يكون وصف الحِسّ بشهادة العقل إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد ؛ على أن هاتين الشهادتين لا يطّردان ولا يستمرّان ، لأن لـكل واحد من الحس والعقل تفرّدا بخاصّ مالَه ، ولذلك ما وُجد حيوانٌ لا عَقل له البتة ، ووُجد في مقابلته حيّ لا حسّ له .

ثم قال : بل العقل يحكم في الأشياء الرُّوحانية البسيطة الشريفة من جهة الصُّوَر الرفيعة ، والعلائقُ التي بين المعقولات والمحسوسات مانعت العقل ، والعاقل من خلّص[1] الباقيات الخالدات الدائمات القائمات الثابتات من حومة الـكائنات الفاسدات البائنات[2] الذاهبات الحائلات الزائلات المائلات البائدات .

ودخل في هذا التلخيص ضربٌ من الشكّ والتمارى والخصومة والتعادى والتعنّت إلى اُختلاف عظيم ، ووقفتُ عن الحُكم بعد اليقين .

(٥) وقال — أدام الله سعادته — ما السّجيّة[3] ؟ قلت : سمعتُ الأندلسيّ يقول: فلان يَمْشى على سجيّته[3] ، أى طبعه[3] .

(٦) قال : هل يقال : ظَفِرتُ عليه ؟ قلتُ : قد قال شاعرهم .

وكانت قريش لو ظَفِرنا عليهمُ   شفاء لما في الصّدر والنقصُ ظاهرُ

---

(١) « في تخليص » .

(٢) « البائدات » .

(٣) وردت هذه الـكلمات الثلاث التي تحت هـذا الرقم في الأصل هكذا « البه » « حسه » . « لحفظه » . والتحريف فيها ظاهر .

قال : هذا حَسَن . قلتُ : الحروف التي تتعدّى إلى الأفعال ، والأفعالُ التي تتعدّى بالحروف ؛ يراعَى فيها السماعُ فقط لا القياس .

هذا كان مذهب إمامنا أبي سعيد ؛ وقد جاء أيضا « ظَفِر به » ؛ وجاء « سخِرتُ به ومنه » .

ومن لا اتِّساع له في مذهب العرب يظنّ أن « سخِرتُ به » لا يجوز وهو صحيح . حكاه أبو زيد .

قال : كيف يقال في جَمَل به غُدَّة ؟ فكان من الجواب : جَمَلٌ مُغِدّ . قال : فكيف يُجمع ؟ فكان الجواب بأنّه في القياس ظاهر ، ولكن السّماع قد كفى . قال الشاعر — وهو خِراش بنُ زُهير :

فَقَدْتُكمو[1] ولَحظكمو إلينا ببَطنِ عُكاظَ كالإبلِ الغِدادِ[2]
ضَرَبْنَاهمْ ببَطْنِ عُكاظَ حَتّى تولّوا طالِعين مِنَ النِّجادِ

وقال — حرس الله نفسه — من لقبه[3] الخُرَّسِيّ إلى أيّ شيء يُنْسَب ؟

فكان من الجواب : يقال : رجل خُراسانِيّ وخُرَّسِيّ وخُراسِيّ، فنُسبت[4] إلى رجل نزلها[5] فاشتهرت به .

فقال : القَذال كيف يجمع ؟ فكان من الجواب أن فَعالاً وفِعالاً وفُعالاً وفعيلاً وفُعولاً أخوات تُجمعَ في الأقلّ على أفعِلة ، يقال : حِمار وأحْمِرة ، وغُراب وأغْرِبة ، وقَذال وأقذِلة ، وعَمُود وأعمِدة .

---

(١) في اللسان مادة (غدد) : « عدمتكم ونظرتكم »

(٢) في كتب اللغة مادة (غدد) أن غدادا جمع (غادّ) لا جمع سماعيّ (لمُغِـد) كما تفيده عبارة المؤلف .

(٣) « لعه » .

(٤) أي نسبت كورة خراسان إلى رجل اسمه خراسان ، كما في كتب اللغة .

(٥) ورد في الأصل بعد قوله « نزلها » هذه الـكلمة : « سه » مهملة الحروف من النقط ؛ ولم نتبين الصواب فيها .

قال : نسيت[١] أسألك عن المسألة الأولى — أعني الخُرَّميّ — من أين لك تلك الفُتيا ؟

فكان من الجواب : قرأته على أبي سعيد الإمام في شرحه كتابَ سيبويه .

قال : بَرَّدتَ غَليلي ، فإنّ الحجّة في مِثل هذا متى لم تكن بأهلها كانت متلجلجة .

قال : أنشِدْني شيئاً نختِم به المجلسَ ، فقد مرّت طرائف .

فأنشدتُه لعُمارةَ بنِ عَقيل في بنت[٢] له :

حُبُّكِ يا ذاتَ الأُنَيفِ الأكشَمِ[٣] ... حُبٌّ تَساقاه مُشاسُ[٤] أعظُمي

ودَبَّ بين كَبِدي وَمَخزِمي ... وَساطَهُ[٥] اللهُ بلَحْمِي ودَمي

فليس بالمَذْقِ ولا المُكتَّمِ ... ولا الّذي إنْ يتَقادَمْ يُسْأَمِ

لقد نزلتِ من فؤادي — فاعلمي — ... منزلةَ الشيءِ المُحَبِّ المُكرَمِ

وانصرفتُ .

الليلة السادسة عشرة

(١) ثم عُدتُ وقتاً آخر فقال : كنتَ حكيت لي أنّ العامريّ صنّف كتاباً عنونَه (بإنقاذ البَشَر من الجبر والقَدَر) ، فكيف هذا الكتاب ؟

فقلتُ : هذا الكتاب رأيتُه بخطّه عِند صديقنا وتلميذه أبي القاسم الكاتب ولم أقرأه على العامريّ ، ولكن سمعتُ أبا حاتم الرازي يقرؤه عليه ، وهو كتاب

(١) « لست » .
(٢) هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط .
(٣) الأكشم : المقطوع ، يريد وصفها بصغر الأنف حتى كأنه قد قطع منه جزء .
(٤) المشاس : كل عظم لا مخ فيه .
(٥) ساطه : خلطه .

نفيس ، وطريقة الرجل قويّة ، ولكنه ما أنقذ البَشَر من الجَبْر والقَدَر ، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما .

قال : لِمَ قيل الجبر والقَدَر ولَمْ يُقَل الإجبار .

فكان الجواب : أن الإجبار[(١)] لغة قوم ، والجبر لغة تميم ، يقال : جبر الله الخلق وأجبر الخلق ، وجبر بمعنى جبل ؛ واللام تعاقب الراء كثيراً .

قال : فتكلمْ فى هذا الباب بشىء يكون غيرَ ما قاله العامرىّ ، وانقد له إن كان الحق فيما ذهب إليه ودل عليه .

فكان من الجواب : أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأواتى من معدن الإلٰهيات أقرّ بالجبر وعرّى نفسه من العقل والاختيار والتصرّف والتصريف ، لأن هذه وإن كانت ناشئةً من ناحية البَشَر ، فإنّ مَنشأها الأول إنّما هو من الدواعى والبواعث والصوارف والموانع التى تنسب إلى الله الحقّ ؛ فهذا هذا .

فأمّا من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسبين الفاعلين المحدثين اللائمين الملومين المكافَئين ، فإنّه يعلّقها بهم ويُلْصِقها برِقابهم ، ويرَى أنّ أحداً ما أُتِىَ إلّا مِن قِبَل نفسه وبسوء اختياره وبشدّة تقصيره وإيثار شقائه ؛ والملحوظان صحيحان واللاحظان مصيبان ، لكنّ الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف ، لأنه ليس لكل أحد الوصولُ إلى هذه الغاية ، ولا لكلّ إنسان اطلاع إلى هذه النهاية .

فلما وقعت البينونة[(٢)] بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القال والقِيل

(١) « من الإجبار » ، « ومن » زيادة من الناسخ .
(٢) « السوية » .

من ناحية القول والصِّفة ، فهذا هذا .

قال — أطال الله بقاءه — فما الفرق بين القضاء والقدَر ؟

فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال : إنّ القضاء مصدرُه من العِلم السابق ، والقدَر مَوْرِدُه بالأجزاء الحادثة .

فقال : لِمَ وَرَد فى الأثَر ؟ : « لا تخوضوا فى القدَر فإنّه سرّ ٱلله الأكبر » .

فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال لنا فى هذه الأيام . إن الناموس ينطق بمـا هو ٱستصلاح عامّ ، ليكون النفع به شائعاً فى سكون النفس وطِيب القَلب وَرَوْح الصدور .

فإن كان هذا هكذا فقد وَضَح أنّ حكمة هذا السرّ طَيّه ، لأنّ عجز الناظرين يُفضِى بِهِم إلى الحَيرَة ، والحَيرَة مَضَلّة ، والمَضَلّة هَلَكة . وإذا كانت الراحة فى الجهل بالشىء ، كان التعب فى العلم بالشىء ، وكم علمٍ لو بدا لنا لكان فيه شقاء عيشنا ، وكم جهل لو ارتفع منّا لكان فيه هلاكُنا ؛ [والعلم] [1] والجهل مقسومان بيننا ومفضوضان علينا على قدر احتمال كلّ واحد منّا للّذى سبق إليه وعَلِق به ، ألا تَرى أنّ علمَنا لو أحاط بموتنا متى يكون ؟ وعلى أىّ حال تحدثُ العلّة [2] أو المحنة أو البلاء ؟ لكان ذلك مفسدةً لنا ، ومحنةً شديدةً علينا .

فٱنظر كيف زَوى الله الحكيمُ هذا العِلم عنا ، وجعل الخِيرة فيه لنا .

ألا ترى أيضاً أنّ جهلَنا لو غلب علينا فى جميع أمورنا لكان فسادُ ذلك فى عظم الفساد الأوّل ، والبلاء منه فى معرض البلاء المُتقدِّم ، فمَن هـذا الّذى أشرفَ على هذا الغَيب المكنون والسرّ المَخزون فيغفُلَ عن الشكر الخالص ، والٱستسلام الحسَن ، والبراءةِ من كلّ حَوْل وقوّة .

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٢) فى الأصل : « أو العلة » ، « وأو » زيادة من الناسخ .

فالأستِمداد ممن له الخلق والأمر ، أعنى الإبداء والتكليف ، والإظهار والتشريف ، والتقدير والتصريف .

قال : هذا فنٌّ حَسَن ، وأظنّك لو تصديتَ للقصص والكلام على الجميع[1] (٢)
لكان لك حظٌّ وافر من السامعين العاملين ، والخاضعين والحافظين .

فكان من الجواب : أن التصدّى للعامّة خُلوقة[2] ، وطلب الرِّفعة بينهم ضعة ، والتشبّه بهم نقيصة ؛ وما تعرّض لهم أحد إلّا أعطاهم من نفسه وعِلمه وعقله ولُوثَتِه ونِفاقه وريائه أكثر مّما يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبَذْلهم .

وليس يقف على القاصّ إلّا أحد ثلاثة .

إمّا رجل أبله ، فهو لا يدرى ما يخرج من أمّ دِماغه .

وإمّا رجل عاقلٌ فهو يزدريه[3] لتعرّضه لجهل الجهّال ، وإما له نسبة[4] إلى الخاصة من وجه ، وإلى العامّة من وجه ، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجانب للهجر ، والأعتراف الجالب للوصل ، فالقاصّ[5] حينئذ ينظر إلى تفريغ الزمان لمداراة هذه الطوائف ، وحينئذ ينسلخ من مهمّاته النفسيّة ، ولذّاته العقليّة ، وينقطع عن الأزدياد من الحكمة بمجالسَة أهل الحكمة ، إمّا مقتبِساً منهم ، وإمّا قابساً لهم ؛ وعلى ذلك فما رايت من انتصب للناس قد ملك إلّا درهما وإلّا ديناراً أو ثوباً ؛ ومناصَبةً شديدةً لماثليه وعُداته .

قال : إن الليل قد دنا من فجره ، هاتِ مُلحَةَ الوَداع .

---

(١) يريد بالجميع ، العامّة .

(٢) يريد بالخلوقة هنا معنى التبذل والامتهان . يقال : خلق الثوب بتثليث اللام خلوقة وخلاقة : إذا بلى .

(٣) يزدان به .

(٤) ورد فى الأصل بعد هذه الكلمة قوله : « له » وهى زيادة من الناسخ .

(٥) « فالعاص » .

قلتُ : قال يعقوب صاحب (إصلاح المنطق) :

دخل أعرابى الحمّام فزلق فأُنشجّ ، فأنشأ يقول :

وقالوا تَطَهَّرْ إنّهُ يَوْمُ جُمْعَـةٍ فرُحْتُ من الحمّام غيرَ مُطَهَّرِ
تَرَدَّيْتُ منه [شارِيًا] [1] شَجَّ مَفْرِقى بفَلْسَين إنّى بئسَ ما كان مَتْجَرِى
وما يُحْسِنُ الأعرابُ فى السُّوقِ مِشْيَةً فكيف ببَيْتٍ من رَخامٍ ومَرْمَرِ
يقول لى الأنباطُ إذْ أنا نازل [2] « به لا بظَبْىٍ بالصَّرِيمَةِ أعفرِ » [3]

وقال — حرس الله نفسَه — كنتُ أَرْوِى قافية هذا البيت « أعفرا » ، وهذه فائدة كنتُ عنها فى ناحية ؛ وأنصرفت .

(٧) قد رأيتُ أيّها الشيخ — حاطك الله — عند بلوغى هذا الفصل أن أختمَ الجزء الأوّلَ بما أنتهى إليـه ، وأشفعَه بالجزء الثانى على سِياجِ ما سلف نظمُه ونثرُه ، غيرَ عائج على ترتيبٍ يحفظ صُورَة التصنيف على المادة الجارية لأهله ، وعذرى فى هذا واضح لمن طلبه ، لأنّ الحديث كان يَجرى على عَواهِنِه بحسب السانح والدّاعى .

وهذا الفنّ لا ينتظم أبداً ، لأنّ الإنسان لا يَملك ماهو به وفيه ، وإنما يَملك ما هو له وإليه .

وهذا فصل يَحتاج إلى نَفَسٍ مَديد ، ورأيٍ يَصدُر عن تأييد وتسديد [4] ؛ والسلام ، والحمد لله وحدَه ، وصلواتُه على سـيدنا محمد النبى وآله الطاهرِين ، وسلّم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هذه الـكلمة أو مايفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ وبقية البيت تقتضى ما أثبتنا .
(٢) « تارك » .
(٣) هذا مثل يضرب فى الشماتة بالرجل . يريدون أن المـكروه ينزل به ولا ينزل بظبى أعفر ؛ كأنه من الخسة والهوان بحيث يفضّـل عليه الظبى الأعفر .
(٤) فى نسخة ميلانو بعد قوله : « وتسديد » ما نصه : أنشئت هـذه الرسالة فى رجب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة .

فهرست الأعلام

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

(ا)

(ط)

(ع)

(غ)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

تم فهرست الأعلام

فهرست أسماء الأماكن

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

فهرست القبائل والأمم والفرق

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرست أسماء الكتب

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

استدراك

اطلع صديقنا السيد محمد كرد على عَلَى تجارب الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة بعد أن مثلت للطبع ، فكتب عليها الملاحظات الآتية ، ونحن نسجّلها لحضرته مع شكرنا الجزيل له على هذه المعاونة العلمية القيّمة .

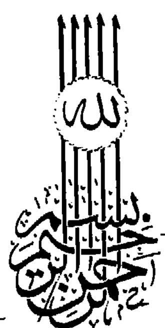
صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٨	أبعدُ	أبعدَ
٣	١٣	عابسا	عاتبا
١٠	٦	يُفْتَقَر	يُغْتَفَر
١٠	٨	بفكاهتك	بفهاهتك
١٢	٢	زهراتها	زهرتها
١٢	٩	وعيوب	وغيوب
١٣	٩	طلب	طيب
١٦	٩	يحرصون	ويحرصون
٢١	١	محاوبة	محاباة
٢٦	٩و١٠	والله إنى لأشترى المحادثة من عبيد الله	والله إنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله
٣٥	٣	شاذٌ	شادٍ
٣٨	٣	السامِرىّ والمعرى	السَامَرّىّ والصَّيْمَرى ، (وقد ذكرنا هذا التصويب فى فهرست الأعلام أيضاً) .
٣٩	٤	مخارق النجوم	مخارف النجوم

صواب	خطأ	سطر	صفحة
هذه الصناعة	عنده الصناعة	١٥	٣٩
يَعْتَبِر	يعبّر	١٣	٤٠
النفس الكلية	النفس الفلكية	١٩	٤٠
» »	» »	١	٤١
قلت	قال	١٣	٤١
تهجين	تأجيل	٦	٤٤
إلى قابوس بجرجان	إلى قابوس وجرجان	٨و٩	٥١
أنها منْ فعلاته	أنه من فعلاته	١٤	٥٧
يقال [له]	يقال	٤	٥٨
أبو طالب	ابن أبى طالب	١٦	٦٨
فى دارِ [لِتَانٍ] . (والتانى : الدهقان ؛ أو زعيم الإقليم)	فى دار	١	٧٠
ويتجنبون به الدناءة	ويتجنّون به على الدناءة	١٣	٧٢
فُغفور	يقفور	٩	٧٩
ويدفثنى	ويكفينى	١٠	٨٣
المؤدِّبة	المؤذية	١١	٨٦
نِقاب	نَقّاب	١٣	٨٦
والاختيار	والاختبار	٢	٨٨
وأبو سليمان يقول مع الجماعة	مع الجماعة وأبو سليمان يقول	١٦	٨٨
ويعتّف	وينصف	١١	١٠٠

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠١	٩	خَرِفت	خَرَقْت
١٠٢	٢٠و٢١	تتغذّى	تَتَنَدّى
١١٣	١٥	بمادة	بعبارة
١٣٦	١١	يَدْفَع	[لا] يَدْفَع
١٥٨	١٥	بَذّالاً	نَزّالاً
١٩٦	٧	حدّثت العين	جذبت العين
١٩٧	٢٠ ح	ثوبين	ثوبان
٢٠٨	١٠	لم تتحركون	لم [لا] تتحركون
٢١٨	٤	والثقة شوك القتاد	و [دون] الثقة شوك القتاد
٢٢٠	٧	لا يطردان ولا يستمران	لا تطردان ولا تستمران
٢٢٣	١	قوية	قويمة

وقد تفضل بختم هذه الملاحظات بالجملة الآتية :

« هذا ما أردت تقييده ، ومن هذه الملاحظات ما يردّ عليه بأيسر سبيل ، ومنه ما هو من هنات مطبعية لا يخلو منها كتاب ، ومَنْ رأى النسخة الوحيدة التى جرى عليها الطبع من كتاب الإمتاع والمؤانسة يهنئ الأستاذين ناشريه على ما وُفّقا له من تقويم غلطاته وسقطاته وتحريفاته ، والعصمة لله وحده » .


بسم الله الرحمن الرحيم